صلاح مرسي

الأعمال الكاملة



زقاق السيد البلطي

الطبعة الثانية

٢

- صالح مرسى -

- زقاق السيد البلطى -

الطبعة الأولى
١٩٨٧م ○ ١٤٠٧هـ

الناشر
ابوللو للنشر والتوزيع
١٦ شارع البورصه ـ التوفيقية ـ
ص . ب : ٢٥١٥ القاهرة ت : ٧٥٢٢٢٤
عمارات أبو الفتوح ـ عمارة ٣٩
شقة ٤ الهرم ت : ٨٥٩٥٥٦

الناشر خارج جمهورية مصر العربية
الدار المصرية للنشر والتوزيع
P.O Box 8559 Nicosia - Cyprus
Tel (02) 498688 - Tlex 5341
نيقوسيا ـ قبرص
ت : ٤٩٨٦٨٨

إلى ابنتي أمل
فعمرها من عمر الرواية

صالح مرسي

الغلاف تصميم الفنان : عبد الغنى أبو العينين

— ١ —

لم تمر أم حنفي منذ سنوات بتلك الفترة التى يمر بها الناس عادة بين اليقظة والنـوم ، كانت اذا وضعت رأسها فوق الوسادة ، راحت فى نوم عميق لا يوقظها منه طبل أو زمر ، ثم تصحو وكأن يدا تنتزع عن حواسها غلالة النوم على غير انتظار ، فيرتفع جفناها عن عينيها ، وتدير فى الظلام بصرها الكليل متحسسة به جسد ولدها الراقد عند طرف الحجرة ، ثم تستدير لتدثر ابنتها عائشة بالغطاء وهى تلومها حينا ، وتلوم حنفى حينا ، وتدللها حينا وتدلله حينا آخر فى غير تفريق بين لوم وتدليل . . . وتسكن العجوز بعد ذلك تماماً ، وترهف السمع لذلك النداء الذى أصبح مع مضى الزمن ، وكأنه يخاطبها فى كل فجر من فوق مئذنة المرسى أبو العباس .

كانت العجـوز قد أستيقظت فجأة فى فجر ذلك اليوم القارس من أيام ديسمـبر عام ١٩٣١ ، وراحت تنتظر فى هدوء صوت المؤذن . . . ومضت لحظات قبل أن تتساءل هامسة ـ إذ كانت أم حنفى دائماً ما تعبر عن أفكارها

بصوت مسموع ـ ان كانت غفوة قد أخذتها ففاتها الآذان ، أم أنها لم تنم كفايتها فى تلك الليلـة ؟ . . .

وانتبهت لحظتهـا ـ بلا سبب معـين ـ الى آلام ظهرها المتيبس وتذكرت نوبات الضعف التى أخذت تزورها فى الأيام الأخيرة فتلزمها الفراش . . . ففتحت فمها لتتأوه متوجعة ، عندما ترامى الى أذنيها صوت المؤذن سابحاً فى سماء الحى ، فنهضت على الفور من رقدتها وهى تلقى بشالها الممزق حول كتفيهـا ورأسها ، وتهيىء لنفسها مكاناً عند حافة الفراش الذى أخذ يصر صريراً حاداً مع كل حركة من حركاتها ، وتمتص فى نفس الوقت بأذنيها تلك الأصوات والتسبيحات والدعوات التى كانت تترامى إليها من حوارى الحى وأزقته كالهمس الحنون . . . فرفعت كفيها أمام وجهها ، وأخذت تقرأ الفاتحة فى خشوع ، طالبة للسيد البلطى السعادة حيث يعيش .

كان أكثر ما يثير شجنها فى تلك اللحظات أنه ذهب دون أن يودعها . . . فيفيض قلبها بالمرارة والأسى ، وتمصمص بشفتيها هامسة :

« معلش ياسيد ، يمكن هى أحلى منى ! »

وتجذبها على الفور ذكريات لم تفقد جُدتها رغم مرور عشرين عاماً كاملة ، فتستسلم لرجفات قلبها وهى تتساءل فى دهشة : « ترى ماشكها ؟! . . . . هل نصفها سمكة ونصفها إنسان ؟! . . . وكيف تعاشره إذن ؟! . . . . هل أنجب منها أولاداً ؟ . . . وهل هانت عليه عشرتها وحبها له ؟ . . . ألا يشتاق لحنفى وعائشة ؟ . . . كم أوحشها وجهه العريض القوى بشاربه الكث الذى يغطى صدغيه . . . لماذا لم ينتبه يوم أن أختطفته تلك الجنية الصارخة الجمال ؟ . . . هل ذهب معها برغبته ، أم ذهب مغلوباً على أمره ؟! . . . وهل كان السيد ممن يغلبون على أمرهم ؟ . . . يقولون عنها أنها كانت جميلة كالبدر فى ليلة تمامه ، لكن جمالها لم يشفع لها عند السيد ، فتركها وتزوج جنية

من جنيات البحـر . . . وهى لم تصدقهم ، ولن تصدقهم . . . فالسيد لم يمت ، لم يبتلعه البحر فى جوفه ، فالبحر يخاف الرجال . . . وكان زوجها رجلاً ولا كل الرجال !

* * *

ودائـماً . . . دائـماً كانت ما تنتـزع أم حنفى نفسهـا انتـزاعـاً من سيل الذكريات المتدفق ، لتستدير نحو ولدها وتبدأ فى إيقاظه بصوتها الثاقب ، ونداءاتها الرتيبة المنغمة ، وحديثها المتشعب . . . تنقد حينا ، وتمدح حينا ، تبتسم مرة ، وتعبس مرة ، تحدث نفسها ، وتحدثه ، تسأل وتتغضب ، تثور وتهدأ دون أن تنتظر منه رداً أو جواباً . . وتنادى بلا انقطـاع :

« حنفى ، حاااانفى ، حنوو ووفة ، ياواد ، لو ترحم نفسك من السهر ، راجع بعـد نص الليل وحاتصحى ازى وش الفجر ؟ . . . اسمع كلامى يابنى ، اسمع كلامى واتجوز . . . حاااانفى ، فين أبوك ييجى يشوف الحال المـايل ؟ . . . فكـرك أنت حاتجيبها البر ؟ . . . بكرة تعمل زيه وحياة مقام المرسى . . . ياواد ، حانفى ! »

وقد صحا حنفى ، وراح يتقلب فى مكانه متبرماً ، وأخذ يزوم فى ضجر ، وينطق كلمات متقطعة غاضبة معلناً بها عن صحيانه ، إلا أنها كانت تعلم أنه لن يصحو قبل أن يتعب قلبها . . . فاستمرت تنادى عليه غير عابئة بزجرة وهى تدير بصرهـا فى أرجـاء الحجـرة ، متحسسـة فى الـظلام مكـان كل شىء . . . فعن يسارها يقع الباب الذى يصل بين حجرتها وحجرة المعلم صادق ، زوج شقيقتها المتوفاة ، وابنته زوبة ، وبجواره باب حجرتها الذى يفتح على الفناء ، وعن يسار الداخل يقوم الدولاب الصغير الذى اشتراه لها السيد البلطى قبل ذهابه بأيام . . . وتحت أقدام الدولاب يرقد حنفى ممدداً جسده حتى منتصف الحجرة ، وفوق رأسه منضدة مفككة المفاصل . ما لها

كانت عائشة تعلم أن حديث أمها عن زواج حنفى سيجد منه ذات يوم أذنا صاغية . . . فلن ينتظرها شقيقها طيلة العمر ، ولن يستطيع مقاومة تلك الفاجرة التى تسكن الحجرة المجاورة طويلاً . . . والأيام تمر ، وكل يوم يضيف الى قلبها هما فوق همومها . . . فمتى ينتهى كل شىء ؟ . . . متى تتزوج أو تموت ؟ . . . وهل سيأتى ذلك اليوم الذى يطلبها فيه رجل ؟!

قالت لها أمها مئات المرات أنها تزوجت وهى فى الرابعة عشرة ، وأن فتاة واحدة من عائلة البلطى لم تعشش فى بيت والدها أكثر من خمسة عشر عاماً ، وها هى ذى قد بلغت العشرين . . . فهل فات الأوان ؟!

« عمرى لى اللمبة يازوبة »

رفعت زوبة رأسها ، وعلى وجهها تلك الابتسامة الزائفة التى لا تختفى ، ماذا يحب حنفى فى هذا الوجه المنتفخ ؟

« طب قولى صباح الخير يا عيشة ! »

تثاءبت عائشة وهى تمد يدها بالمصباح نحو ابنة خالتها ، وقالت وهى تمضغ كلماتها وتمطها فى استهانة :

« صبحك بالخير يا اختى . . . . »

تناولت زوبة المصباح ، واستدارت نحو حجرتها ، وتبعتها عينا عائشة تتأملان فى ضوء الفجر الشاحب جسدها الممتلىء ، وكتفيها السمينتين المحشورتين فى الثوب حشراً ، حتى بانت ثنيات اللحم واستدارة القوام ، واختفت زوبة داخل الحجرة ، وهبت نسمة باردة من باب الطريق المفتوح ، فارتجفت عائشة ، وضمت ذراعيها الى صدرها ، وتحسست بكفيها لحم كتفيها ، فاصطدمت بنتوءات عظامها البارزة وتذكرت على الفور ـ فى حسرة شديدة ـ ما اشترته من محوج وحلبة ووصفات ربت اللحم على أكتاف

الكثيرات ، لكنها لم تؤثر فى جسدها الضامر . . . فهل يسكن جسدها شيطان كما تقول أمها حقاً ؟ . . . . وهل تسلط عليها ذلك الشيطان فأمتص دماءها ووضع بينها وبين الزواج حجبا كثيفة ؟!

تقدم المصباح فى يد زوبة فغمر الفناء بضوئه المختنق وراء سواد الزجاجة ، وأخذت عائشة ـ على الرغم منها ـ تتأمل تقاطيع زوبة وشعرها المسترسل فى اهمال جعلها أشد فتنة مما تعودت أن تراها ، وارتجف قلبها لمرأى الأنف الصغير كالنبقة ، والعينين الواسعتين الضاحكتين ، والوجنتين المكتنزتين . . . لكنها ما لبثت أن تناولت المصباح عندما أطلت من عينى زوبة تلك النظرة المتسائلة الحيرى التى كثيرا ما أوقعتها فى ارتباك شديد ، مخافة أن تكشف زوبة ما يعتمل فى نفسها . . . وانفلتت بالمصباح مهرولة كمن تفر من ذنب ارتكبته تاركة ابنة خالتها فى الفناء وحيدة وعلى وجهها ابتسامة واسعة ، وفى عينيها نظرة معفرتة فاهمة !

وانتشر الضوء فى حجرة أم حنفى ، وتمددت ظلال الأثاث القليل على غير العادة . . . وأثار صمتها هذا مخاوف ابنتها ، فراحت تختلس النظر وتردده بين أمها وشقيقها فى رعب . . . أيكونان قد اتفقا على أمر ؟ . . . . ماذا يدور فى رأس أمها ؟ . . . وماذا يدور فى رأس حنفى ؟! . . . هل اقترب اليوم الذى ستصبح فيه فلا تجد حنفى ممدداً على أرض الغرفة فوق حشيته ؟ . . . هل . . .

« حنفى . . . ما تقوم يا ابنى تتوكل على الله ، أعملى الشاى يابت »

* * *

كان حنفى غارقاً فيما يغرق فيه كل صباح . . . أحلام تراوده حينا ثم تنقطع عنه لتعود من جديد عنيفة حادة هوجاء ، تسلب النوم من جفونه ليالى

وليال . وتندفع النوم الى عينيه فى رفق ولذة ليالى أخرى وليالى . . . . وتهبط عليه كل صباح عندما يصل الى أذنيه صوت أمه ، وينسحب عنه النوم تاركاً مكانه ليقظة شديدة ، وحواس مرهفة ، أشدها حساسية أذنان مدربتان على تتبع زحفات شبشب فى الحجرة المجاورة ، أو فى الفناء .

ما الذى يمنعه حقاً من الزواج ؟! . . . هل هى عائشة ؟ . . . نعم عائشة ! . . . ولكن ، هب أن أحداً لم يتقدم لها ، أو أنها ظلت طوال عمرها بلا زواج ، فماذا هو فاعل ؟ . . . ثم ، ماذا لو تقدم أحد الرجال للزواج من زوبة . هل يستطيع الإعتراض ؟!

ترى ، هل تحبه زوبة ؟!

جفل عندما راوده هذا الخاطر . . . خيل اليه أنه يعرى زوبة من ملابسها ! ما هو الحب ؟! . . . الحب فى زقاق السيد البلطى سلعة محرمة ، قد يحب الرجل زوجته وأولاده ، ولكن ان يحب فتاة لم يتزوجها بعد ، فهذا هو الضلال بعينه ، فما بالك وهذه الفتاة ابنة خالته ، وابنة ابن عم والده ، فتاة من عائلة البلطى ، تجرى دماؤه فى عروقها . . . ولو أن أحداً قال ذلك أمامه لما تردد فى سحق رأسه ، ولكن ، لم الخوف وقصده شريف . . . مهما هرب ومهما فر ومهما خدع نفسه . . . فما فى قلبه . . . .

« حنفى ، قوم يا اخويا إتشطف ، المية حاضرة ؟ »

رفع رأسه فاصطدمت عيناه بوجه أخته الدميم الواجم ، وقد برزت تقاطيعه فى ضوء المصباح فازداد قبحاً ودمامة . . . يقولون أن أباه كان جميلاً بهى الملامح ، وإن أمه كانت كالبدر . . . فلمن خلقت أخته دميمة ، لمن هذا الأنف الكبير ، والعينان الضيقتان ، والفم الواسع ، والعظام الناتئة ؟ . . موجات غامرة من الحنان تتدافع فى صدره ، فنكس رأسه فى

صمت ، ونهض وراء أخته الى حيث كان الطشت عند باب الحمام ، دار ببصره فشمل المكان فى لمحة . . . لم تكن واقفة ، لابد أنها تجهز الفطور لأبيها . . . متى تصب المياه على كفيه بدل عائشة ؟ . . . متى تتزوج أخته ؟ . . . متى تكف المطارق التى تهشم رأسه ، وعائشة لاذنب لها . . . أيتركها ويكسر خاطرها وليس لها فى الدنيا غيره ، أينقاد لعواطفه كالاعصار دون أن يتحسس طريقه فيسحق ما أمامه ولو بالحلال ؟! . . . لن يتزوج وليحدث ما يحدث ، عائشة أولاً وقلبه ثانياً . . . ولكن ، هل هو صادق فيما يقول لأمه ، لقد هم بالأمس أن يحدث المعلم صادق فى المقهى ، وكاد منذ لحظات أن يتصنع الضيق من إلحاح أمه ويصيح فيها أن تختار له زوجة وتريحه من وجع الدماغ الذى يعيش فيه . . . لكنه تراجع اليوم كما تراجع بالأمس وأول أمس ومنذ شهور طويلة . . . تصده قوة قاهرة ، حب طاغ لأخته لم يملك إلا الاحساس به والاستسلام له . . . فى أحيان كثيرة كان حبه هذا يفيض فيقبل عائشة ضارباً عرض الحائط بصيحات أمه التى ترى فى القبلات مسخرة وقلة حياء !

« الشاى ياعيشة أحسن أبويا محمد زمانه اتوكل ! »

قال هذا ورفع اليها وجها مبتسما وعينين يفيض منهما الحنان ، وردت هى على ابتسامته بابتسامة . وهمست بصوت منفعل مرتجف :

« حاضر يا أخويا . . حاضر »

واستدار . . . وخطا نحو حجرته . . . وما كدا يدلف اليها حتى هفت من ورائه رائحة ، وحفيف ، وزحف الشبشب فى الفناء . . . وصر على أسنانه وهو يهمس لنفسه : « يعنى لو بدرتى شوية ! »

— ٢ —

بدت زرقة السماء فى ذلك الوقت المبكر رائعه تبهر البصر ، وسبحت قطع السحاب المتناثرة فى جماعات كعرائس أسطورية ترتدى غلالات شفافة . . . ودبت الحركة فى شوارع المدينة وحواريها ، كما دبت فى زقاق السيد البلطى ، وأخذت أبواب بيوته تنفرج بين الحين والحين عن رجل يسعل ويدب فوق الأرض بقدميه مسرعاً ، أو طفل يحمل وعاء يسرع به إلى بائع الفول الذى كان صوته يصل من بعيد منادياً على بضاعته بصوت أجش ، أو امرأة تطل رأسها منادية على « عم حسين » بائع الحليب .

غادر المعلم صادق ابنته زوبة ككل صباح ، فوقفت وسط الحجرة وحيدة ، يصل اليها صوت خالتها من وراء الباب وهى تعيد موال كل يوم . . . ورغم أن المناقشة لم تكن جديدة فى شىء ، حتى فى كلماتها ، ورغم أن زوبة كانت تعلم مقدماً نتيجتها المحتومة . . . إلا أن الأمل فى أن يلين حنفى لم يفارقها .

دثرت كتفيها بشالها ، ثم رفعت طرفه الى رأسها وأحاطته به ، وتقدمت خطوة نحو الطشت القابع تحت أقدام المقعد بجوار الفراش . . . كان عليها أن تحمله بمياهه وصابونه الى الحمام الذى يتوسط الفناء ، عندما سمعت صوت حنفى يزمجر متأففا من الحاح أمه ، وترددت برهة ، على أن ترددها لم يطل . . . راحت تمضغ فى ذلك الوقت فكرة عابثة كثيراً ما راودتها ، الفكرة ناعمة وتدفع الدماء فى العروق وتصبغ الوجه باللون القانى وتنمل الأطراف ، لكنها ظلت على مر أيام طويلة تزحف فى بطء وتتمكن من نفسها يوماً بعد يوم ، بل ساعة بعد أخرى ، حتى تمكنت منها تماماً . . . ومن ثم فقد تحولت زوبة الى الباب الذى يفصل الحجرتين وهى تلقى على الطست نظرة ذات معنى ، وجذبت بأصبع قدمها الفروة العتيقة الراقدة فى منتصف الحجرة حتى لاصقت الباب ، ثم قبعت فوقها واستكانت الى مجلسها الذى تعودته على مر الأيام ، وجاءتها الأصوات أشد وضوحاً وأكثر صخباً . . .

« يا ابنى اسمع كلامى . . . الجواز نص الدين ! »
« والنبى يا امه ، قولى يافتاح يا عليم »

كانت زوبة تعلم أن ما تفعله عيب لا يغتفر ، ولو علمت أن فلانة تحب فلانا لشهقت وخبطت صدرها بكفها وصاحت فى استنكار : « يالهوتى ! » . . . ولو قالوا لها أن فلانة تسترق السمع من وراء الأبواب لقالت على الفور فى نفور ودهشة : « يامصيبتى ! » . . . وكثيراً ما عذبتها هذه الخواطر ، لكنها كانت تجد نفسها مدفوعة رغماً عنها إلى ممارسة مشاعرها ورغباتها دون أن تبوح لأحد بكلمة ، وقد فاض بها الحال ذات يوم . . . وأحست بعبء حبها يثقل قلبها . . . ولم تجد من تستطيع أن تحدثه فى الموضوع سوى مسمار !

فى البداية قالت عن نفسها أنها لابد مجنونة ، فكيف تم

مسمارا ؟! . . . ثم قالت أنها قليلة الحياء والتربية . . . ثم استكانت مع الأيام ، ونسيت الجنون وقلة الحياء والتربية . . . ولم تعد تمارس ذلك الزجر العنيف لنفسها ، والذى اعتادته منذ أن وعت ذات يوم ـ ولا تدرى متى وكيف أو لماذا ؟! ـ فوجدت نفسها قد وقعت فى حب حنفى دون كل رجال الزقاق .

كثيراً ما جلست فى هذا المكان لتسمعه وهو يتحدث ويحكى لأمه وأخته عن الرزق الذى صادفه ، أو الرجال الذين تشاجروا ، أو الشبكة التى تمزقت وبليت ، والقارب الذى يحتاج الى ترميم . . . وكانت تستطيع ـ دون حرج ـ أن تذهب وتجلس معهم وتسمع حكاياته وترقبه عن قرب ، لكن ذلك كان قبل أن يدب فى قلبها ذلك الاحساس الذى كان يخطف روحها كلما التقت عيناها بعينيه ، حتى أصبحت تفر من أمامه خشية أن يكشف هو سرها ، وهو بالذات ، فماذا يقول عنها لو علم أنها تحبه ؟ . . . وهل يتزوجها رجل يعرف أنها تمارس العيب وهى فتاة ؟!

واكتشفت ذلك المكان وراء الباب . . . ثم عثرت على ذلك المسمار الذى دفن نصفه فى الجدار الرطب وبقى نصفه ممتدا فى الفضاء . . . تعبث به أصابعها ، وتتحدث اليه هامسة ، وتبثه شكواها ولوعتها ، وتسأله المشورة وتتمنى لو أجابها بكلمة .

كان حنفى صلب الرأى . . . ما من مرة حدثته أمه فى الأمر إلا وقال لها : « لما تتجوز عيشة ! » . . . وتلح أمه ، وتعلق عائشة بكلمة أو كلمتين . . . فيصمت ، وتترقب زوبة رده بقلب واجف ونفس متطايرة .

خيل اليها فى أحيان كثيرة أنه سيقول : « على بركة الله . . . أطلبى لى زوبة يا امه » . لكنه لم يقلها أبداً . بل كان يندفع فى صوت باتر ولهجة جادة لاتدع مجالا لاستمرار المناقشة : « لأ . . . قلت لأ . . . لما عيشة تروح بيت

جوزها ، خلاص ! » . . . كانت وقتها تحس بطعم المر فى فمها ، وتشعر بأن قلبها يلفظ آخر نبضاته فى خفقات سريعة مضطربة . . . وعندئذ ، تمتد أصابعها الى المسمار لتتحسسه فى اضطراب وهى تهمس بصوت حزين : « شايف . . . مش بيحبنى ! »

أفاقت زوبة فى ذلك الصباح من خواطرها على صوت عائشة وهى تقول :

« جرى ايه ياخويا ، هو أنا حاروح فين ، دانا حا أفضل جنبك ، والنبى أمى معاها حق ، حاتفضل عازب لامتى ، حقه مالكش حق ياسى حنفى »

لم يكن يهمها أن تكون عائشة كاذبة أو مخاتلة ، لايعنيها من الأمر شىء ، بل هى لاتفكر فيه ولا تريد ، كل ما يهمها فى تلك اللحظات أن تسمع صوته ، ولو كانت كلماته فى ذلك الوقت حكما يصدره عليها بالأعدام لتقبلته راضية ، فيكفيها أن تسمعه ، وتتذوق رجفة القلب وخفقته الموجعة . . . وقد سمعته يزجر شقيقته :

« بس يابت بلاش كلام فاضى ! »

وصاحت أم حنفى :

« والنبى حاموت ، حاموت من غير ما أفرح بيكم ، ياواد اعقل بقى ، ريح قلبى يا ابنى ربنا يريح قلبك » .

« يا امه قلت لك ألف مرة مش حانتجوز قبل ما تتجوز عيشة . . . لزومه ايه اللت والعجن بقى !»

قال هذا بحدة وهو يلقى بكوب الشاى الى الأرض بجواره فيتحطم . . . واضطربت زوبة وقد تملكتها تلك الفكرة المجنونة . . . لكنها لم تتردد لحظة ،

ألقت على المسمار نظرة سريعة ، ثم نهضت كمن ألهبها لسان من النار ، وقفزت الى حيث كان الطست فاختطفته واندفعت الى الخارج . . . وحدث ما توقعته . . . اصطدم بها حنفى فى اندفاعه خارجاً من حجرته ، فتمايلت ، وتمايل الطست فى يديها ، وكادت مياهه أن تندلق . . لولا كفاه !

كيف حدث هذا ، يقولون أن كفى السيد البلطى كانتا ككفى عملاق هائل ، ولكنهما قطعا ليستا ككفى ابنه ، ولم تكن أصابعه بأية حال من الأحوال كتلك الأصابع القوية الصلبة التى انغرست فى لحم ذراعيها . . . ماذا لو طالت هذه اللحظات فامتدت الى أن تموت ، أو تغرق ، أو تخطفها جنية وتخنقها . . . أو يحدث لها أى شىء . . . فقط ، يبقى فى وقفته ، وجهه الكبير يطل عليها من أعلى . . وأنفاسه الدافئة تغرق وجهها وتلتف حوله كغلالة عطرة ، ثم تهبط الى صدرها . . وتستكين فى دوامة رائعة بين نهديها !

« صباح الخير يا زوبة ! »

لماذا نطق ؟ . . . لماذا تكلم ؟ . . . إن أعظم أحلامها جموحاً لم تكن لها لذة كتلك اللذة الراعشة التى كادت أن تفقدها الوعى . وليس هناك مفر . فلابد من رد تحيته !

« صبحك بالنور ياسى حنفى »

وانفرجت الأصابع ، وانفلت الحبيب من جوارها الى الباب ، واختفى !

أى جنة تلك التى يعدنا الله بها ؟! . . . هل سيضارع جمالها جمال ذلك الفناء الرطب ذى الأرض اللزجة والجدران المتآكلة ؟ . . . ليقولوا ما يحلو لهم ، لتكن قليلة الحياء . . . ولتكن حتى فاجرة إن كان الفجر أن يمسها حنفى كل يوم ، ويضمها بنظراته ، ويغرقها بأنفاسه .

ترى . . . ماذا يحدث لو تزوجا ؟!

وانسالت المياه من جانب الطست لتغرق طرف ثوبها ، وتسيل على الأرض !

— ٣ —

أيقن حمود البلطى فى ذلـك الصبـاح أنـه لا محالة واقـع بين أنياب المرض . . . أحس نهشة القاسى عندما فتح عينيه على صوت زوجته وهى تناديه ، صدره منقبض ، أنفاسه متقطعة ، والهواء شحيح . . . قال باسم الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم استعان بالمرسى أبو العباس ، وأخذ يتبع بعينيه عطيات وهى تنتقل فى أرجاء الغرفة رائحة غادية ، تجهز له الإفطار ، وتـدثر الصغار الراقدين فوق الحشية بجوار الباب ، قد تعرت أطرافهم ، وتكوم الغطاء بين أجسادهم منحسرا عن ساقى هذا ، مغطيا وجه تلك ، وأنفاسهم منتظمة هادئة ، وأنفاسه متقطعة مختنقة ، فسعل محاولا انتزاع تلك السحابات الخانقة التى تملأ صدره وحلقه ، فتمنع عنها الهواء . . . ثم سعل مرة أخرى وزام وقال : « يا سـاتر ! » . . . ورفعت عطيات رأسها اليه ، وجمـدت عيناها عليه وهى تسأله عن حاله . . . فقال وهو يلقى بساقيه فى الهواء ويدليهما من فوق الفراش :

« الدور يا عطيـات ، الدور ! »

ردت عطيات بلهجة قلقة وهى تحاول جهد استطاعتها أن تخفى ما انتابها من قلق :

« ياخويا خليها على الله ، بس انت ماتاخدش فى بالك . . »

وأمتدت يدها بكوب الحليب الساخن ، فتناوله منها ورفعه الى شفتيه ، لكن القبضـة الشرسـة كانت قد تملكت من صدره ، والتنميل يسرى فى جسده ، وسحابه المجهول تغطى عينيه فتغيمان ، فشهق ، واهتز الكوب فى يده ، وتمايلت المرئيات أمام عينيه وتداخلت ، فسعل ثم شهق مرة أخرى ، واقتربت منه عطيات وتناولت كوب الحليب من يده ، وحملقت عيناها فى تلك الزرقة التى أخذت تزحف فوق صفحة وجهه ، وذلك البياض الذى كسا عينيه . . . وقال حمودة وهو يقاوم فى استمائه :

« العيـــال يارب . . . العيال ، العيال ياعطيات ! »

إنغرست الكلمات فى صدر المرأة كإبر حادة ، اقتربت منه و وضعت كفها فوق كتفه وهى تتمتم بالدعاء ، وتطلب الرحمة فى رجاء . لكن تقاطيع حمودة كانت تزداد تقلصا ، وأصابع يمناه انثنت كمخالب ، وأخذت تحفر فى لحم رقبته طريقاً للهواء ، وشهقاته تتتابع فى لهفة ، فصاحت بصوت مضطرب :

« سى حمودة . . . حمـودة !! »

كان عقل حمودة لايزال يبحث عن مخرج من ذلك الظلام الذى راح يحجب عنه الوعى تدريجياً ، وأحس ببرودة لاذعة تغرق جسده كالطوفان ، وخيالات كثيبة تروح فى ذهنه وتجىء كأطياف مطموسة الملامح ، القارب الذى ينتظره فوق الـرصيف خاليا ، والشبكـة المعلقـة على السياج تعبث بها الـريح ،

والـرزق ، والـرجـال ذوو الـسواعد القوية يدفعون بها المجاذيف الى جوف المياه ، والأجسـاد الخمسـة الممـددة فوق الحشية . . . من يعـولهم من بعـده ؟! . . . والدواء الذى ما يكاد ينفذ حتى يشترى غيره ، والإبر التى تنغرس كل يوم فى لحمة ، والطبيب ، والسيد أفندى الباشتمرجى . . . لابد أن يأتى الآن ، يجب أن يقول لعطيات ، لكن الهواء ضنين ، شحيح . . . هواء ! . . . نسمـة ! . . . نسمة ترد إليه الـروح . . . الـظلام يكثف ، والأطياف تذوب فيه ، ورأسه ثقيل ، يهوى الى قرار سحيق ، العيال ، لقد خف رأسـه وأخـذ يتـطاير وتكاثفت السحب فسدت الطريق الى صدره ، نسمـة ! . . . هواء ! . . . قطرة من رحمـة ! . . . ظلام ! . . . أمطار ! . . عـ . . . طـ . . . يا . . .

وانـطلقت صرخـة عطيات لتثقب كل أذن فى الزقاق ، واندفعت تضم الجسد الذى تهاوى بين ذراعيها . . .

« الحقونى يا اخواتى . . . الحقونى . . . الراجل راح من ايدى ! »

فتحت النوافذ ، وأطلت منها الرءوس ، وهرولت الأقدام ، وقال أكثر من صوت : « حمودة ! » ، واستيقظ العيال ، وتسمروا فى أماكنهم ، ثم تلاصقوا وهم يحتمون بعضهم بالبعض ، وبكوا فزعين ، واندفعت عائشة الى الحجرة ورأت خالها ممداً ، يتقلص جسده ثم ينفرد فى حركات حادة سريعة ، برزت عروق رقبته ونفرت ، وانفتح فمه فى استغاثة ، وشهقاته تتلاحق ، وأصابع يديه تتشبثان بكل شىء وأى شىء ، دموع عطيات ، ونواح العيـال . . .

وصوت أم حنفى يأتى من الخارج وهى تتعثر فى الطريق وحـدها :

« ياخويا ، ياضنايا ، إن شا الله أنا ياحمودة ! »

وسرعان ما اكتظت الحجرة بنساء الزقاق وصاحت احداهن :

« السيد افندى الباشتمرجى ياخواتى . الحقونى بالسيد أفندى ! »

وبـلا وعى ، امتـدت يد عائشـة فجذبت الشال من فوق كتفى زوبة واندفعت الى الطريق لا تلوى على شـىء !

* * *

كان حنفى يوسع الخطا وهو فى طريقه الى الشاطىء ، يرطب الهواء وجهه الملتهب ، وتندفع من أنفه سحابات من الضباب متقطعة كأنفاسه . . . كان الضعف والـتراجـع هما ألذ ما يتوق اليه فى تلك اللحظات ، لازالت آثار أنفاس زوبة تعبث بشعيرات صدره العارى ، وعيناه تلحظان بلا مبالاه أرض الطريق المبتلة ، وبقع المياه المتناثرة كالبحيرات الصغيرة تعكس على صفحتها نتف السحاب المنثورة فى السماء . . . والطريق أمامه خال ، ليس سوى صياد هنا ، وصياد هناك . . . يلقى بالتحية على الناس فى اقتضاب وذهنه غائب فى دوامة لا متناهية ، ينثنى الى اليمين حينا والى اليسار حينا دون أن يدرى وكـأن قدميه عاقلتـان تعـرفـان الطريق ، عامل يسير على مهل وفى تكاسـل ، لازال أمامه وقت فالشمس بالكاد تصعد فوق حافة الأفق ، مقهى أبـو على الكيلانى يفتـح أبوابه ، عم حامد بائع الفطير يدفع عربته أمامه ويصيح بصوته الجميل : « الحمد لله . . . ياغنى ! » ، فيردد وراءه : « لا إله إلا الله » . . . لابد أن المعلم محمد يقف الآن فى انتظاره ، وعى فوجده فى مقام أبيه فناداه كما يناديه الجميع ، يابا محمد . رباه وربى عائشة ، شب عن الـطوق ليجـد نفسـه فى قاربه يتعلم منه طرح الشبكة وجذبها ، تماماً كمحمود ابن عمه . . . كانا أخوين دائماً وان اختلفا فى كل شىء ، ترى لو عاش أبـوه ، أكان قد أحبه قدر حبه للمعلم محمد ؟! . . . كم يتوق لأن يستقـل بقـارب وحده ، وان فعل . . . فلمن يترك عمه ؟ . . . ان محمود كعدمه تماماً ، يعمل يوماً ويقضى يومين فى البوظة بين الصحاب ، لايكاد

يفيق من سكره أو سطلة !... وللسن أحكام ، فرغم بنية عمه القوية إلا أنه لا يكاد يصنع شيئا ، سبعون عاماً وهو يكدح فى مهنة لاترحم شيخوخة ولا ضعفا ... هل يظل بلا زواج حتى يولى العمر ؟!... ان زوبة تزداد جمالاً يوماً بعد يوم ، ونار قلبه تزداد اضطراما ساعة بعد أخرى ... والسماء اليوم صافية ، والرزق يرسله الله بحساب وكأنه يدخر للأولاد والأحفاد ما يكفيهم !

أمه محقة وهو يعلم ذلك ، وعائشة ليست دميمة الى هذا الحد ، ورجل لابد سيطلب الزواج منها ذات يوم ... وسيقول على بركة الله ، ثم يهرع فى نفس اليوم ، لا ، بل فى نفس الساعة الى المعلم صادق ويطلب منه زوبة ، سيهمس فى أذنه بالأمر كله ... لقد أدخر ما يكفى لشراء قارب ، سيكون له عذرة ولن يمانع عمه ، ذراعه قوية والحمد لله وتستطيع أن تجذب شبكة تحمل طنا من الأسماك ... ثم إن زوبة يابا صابر لن تنتقل من البيت ، ستظل بجوارك وتخدمك وكأنها لم تبرح غرفتك ، ستعبر الفناء فقط الى حجرة حمودة التى خلت بعد زواجه من عطيات ، والحجرة على يسار دورة المياة وبينك وبينها خطوتان ، سيقيم فرحا لم يشهد الزقاق مثله من قبل ، ولم يعرفه الصيادون منذ أيام السيد البلطى . ترى هل يشبه أباه حقاً كما يقولون ؟!... كيف ابتلعت الأمواج جسده الهائل العظيم ؟... لماذا لم يسبح ؟... لماذا لم يظهر لجثته أثر ؟... وجدوا قاربه فى عرض البحر خالياً ... تركه وحيدا وعمره عامان وعائشة ابنة ثلاثة أسابيع ، لم كان الرجال يخافون من أبيه ؟... هل من العدل ألا يبحث الرجال عن رزق والأرض أرض الله والمياه مياه الله ؟!... وهل كان أبوه على حق فيما كان يفعل ؟!... طالما قصوا عليه القصص فتعجب ... ألم تكن هناك حكومة ؟!... ألم يكن هناك سلطان على الشاطىء سوى سلطان السيد

البلطى ؟!... ان هذا يغمره بالزهو والفخر والغبطة ... على أن احساسا ما ظل كامنا فى أعماقه ، احساساً لم يستطع تفسيره ، بل انه لم يجرؤ على مفاتحة أحد فيه ، أى سؤال وأى حديث حول السيد البلطى يدور فى غير تقديس كفر لا يغتفر ...

حكى له خاله حمودة ذات مرة كيف هزم السيد دستة من الرجال عندما حاولوا الاقتراب من شاطىء البلطى ... مسكين حمودة ، صاحب أولاد ومرض .. إنه ينفق كل ماله على الدواء ... وأفاق حنفى على صوت يناديه :

« سى حنفى ... ياسى حنفى ... ياخويا »

كان قد انثنى الى شارع البحرية ... وسار بجوار سور الميناء الكالح ، فاستدار الى الوراء وقد تملكته الدهشة ، صدمه صوت عائشة المتلهف ، وروّعه منظر جسدها الذى كان يتمايل وهى تحجل على ساق واحدة ، فهمس فى قلق : « يا فتاح ياعليم ! » ، ثم انطلق عائداً اليها ...

اقترب منها وعيناه لا تفارقان وجهها المتقلص بالألم والبكاء ، وقد تهدلت على جبينها الضيق شعيرات لم تستطع أن تخفيها من اللهفة ، فاندفع يقول :

« خير ياعيشة ! »
« خالى ... خالى حمودة جاله الدور ياخويا ! »
« وعاملة فى نفسك كده ليه ؟! »

« أنا خايفة ياسى حنفى ... الدور المرة دى جامد قوى ! »

أنبأته دموعها بما جعل قلبه ينقبض ، وكان يعرف ماذا عليه أن يفعل ، فقال بلا تردد :

« روحى انتى ، وأنا رايح للسيد أفندى البشتمرجى »

تركها مبهورة الأنفاس ، زاد بكاؤها من دمامتها ، واحمر طرف أنفها ، وكست الـزرقة وجنتيها ، وصدرها يعلو ويهبط فى انفعال حاد . . . كانت تتحسس بين الحين والحين قدمها التى التوت أثناء عدوها ، واحساس دفين فى أعماقها يستعذب لذع الدمع وتقلصات الوجه وانفجارات الألم الكامن ، فأخذت تهمس :

« ياحبيبى ياخالى . . . يابو العيال ياغالى ! »

لكن عائشـة لو وقفت لحظة أمـام مشاعرها الحقيقية . . . لكانت أول الداهشين لسبب بكائها الشديد ، ودمعها الغزيـر !

— ٤ —

كثيراً ما تملك الغضب نفس المعلم محمد البلطى أثناء انتظاره لحنفى صباح كل يوم . . . على أن أمر ولده محمود فى تلك الأيام ما كان يهمه فى كثير أو قليل ، أو هذا ما كان يحاول التـظاهر به ، فرغم محاولاته الكثيرة ، ورغم الـزجر الذى مارسه معه حينا ، واللين الذى حاول أن يغزو به نفسه حينا آخر ، إلا أن ولده كان يعود دائماً الى سيرته وحياته التى يحياها فى المواخير ومع الغوازى والساقطات من بنات كوم بكيـر !

ولا يدرى المعلم محمد البلطى متى انجرف ولده مع هذا التيار ، ولم يكن يعنيه أن يحدد الزمن ، فليس هذا من طبعه ، كل ما يعلمه أن محمود لم يعد يظهر على الشاطىء إلا لماما ، حتى جاء وقت أنكر فيه أن ولده يمكن أن يكون صياداً . . . وقد حز فى نفسه هذا الأمر وأدمى قلبه وأرقه ليالى طويلة لم يذق فيها طعم النوم ، إلا انه أستطاع أن يستعيد هدوء نفسه بعد حين - وان لم يستـطيع أن يمحو المرارة التى لونت حياته بلونها الأصفر الكئيب - ووضع فى حنفى كل أملــه .

كان المعلم محمد ـ ككل صياد يعتز بمهنته ويفاخر بها ـ لا يستطيع الا أن يلحق مكانه من المياه قبل أن تشرق الشمس ، لذلك ، فقد كان أكثر ما يضايقه ويغضبه ، أن يتأخر حنفى عن الموعد أو يتلكأ فى اللحاق بـه .

وكثيرا ما تأخر حنفى عن موعد الرحيل . . . ينتشر الضياء ، ويظهر فى الأفق قرص الشمس ، وتخرج القوارب قارباً وراء الآخر ، ويخلو الرصيف إلا من قاربـه . . . يهتـز ويتمايل فوق صفحة المياه فى انتظار ساعدى حنفى القويتين . . . ودائماً ما يأتى حنفى مهرولاً ، وما أن يراه عمه حتى يتبخر غضبه ، وتذوب الكلمات التى كانت قد تجمعت على طرف لسانه وتزاحمت فى انتـظاره حتى تنهال عليه لوما وتقريعاً . . . ويجد العجوز صوته الهادىء خالياً من كل انفعال :

« اتأخرت ليـه ياحنفى ؟ »

« والله يابا محمـد ، أصل الـ . . . »

ويمضغ حنفى الكلمات الباقية فلا يبين لها معنى ، ويبتسم المعلم محمد وهو يقفز الى القارب ، ويبدأ عمله وكأن شيئاً لم يحدث .

على أن الأمـر لم يكن ليمر دائماً بمثل تلك البساطة ، فكثيراً ما تحدث المعلم محمد مع حنفى وهما جالسان فى القارب وسط المياه عن ميزة التبكير فى الحضور . . . كان الرجل يؤمن دائماً أن صيد البكارى بركة ، وأن الصياد الماهر هو من يعود بحملة قبل الضحى فيتخاطفه التجار وهو حى يلعب . . . والنـاس مغـرمـون بالسمـك الحى ، يدفعون قرشاً أكثر فى مقابل سمكة تتلوى ، ولو وضعها وسط أكوام من الأسماك التى صيدت فى العام الماضى !

ولم يكن حنفى يرد على عمه أو يناقشه فى حديث ، انما هو يصغى صامتاً لصوته الهادىء الوقور ، ويهز رأسه بين الحين والحين مؤمناً ، وينهض ليجذب

حبلاً أو يعدل من وضع شبكة ، أو يطرح أخرى على الجانب الآخر ، ولا يكف عن العمل لحظـة .

وقد حمد له العجوز ذلك التأدب الذى لم يجد سبيله الى نفس ولده . . . وفى مثل تلك الأوقات التى يطول فيها الصمت والترقب ، كان المعلم محمد يترك لنفسه العنان ليفكر فى أمر محمود ، أو يتحدث فيه مع حنفى فيتساءل من جديد ـ دون أن يمل من ترديد سؤاله ـ بمن يتشبه محمود ؟ . . . وهل سيظل طوال عمره متسكعاً بين الحانات والغرز ؟ . . . إنه لم يدخر وسعاً فى تربيته حتى أصبـح صياداً يحسده رجال الشاطىء على مهارته ، فلماذا لا يهتـدى بالله ؟ . . . كم من مرة تشاجـرا سوياً ، وكم من مرات طرده من البيت . . . بل انه أعلن ذات صباح حالك فوق الرصيف وأمام كل رجال الشـاطىء ـ وكان هذا حدثاً رهيباً اهتزت له عائلة البلطى ـ أنه برىء من ولده . . . لكن محمود لم يهتم ، غادر الرصيف وغادر الزقاق أياماً . . . ثم ظهر ذات صباح مستقلاً فلوكه ذات شراع يوصل بها الناس لقاء أجر . . . وكـانت هذه هى الـطامـة ، واجتمـع رجال البلطى وشبابه فى بيت المعلم محمد ، وقرروا بالإجماع أن يعود محمود الى بيت أبيه ، وأن يعتذر ، وأن يعد بألا يهمـل بعـد اليوم عمله . . . وقد عاد محمود ، وأعتذر ، وقبل يد أبيه ورأسه ، وأقسم ألا يهمل بعد ذلك عمله . . . ومضى يوم ويومان ، ومضت أيام عاد بعدها محمود الى سابق عهده . . . يسهر حتى الصباح ، ويعود مع بزوغ الفجر حطاماً ، محمر العينين ، شاحب الوجه مترنحـاً .

* * *

غادرت الشمس حافة الأفق وأخـذت تتسلق صفحة السماء ، وألقت بشعاعها الدافىء ونورها الواهن فغمر كل شىء . . . ولم يظهر حنفى !

وكان هذا أكثر مما يطيق المعلم محمد أو يحتمل !

ماذا دهى حنفى هو الآخر ؟! . . . أتراه يصنع ما صنعه محمود ؟ . . . أيظنان أنه لايستطيع أن يخرج بالقارب وحده ؟! . . . لماذا تأخر ؟ . . . ولماذا أصبح يتأخر هذه الأيام كثيراً ؟! . . . أين يقضى لياليه هو الآخر ؟! . . . هل عرف الطريق إلى الغرز ومحال البوظة ؟ . . . هل يصحب معه رجلاً ويترك حنفى ومحمود ليصنعا ما شاء لهما عبثهما ؟ . . . أيكون هذا نهاية الطريق التى شقها السيد البلطى ؟! . . .

أين أنت ياسيد لترى العائلة وما حل بها ؟! . . . تركنا شاطئنا بعد موتك وجئنا الى الميناء ، لم يعد فينا من يستطيع الخروج الى الشاطىء المفتوح ويتعرض لما تعرضت له أنت . . . الرجال كثيرون متناثرون فوق الرصيف ، إنهم يمرون متسكعين يلقون بتحية تقول أمن خدمة نؤديها لقاء أجر ؟! . . . غلابة وأصحاب عيال . . . ربع الصيد للرجل الذى يقوم بالعمل كله . . . أشياء كثيرة تغيرت وتبدلت منذ اختفائك ياسيد . . . وجوه جديدة زحفت على الشاطىء تبحث عن الرزق ، ومهن جديدة خلقها الرجال خلقاً ليعثروا بها على لقمة العيش . . . سنوات طويلة مرت وأنا رب العائلة . . . بلغت السبعين ولا زلت أخرج كل صباح بالقارب ، ترى هل أستطيع الآن أن أجذب الشبكة وهى محملة ؟! . . . مرت سنوات طويلة دون أن أمارس العمل ، ولذلك حنفى زين الرجال حقاً ، وولدى وصمة عار لم استطع أن أمحوها . . . لكننى لازلت عفياً ، لازالت بى قوة تستطيع أن تطرح الشبكة وتجذبها ، كثيراً ما تذكرتك وأحسست بالضياع والوحدة ! . . . أنا لا أذكر أبى أو أمى ، فقد كنت أبى وأمى وأخى . . . كيف مت ؟! . . . وهل أنت ميت حقاً ، أم أنك لازلت تعيش فى قاع البحر مع جنية حسناء ؟!

بندارى ورومة وحسنين وزينهم يتغامزون وهم فى جلستهم بجوار السور ،

لابد أنهم يتشاورون ، وسيأتى الى أحدهم عارضاً خدماته . . . لماذا تأخر حنفى ؟! . . . هل يظن أن حياتى معلقة به ؟! . . . أيظن أنى سأقف كل يوم على الرصيف حتى تصعد الشمس الى منتصف السماء فى انتظاره ؟ . . . لعنة الله عليه وعلى أمه . . . لعنة الله على العائلة بأكملها . . . سبعون عاماً لكنى أستطيع أن أخرج وحدى ، وسأخرج وحدى وأريهم . . . وحتى لوجاء حنفى ـ قسماً بالله ـ فلن أسمح له أن يطأ القارب . . . من يظن نفسه هذا الكلب ؟ . . . هيه ؟!

« صباح الخير يابا محمـد »

« صباح الخير يا رومـه »

لن أصحب أحداً . . . ليرزقنى الله بحمل واحد وأعود !

« أمال فين حنفى ، اتأخر ليه النهاردة يابا ؟ »

« مش جاى ، عيان ، مات ، الله يلعن أبوكم ! »

* * *

عاد رومه الى رفاقه الجالسين بجوار السّور بعد ما لقيه من المعلم محمد البلطى ، وبقايا ابتسامة لازالت عالقة بشفتيه ، غير عابىء بسباب الشيخ وشتائمه ، ثم قال مشيرا بطرف أصبعه الى حيث كان القارب يبتعد مسرعاً :

« دا باين عليه اتخانق مع حنفى ! »

وسرعان ما ألقى بنفسه الى جوار زملائه . . . ثم دس بين شفتيه سيجارة أشعلها وهو يستشعر لذة الكسل ، ويغمض عينيه لشعاع الشمس الدافىء الذى يحلو لرجال الشاطىء أن يتمرغوا فيه فى الأيام الشاتية . . .

ران الصمت على الرجال وهم يلاحقون الحياة التى أخذت تدب على الرصيف تدريجيا ، وناول رومه سيجارته المشتعلة لجاره ، وأخذت السيجارة

دورتها على الرجال ، تنتقل من شفتين الى شفتين ، وكل منهم حريص على أنفاسها القليلة . . . وتساءل أحدهم بلا مبالاة عن سر غياب حنفى ، وألقى آخر جواباً فاتراً ، التقطه ثالث وعلق عليه .

ثم تقلب الحديث بهم ، وامتد من حلقة الى حلقة حتى وصل الى السيد البلطى ، حيث لاتفقد الحكايات عنه جدتها مهما قيلت أو أعيدت !

* * *

قبل ثلاثين عاماً ، لم تكن الميناء قد أصبحت على ما كانت عليه فى تلك الأيام . . . فلا أسوار ، ولا مبانى ، ولا حراس . . . بل ساحل رملى يمتد من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، تقوم فى وسطه صخرة رأس التين الشاهقة بقصرها الهائل . . . ويمتد الساحل عن يسار الصخرة متجهاً نحو الغرب حتى ساحل المكس . . . هناك فى أقصى المدينة أو بعد ذلك بقليل . . . أما تلك المساحة التى تمتد عن يمين رأس التين شرقاً حتى نهاية شاطىء الأنفوشى وبداية الميناء الشرقى ، فكانت وقفاً على عائلة البلطى . . . حرّم السيد على رجال الشاطىء أن يرتادوها أو يطرحوا فيها شباكهم ، كما حرم على رجال البلطى أن يطرحوا شباكهم أو يرتادوا مكانا آخر غير مكانهم . . . ورغم أن هذا المكان لم يكن أكثر الأماكن أماناً ، بل كان أشدها خطراً لتعرضه للرياح والأمواج ، ولامتلائه بالصخور والأعشاب . . . الا أنه كان ـ فى ذلك الوقت ـ أخصب الأماكن وأكثرها غنى بالأسماك !

وقد تعددت الأساطير عن السيد البلطى وتكاثرت حوله الحكايات منذ وفاته . . . كانت سيرته ـ رغم مرور ذلك الزمن الطويل ـ لاتزال تجد من رجال الشاطىء ونسائه وعياله آذانا صاغية ، بل كان الحديث عنه هو أحب

الأحاديث الى نفوسهم ، وأدسمها مادة وأغزرها تفاصيلاً . . . يحكى الناس منه الحكايات ، ويسمعون عنه حكايات أخرى ، فى المقاهى وعلى عتبات البيوت فى أزقة حى الأنفوشى المعتمة ، وفى الغرز ومحال البوظة ، عندما يصبح حديث الرجال شعرا وخيالاً وأساطير تلهب مشاعرهم وتخفف عنهم وتجسد لهم آمالا يصبون اليها ويتمنونها . . .

ولو تنبه الذين عاصروه ـ من غير أهل البلطى ـ لما كانوا يحكونه بألسنتهم ، لدهشوا أشد الدهشة لذلك التحريف الذى أدخلوه ـ راغبين ـ على تلك الشخصية التى حكمت الشاطىء يوماً بقبضة من حديد ، غير عابئة بسلطة أو سلطان ، وفرضت على الرجال حكما جائرا لا مبرر له ولا منطق يسنده . . . حكما أصبحوا يضربون به الأمثال فى العدل والشهامة والرجولة ، لكنه كان ـ فى أيام السيد ـ ظلماً تحملوه صاغرين أمام ذلك الجبار الذى نزح اليهم من قلب البلاد ، ولا يدرون من أين ؟!

جاء الى الشاطىء أول الأمر وحيداً ، فوجد الرزق موفوراً ومكث بضعة شهور ، ثم اختفى أياما عاد بعدها بعائلته كلها . . . لايدرى أحد ماهى صلات القربى بينهم ، إن كانوا أخوة أو أولاد عم أو خال ، كل ما عرفه الناس عنهم أنهم « البلطية » . . . كانوا فقراء يرتدون أسمالا ممزقة ، صفر الوجوه ، هزيلى الاجساد . . . وكان السيد هو رأس العائلة تطاع كلمته بلا تردد ولا مناقشة ، فأخذهم بالشدة ، وجمعهم فى حجرتين أستأجرهما فى الزقاق ، حيث كانوا يجتمعون كل ليلة ليقتسموا ما أتاهم من رزق . . . لا يزيد نصيب فرد عن فرد ، ولا يقل نصيب فرد عن آخر . . . وقد شغله أمر العائلة فى البداية فحرم على نفسه الزواج ، وحرم عليهم الإختلاط بأحد ، فاحتفظوا بتقاليدهم وعزلتهم ، لم يجلس أحدهم على مقهى ، ولم يغش أحدهم غرزة . . . ومالبث عددهم أن تكاثر فاستأجروا حجرة ثالثة ، ثم

رابعة . . . ثم اشتروا بيوت الزقاق كله . . . وسمى الزقاق بعد ذلك باسم السيد البلطى . . . ولا يجرؤ غريب على الخطو داخله ، أو استطلاع ما بـه .

وتزوج السيد قبل وفاته بثلاثة أعوام ، وكانت ليلة زواجه أسطورة ، دخل الناس الزقاق فيها لأول مرة ، أكلوا وشربوا وتمرغوا فى الخير ، وطلع عليهم السيد فى صباح اليوم التالى رجلا آخر . . . يحادث الناس ويجالسهم ويناقشهم ويسمر معهم ، وان كان قد احتفظ بشاطىء العائلة لايقربه رجل !

وقد مرت الأعوام ، فأنشئت المبانى والأسوار ، وزحف العمران على تلك المساحة الرملية التى يقع عند طرفها قصر رأس التين فوق صخرته ، ومن ورائه يمتد ذلك اللسان الصخرى الى قلب البحر . . . وتغيرت الحال ، وأصبحت غير الحال . . . اختفى السيد البلطى ذات صباح تجهمت فيه الطبيعة وثارت ، عصرت السماء فى ذلك اليوم سحبها عصراً ، وأغرقت الشاطىء بسيول الأمطار ، واربد سطح المياه وعلت أمواج البحر حتى زحفت الى ساحة القصر وما وراءها من أراض خالية ، ودهمت العاصفة الكثيرين ، لكنهم استطاعوا النجاة لقربهم من الشاطىء ، بينما كان السيد البلطى قد توغل ـ كعادته ـ يرتاد البحر بقارب هزيل ، وينتزع الرزق انتزاعاً غير عابىء بهياج أمواج أو أمطار سماء . . . ومرت الساعات دون أن يعود ، ثم مر الليل والعاصفة لاتهدأ ولا تستكين ، وعندما لاح فجر اليوم التالى ابتلع البحر أمواجه ، وامتص الكون رياحه ، وران على الطبيعة سكون حزين ، وانطلقت القوارب تجوب الساحل من أقصى شرقه الى أقصى غربه بحثاً عن السيد . . . لكنهم لم يعثروا عليه . . . وانغرست الحقيقة فى قلوب الجميع فأدمتها ، حتى الذين كانوا يضمرون له كرهاً ، أمسوا يومها ليجدوا أنفسهم وقد فقدوا رجلاً دمث الخلق ، حازم الرأى ، عادل الحكم . . . وبكاه

الجميع ليلتها ، ثم بكوه بعد أيام عندما دخلت الميناء احدى سفن الانجليز وهى تسحب وراءها قاربه . . . وظل الناس يتحدثون عنه ، وكلما تحدثوا ، كلما اكتشفوا فيه شيئاً ، يلهب عواطفهم . . . تذكروا يوم اختلف الصيادون مع تجار الحلقة ، وكيف وقف السيد يقاوم السيطرة على الأسعار منتصراً للصيادين حتى هزم التجار وأصبحت الكلمة كلمتهم . . . وتذكروا يوم اختلف اثنان من الرجال حول نصيب كل منهما ، وكان السيد هو الحكم الذى قبل الرجلان حكمه . . ويوم أن هبت العاصفة وكادت أمواج البحر تبتلع سبعة من الرجال بقواربهم ، فإذا بالسيد ينطلق وحده بقارب شراعى لينقذ الرجال وقواربهم وشباكهم . . . وتذكروه شارب بوظة لايشق له غبار ، وحشاشا صلب الرأس مفتح العينين ، وقائل شعر وجليس أنس ومغنى مواويل عندما تصفو الليالى ويتوفر الرزق ويملأ المال الجيوب . . . ويصيحون وهم فى قمة النشـوة :

« كل ده كان مخبى فين ؟! »
فيرد عليهم بابتسامة الواثق المنتصر :
« حكم الزمان على الرجال يارجال ! »

ولم يكف الناس عن الحديث . . . حتى أصبحوا يوماً فوجدوا فى السيد أملا يصبو اليه كل منهم . . . رأس كرأس حوت ، وكف تهابها الرجال ، وقامة مارد ، وعينا نسر لاتخطئان ، وبطل يحاوى جنيات البحر ويكتنز فى صدره الأسرار ، وفى بيته الجواهر والأموال . . . و . . . أصبح السيد البلطى أسطورة !

فمن ذا يصدق أنه يموت ؟!

قالوا أنه تزوج ابنة أحد ملوك الجان ، وقد أقامت له زوجته قصراً ـ لايزال

قائماً ـ تحت صخرة رأس التين ، وأنه أنجب منها أثنى عشرا ولداً ليست فيهم أنثى واحدة ! . . . وهو سر يعلمه كل فرد فى عائلة البلطى ، يتوارثونه فى الزقاق ابنا عن أب دون أن يجرؤ أحدهم على البوح به ، والا حدث له ماحدث للسيد . . . وكانت بداية النهاية عندما اختلف السيد مع زوجته الجنية ، واشتد الخلاف بينهما فتخاصما ، وقرر السيد اغاظتها فتزوج أم حنفى . . . كانت يتيمة لا أب لها ولا أم ، جاءت مع العائلة طفلة صغيرة ، وشبت فى العز الذى أغرق العائلة بعد نزوحها الى الشاطىء . . . وأقسمت الجنية أن تخطف السيد وتسجنه ، ولولا خوفها منه ومن بطشه ، لفعلت ذلك منذ اليوم الأول لزواجه . . . لكنها ظلت تنتظر وتنتظر حتى هبت العاصفة ، فشغل السيد عن نفسه بالشبكة والقارب ، وانهمك فى العمل غير شاعر بالخطر المحدق به . . . فانقضت عليه من الخلف ـ ولم تكن لتجازف بمواجهته ـ وقيدته بالسلاسل ، ثم سحبته وغاصت به الى أعماق البحر !!

* * *

لم يكن فيما قاله الرجال فى ذلك الصباح عن السيد جديد . . . وتدريجاً تسرب الفتور اليهم ، فتفتت الحديث ، ثم تلاشى . . . وغرقوا فى السكون . . .

مالبث أحدهم أن رفع رأسه الى قرص الشمس المعلق فى الفضاء ، وهبط بعينيه الى سطح المياه وقد تناثرت فوقه القوارب ، فابتلع لعابه بمرارة وقال بنبرة يائسة :

« سمعتم اللى حصل ليلة امبارح فى قهوة سلومه ؟! »

« لا . . . حصل ايه ؟ »

« واحد من رجالة عبد الموجود حمدان ، قال انه خلاص اتفق على مركب الصيد الجديدة ! »

« بيقولوا ياجدع انها مركب توسق ميت طن سمك ! »

« حقه لوجت المركب دى ياجدعان ، قول يارحمن يارحيم على الصيادين ! »

— ٥ —

هرول السيد عبد الرحمن بجسده السمين المترهل وراء الطبيب وهو يغادر فراش حمودة فى أدب شديد بين صفين من الأسرة ، يكاد كرشه أن يختفى داخل انحناءة جسدة ، ويكاد الدم أن يطفر من وجنتيه انفعالا . . . حتى اذا انتهى بهما السير الى باب العنبر الكبير ، ولاح للنظر فناء المستشفى الفسيح وقد تناثر فيه المرضى والممرضون والممرضات وبعض الأطباء ، توقف الطبيب عن السير ، واستدار نحو السيد قائلاً فى تجهم :

« مش بتقول انه قريبك ياسيد ؟ »

« أيوه ياسعادة البيه »

قالها السيد فى نبرة مسكينة متزلفة ، وهو يضم كفيه السمينتين أمام صدره فى تملق شديد ، بينما راح الطبيب يتفحصه فى امعان وقد بدا على وجهه أثر التفكير العميق ، ثم قال فى شىء من الحدة :

« أنا مش قلت لك قبل كدة أنه لازم يروح مكان هواه جاف ؟! »

« حصل ياسعادة البيه . . . حصل ! »

وانفجر الطبيب فجأة والانفعال يكاد يقتلع جسده النحيل من فوق الأرض :

« وليه ما سافرش لحد دلوقت ؟ . . . انتوا بهايم ؟! . . . أمال عامل تومرجى ايه وزفت إيه ؟! »

« ماهو ياسعادة البيه . . . »

« بلا سعادة البيه بلا زفت ، افهم يابنى آدم ، الراجل ده عيان ، عنده ربو ، والحالة متقدمة ، وحشة يعنى ، فاهم ياسيد ؟ . . . حالته وحشة ، لازم يروح مصر ، يروح حلوان ، يروح فى داهية . . . بس ميقعدش هنا ! »

تلجلج السيد عبد الرحمن وانكمش فى نفسه أمام هذه الثورة ، وكست حمرة الخجل وجهه الأبيض حتى تحول الى قطعة من اللحم الأحمر القانى وأحنى رأسه فى أدب شديد وهو يتمتم :

« ماهو أكل عيشه ياسعادة البيه . . . »

وقاطعه الطبيب :

« شوف يابنى . . . »

وصمت وهو يكبت أنفعاله . . . ورغم أنه كان يصغر السيد عبد الرحمن بسنوات لاتقل عن العشر ، إلا أن هذا لم يلق بالا الى كلمة « يا ابنى » هذه التى تعودها من حضرات الأطباء . . . وفى رأيه ـ والسيد أفندى الباشتمرجى له آراء فى الحياة مهمة جداً ـ أن الأباء ليسوا بالسن ، ولا بالدم . . . وانما بالعلم ، لذلك صمت فى أدب الأبناء أمام صمت الطبيب الشاب الذى أمسك بالقلم وأخذ يكتب على ورقة فى يده علاج المريض حمودة البلطى . . . كانت يده تجرى بالقلم فى سرعة ، ويخطف سن القلم حروف الكلمات خطفا

يطمس معالمها ، وما أن انتهى من الكتابة حتى دفع بالورقة الى السيد عبد الرحمن وهو يبرطم مكملا حديثه ، وقد لانت لهجته فى شىء من العطف المـرير :

« شوف يا ابنى . . . الرجل ده حالته خطره ، لازم يروح مكان جاف ، مفيش علاج غير كده ، فاهم ؟ . . . تبقى تدى له الدوا ده ! »

ومضى الطبيب مسرعا دون أن يلقى بالا الى كلمات الشكر التى انهمرت من فم السيد أفندى ، وما لبث أن اختفى فى أحد الممرات ، فتنفس السيد أفندى الباشتمرجى ملء صدره ، وسرعان ما استقام ظهره ، وبرز كرشه فى زهو ولاحت امارات الاهتمام على ملامحه وهو يندفع مسرعاً ليهبط سلما صغيرا يوصله الى الفناء .

كان حنفى لايزال فى وقفته فى أحد أركان الفناء الواسع ، وقد بدا القلق على وجهه عندما انقضت عليه كلمات السيد أفندى بلا مقدمات :

«جالكم كلامى ياسى حنفى ؟ »

« خير ياسيد أفنـدى . . . »

« بلا سيد أفندى بلا زفت . . . أفهم يابنى آدم ، الراجل عيان ، عنده ربو ، والحالة متقدمة . . . »

وتوقف عن الحديث ريثما يرى أثر كلماته فى حنفى الذى بان عليه الفزع وهو يتساءل فى دهشة :

« متقدمة يعنى ايه ياسيد أفندى ؟ . . . »

« أيوه ياسيدى متقدمة ، يعنى وحشة ، فاهم ياحنفى ، الحالة وحشة ، لازم يروح مكـان هواه جاف زى ماقلت لكم قبل كدة ، عارفْ يعنى ايه

جاف ؟ يعنى مصر ، حلوان . . . فى أى داهيه بس ميقعدش هنا جنب الميه والرطوبـة ! »

رغم حلاوة اللسان التى كان يتمتع بها السيد أفندى ، ورغم أن حنفى أبدا لم يكن ينتظر منه هذه اللهجة الحادة والثورة العنيفة ، إلا أن ذلك لم يكن يعنى سوى أن خاله مريض ، وأن مرضه لابد خطير . . . لذلك لم يغضب ولم يثر . . . حقاً لم يسبق للسيد أفندى ـ ولا غير السيد أفندى ـ أن أطال لسانه على أى من رجال الزقاق ، إلا أنه لابد وأن يكون فى الأمر شىء دفع الرجل الى هذه الثورة . . . الورقة ترتجف فى يده ، ووجهه كسته حمرة الانفعال ، وعينـاه قلقتان لاتستقران على حال . . . وانتابت حنفى حيرة بالغة ، فماذا يقول . . . قيل هذا الكلام مرات ومرات دون جدوى . . . ولن يترك خاله الشـاطىء ، وان تركـه فماذا يصنـع ؟ . . . وأين يعيش ؟ . . . ومـاذا يعمل ؟ . . . وكيف يطعم أولاده ؟!

ثقلت الأفكار عليه ، فنكس رأسه ، وساد الصمت بين الرجلين . . . على أن غضب السيد أفندى ـ وان كان مصطنعا ـ قد انفثأ لسكوت حنفى ، وانتابه احساس بالزهو شديد ، واحساس آخر بالندم على ما بدر منه . . . فأخذت شفتاه تتمتمان بكلمات مبهمة سرعان ما أخذت تبين :

« ما هو ياحنفى الدكتور قال كده ، ده زعلان خالص ، وانا قبل ما يقولْ الدكتور قلت لكم أنا ، فاكر ياحنفى . . . ده حتى الراجل قعد يتحايل عليّ ويقول لى : مش أنا نبهت عليك المرة اللى فاتت ياسيد أفندى ؟ . . . قلت له أن حموده صياد ، وان ده أكل عيشه ، مفيش فايدة . . . الراجل حايروح من ايديكم ياحنفى ! »

كان حنفى ساهما يفكر فى أمر خاله . . . ورغم محاولاته العديدة للعثور فى ذهنه على حل . . . إلا أنه قال أخيراً فى نبرات يائسة :

« والعمل ياسيد أفندى ؟! »

قالها وهو يتحرك نحو باب المستشفى الكبير ، وقد زوى ما بين حاجبيه فى ضيق . . . ذلك أن كل شىء بداله فى تلك اللحظة كئيباً ، حياته ، زوبه ، المعلم محمد الذى ينتظره على الرصيف ، الجنيهات التى ادخرها بلا فائدة ، أخته التى تجرى بها السنوات دون زواج ، خاله المريض وأولاده الخمسة . . . هل يحدث شىء لحمودة ؟!

« كله بأمر الله ياسيد أفندى ، كله بأمر الله ! »

لوح السيد أفندى فى تبرم وقد عاوده الغضب من جديد ، ثم صاح فى أنفعال :

« وآخرتها ياحنفى . . . وآخرتها يعنى ؟! »

لم يكن غريباً ذلك الحماس الذى بدأ من السيد أفندى الباشتمرجى ، فقد تعوده أهل الزقاق منذ أن جاءهم لأول مرة ليعالج حمودة أثناء أحدى النوبات . . . وتردد السيد أفندى بعد تلك المرة على الزقاق كثيراً ، وأصبح مع الزمن طبيب العائلة ، يشخص للمرضى أمراضهم ويعالجهم منها ، ويشترى لهم الدواء أو يأتى به من المستشفى . . . ودخل السيد أفندى كل بيت ، وعرف الكبير والصغير ، ولم يعد يأخذ القرشين عند الكشف ، كان قد أصبح لطول العشرة وكأنه واحد منهم ، يقضى لياليه على المقهى وسط المعلم محمد وحمودة والحاج برعى والريس صادق . . . وآنس فى عائلة البلطى تلك الحماية المستترة التى أضفتها علاقتهم به عليه .

لكن غضب السيد أفندى سرعان ما تبخر وذاب عندما التفت اليه حنفى والتقت عيناه بعينيه ، فخفق قلبه خفقة سريعة ، شىء ما يربطه بحنفى

الذات ، شىء يدب فى قلبه ويطرق جوانحه فى وعى كامل . . . وكانا قد وصلا الى باب المستشفى الكبير عندما توقف حنفى وسأل السيد أفندى فى أسى :

« وازى حاله دلوقت ؟! »

فرد عليه هذا بلهجة حنون وقد رق صوته ، واهتزت جفونه فى تأثر مبالغ فيه :

« بخير بعد ما اسعفته ، عملت له اللازم ، وجه الدكتور . . . كان التنفس ماشى عال ، صحيح الراجل شكرنى ، انما دا حموده أخويا ياحنفى ! »

يشهد الله أن السيد أفندى لم يقصد الى هذا الأندفاع فى الحديث الكاذب ، حقا لقد تعود هذا منذ أن عرف كيف يتقن سر الصنعة ، لكنه فى تلك اللحظة لم يكن ليفكر فى أمر كهذا . . . ثمة عاطفة جياشة كانت تجتاح مشاعره فى تلك اللحظة ، عاطفة غريبة مست قلبه مساً خفيفاً دون ضغط أو اكراه . . . عاطفة أخذت تتمسح فى قلبه البارد كقطة أليفة فأدفأته ، ألذ أوقاته تلك التى يجتر فيها ذهنه لمسة يد ، أو نظرة خاطفة ، أو كلمة تؤول . . . حنفى يسلم ويمضى عنه فيودعه باللسان واليد والقلب معاً . . . ويشمل جسده العملاق الغارق فى صديرى مخطط وسروال واسع فضفاض ، ويمضى كحبيب تفديه الروح فيجتاز الباب فى خطوات واسعة ورأس مرفوعة . . . أكثر ماأحبه فى هؤلاء الناس هو كبرياؤهم التى حرم منها . . . مات أبوه وتركه مع أم كانت تشقى طول اليوم لتطعمه . . . شب من الطوق ليرى من الحياة وجها واحداً شنيع التكوين . . . حمل الهم فأصبح الهم جزءا متمماً لشخصيته ، لايعرف فى الحياة سوى كلمة حاضر ، ولا يتقن شيئا قدر اتقانه للانحناء والتملق وتقبيل الأيدى وانتهاز الفرص . . . يبهره

فى آل البلطى أحساسهم بذواتهم وكأنهم ملوك الدنيا . . . اختفاء حنفى عن نظره ، وسعيه الى الخير ، وذهابه هنا وهناك ، وتنقله بين الأسرة والمرضى ، وملاحظته لأنفاس حمودة ودقات قلبه ، وحديثه مع زملائه ، واختطافه لقطعة لحم من المطبخ ، وأوامر الأطباء وصيحات الباشتمرجى . . . كل هذا يمر أمام ذهنه الغارق كما تمر سحابة خفيفة فى يوم قائظ ، تقلل من حرارة الشمس لكنها لاتخفيها أبداً . . . وحرارة قلبه أكبر من أن تلطفها أحداث الحياة الباردة . . . وجه يراه ـ على خلاف الناس ـ أشد الوجوه سماحة وأجملها منظراً ، حياء وأدب وأخلاق ، وجسد نحيل حقاً ، لكنه سيعرف كيف يكسوه بلحم كلحمه .

الفقير منا يجب أن يعيش ـ هكذا يقول السيد أفندى لنفسه دائماً ـ والرزق يرسله الله حتى ولو كان من طعام المرضى ، واللحم الذى يأكله يكفى أربعة . . . ويوم يظللها سقف واحد سيغرقها فى الأدوية الشافية واللحوم ، انه يعرف سر الصحة حقاً ، لكن سر ذلك الذى يؤرقه ويطير النوم من عينيه لم يعثر عليه بعد . . . فى قلبه شك ، وفيه أيضاً أمل وخوف .

ترى . . . هل تشعر به عائشة ؟؟

هناك أوقات يكاد قلبه أن يذوب حناناً لآهة تخرج من فم مريض . . . وأوقات لايكاد يسمع فى الآهة سوى صيحة تمر بجوار الأذن كمواء قطة أو نباح كلب !! . . . ولقد ذاب قلبه ذوبانا لنداء حموده الواهن ، أسرع نحوه وانحنى عليه وابتسم بكل وجهه . . . هذا خالك ياعائشة ، لاتخف ياحموده لقد زال الخطر وسوف تخرج كالسبع بعد يوم أو يومين . . . أولادك بخير ، وحنفى ترك المستشفى منذ ساعة بعد أن اطمأن عليك ، قال الطبيب أنه لابد لك من الانتقال الى مكان هواؤه جاف ، أخبرته ياحموده بأنك صياد فلم يأبه ، معه حق فهواء الشاطىء يتعبك . . . لاشكر على واجب . . . ستأخذ

الأقراص فى الرابعة ، وستمر عليك نعمات الممرضة لتحقنك مرتين ، الرابعة وأخرى فى العاشرة ، لاتهتم ، السلام عليكم .

هو جميل أن يصنع الانسان شيئاً من أجل محبوبه . . . أن ينسى كل عدا حلم جميل يطوف بالنفس والقلب ويغرق العقل .

هل تحبه عائشة ؟!

هو يحبها ولا يدرى كيف حدث هذا ؟ . . . زوبة لاتعجبه ، فى عينيها طرة فاحصة جريئة . . . يخيل للمرء أحياناً أنها تخترق الصدر وتكشف عن مكنونات النفس ، أنها تعرى الانسان من ملابسه ، كم هى مخيفة . . . أما عائشة ، فمنكسرة النظرة ، أنفاسها لها رائحة الحياة نفسها ، كان قلبه باردا كأنه محفوظ بثلاجة المستشفى حتى مرضت أم حنفى وذهب ليحقنها ، انحنى عليها فانحنت معه عائشة وفاحت من فتحة صدرها رائحة انثى دافئة ، فذاب الجليد ، ونبض القلب ، وارتجفت الحقنة فى يده . . . يومها . . . يومها كاد يجن ويطلبها من حنفى . . . لكن الله سلم !

لابد من الذهاب الى الزقاق . . . هل يراها الليلة ؟!

يالك من طفل ياسيد أفندى ياباشتمرجى ، أعقل يارجل فما هكذا يفكر العقلاء وذو المراكز !

— ٦ —

وقف المعلم محمد البلطى فى منتصف قاربه ، وأخذ يجول بعينيه فى أنحاء الميناء . كانت المياه رائقة شفافة ، يخترق شعاع الشمس أعماقها فكأنه يكشف عن خباياها . . . وعن بعد ، تناثرت القوارب فى كل مكان وهى تهتز تحت أقدام الرجال وهم يرحون ويجيئون ، بعضهم انحنى يعدل من وضع حبل ، والبعض يجذب « الهلب » من الأعماق استعداداً للرحيل الى مكان آخر ، وآخرون يجذفون فى نشاط ، ورجال يطرحون الشباك ورجال يجذبونها محملة بالأسماك . . . وأصواتهم تسبح فى سماء الميناء منادية أو مغنية أو داعية : « يامتولى . . . ياعدوى . . . يابو العباس ! » ، وسفينة هائلة تجتاز باب الميناء فى ضجيج وبطء تاركه وراءها حبلا غليظاً من الدخان ، وسطحاً مزبداً من المياه .

رفع رجل عقيرته مناديا المعلم محمد فرد عليه العجوز بصيحة طويلة ممطوطة ، ثم تبادلا تحية الصباح ، وقال كل منهما للآخر : « ترزق » ، وأستدار العجوز نحو شبكته ، وأخذ يمتحن مكان قطع الرصاص المنتشرة على

حافتها كحبات عقد رخيص ، وعبث بخيوطها ، وتلاعبت أصابعه بقطع الفلين . . . ثم حمل « الهلب » فتقوس ظهره تحت ثقله ، وتصلبت أعصاب دراعيه ، وخطت قدماه فى بطء خطوتين ، فتمايل القارب تحتهما ، وما لبث أن طوح بالثقل الى المياه . . . وتنفس ملء صدره !

وما لبث المعلم محمد أن غاص فى دوامة الفكر التى اجتذبته اليها رتابه العمل وروتنيته ، أفكار تروح وأفكار تجىء ، مد يطغى على رأسه فيغرقه ، وجذر تنحسر بعده كل الأسئلة تاركة وراءها سؤالا واحدا يعربد فى ذهنه . . . هل يستطيع أن يجذب الشبكة ؟! . . . هل تقوى ذراعاه على الحمل ان كان كبيراً ، أم تخونانه فيسقط منه ويسلم بالهزيمة ؟! . . . وانتابه خوف غامض . . . هل ولت أيامه حقاً ؟ . . . سؤال قاس انقبض له قلبه ، فهز رأسه وهمس لنفسه : « زى ما تكون عيل صغير ! » . . . ثم تذكر ليلة الأمس ، ولم يستطيع أن يمنع الابتسامة من السيطرة على ملامحه . . . كلمات أم محمود لازالت تطن فى أذنيه . . . الولية شعرها شاب ولازالت بحيوية ابنة العشرين . . . قالت له بالأمس ـ وكان أمس هو الخميس ! ـ إن دماء الشباب تعربد فى عروقه وكأن السنوات لم تمر . . . كانت ليلة !! . . . والله ليلة لايقدر عليها شباب هذه الأيام . . . كيف يخاف ؟! ، وكيف يتردد ؟! ، سبعون عاما لكنها تساوى ثلاثين فقط ، لعنة الله على الخوف ومن يخاف ، خدر غريب يسّرى فى أوصاله . . . أشعل سيجارة ونفث دخانها فى تلذذ ، وراح يفكر : أربعون عاماً عاشتها معه أم محمود ، يوم أن تزوجها كانت طفلة فى الثانية عشرة ، لم تنجب إلا بعد سنوات طويلة ، جاءته بمحمود . . . وتذكر ولده .

تقلصت الابتسامة فوق وجهه ، وحلت محلها تكشيرة خفيفة . . . لماذا لايهتدى الولد بالله ؟ . . . ماذا يصنع بأمه لومات ؟ . . . يدفع الغضب الى

لسانه شتائم وسباباً كالسيل ويحجب القلب كل سوء عن ولده ، قلبه لايطاوعه ، لكن حال الولد لا يسر عدوا ولا حبيبا . . . ترى ، ايهتدى محمود بالله لو تزوج ؟!

برقت الفكرة فى ذهنه كومضة ، واختفت لحظات ظل رأس العجوز خلالها خاويا ، بلا أفكار ، ثم ارتدت الى ذهنه مرة أخرى كمصباح متوهج الضوء ، حقاً . . . لماذا لايزوج محمود ؟ . . . لماذا لايبحث له عن عروس ؟ . . . سيهتدى الولد بعدها بالله ولاشك ، ويستقر عندما يجد له مأوى يأوى اليه ، وحضنا يقيه برد الشتاء . . . كيف غابت تلك الفكرة عن ذهنه طوال هذه المدة ؟!

زحفت الابتسامة مرة أخرى فاحتلت الشفتين ، ثم انطلقت لتشمل كل تقاطيع الوجه . . .

من تصلح للزواج من محمود ؟ . . . انها عائشة !

لكن الولد لن يرضى ، طول عمره وهو لايطيق لها حديثا أو كلاما . . . لكنها ابنة عمه ، ابنة السيد البلطى ، اذن لابد أن يتزوجها محمود ، فليس لديه ابناء يقولون لا ، يجب أن يستر عائشة قبل أن يموت ، هذا هو الكلام . . . محمود يتزوج عائشة . . . و . . . ولكن الولد سيرفض ، انه يعرفه جيداً ، وسيغضب هو عليه . . . و . . . ثم ان عائشة لن تسعد معه . سيكون شجارهما مثار خلاف دائم !!

مضى الوقت وهو سارح .

ألقى بالسيجارة الى المياه وحمل الشبكة على يسراه ، وقبضت يمناه على الحبال ، ووقف مستعداً للطرح . . . ومال بجسده إلى اليسار ، وطوح بالشبكة فانتشرت فى الهواء كطائر خرافى مالبث أن راح يهوى نحو المياه وصاح المعلم محمد : « يامتولى ؟ » . . . وغاصت الشبكة فى جوف المياه ،

وسبحت على السطح قطع الفلين محددة اتساعها ، وسرعان مانشط العجوز ، راح فوق القارب وجاء ، جذب الحبال ثم أرخاها ، أمسك بطرف شبكة قديمة وراح يضرب به سطح المياه حتى يفر السمك إلى الشراك الذى نصب له . . . وعاد إلى المجدافين وأخذ يضرب بهما المياه فى نشوة ، وتحرك القارب ساحباً وراءه شبكة لايبين منها سوى علامات تناثرت فوق السطح فى دائرة . . . وصاح العجوز مرة أخرى : « يابو العباس ! » ، وجاءه صوت رجل يلقى بشبكته :

« صباح الخير يابا محمد » .

« صباح النور ياحوده » .

« وحد الله » .

« تسرزق ! »

« ربك كريم ! »

وتصاعدت الأصوات فى سماء الميناء كعادة الرجال كلما القى أحدهم بشبكة ، ورد المعلم محمد التحية مرات ، وقال ترزق وفى قلبه خفقة . . . من قال عنه أنه عجوز ، ان الشبكة تنسحب وراءه كأنها لعبة صغيرة ، اللهم صلى على كامل النور ، غمرته سعادة فائقة ، لابد أن يزوج محمود ، لو كان حنفى معه لاستشاره ، لماذا تأخر حنفى اليوم ؟! . . . أيكون قد حدث شىء ؟!

توقفت يداه فجأة عن التجديف ، وطاف ببصره فى كل اتجاه بحثا عن قارب أخضر اللون ، لكنه لم يعثر للقارب على أثر . . . أيكون قد خرج الى عرض البحر ، كلا كلا كلا ، أنه لم يفعلها من قبل ، أنه لايستطيع ذلك وبصدره ما به من أمراض . . . نهض العجوز واقفاً وضم كفيه أمام فمه ثم صاح :

« ياحــوده . . . حوودااا »
« ايوه يابا محمــد . . . خير يابويا »
« ماشفتش حمودة ؟ . . . حمودة ماطلعش ؟! »
مال حودة على زميله وتهامسا برهة صاح بعدها :
« لا والله يابــا محمــد ماشفنــاهــوش ، استنى لما نســألــوا برعى ، يابورعى . . . بوراااعى ! »
« ايوه ياحوده ، خــدمة ؟! »
أخذ الريس محمد ينصت الى الأصوات وهى تتقافز من قارب الى قارب ، هذا يسأل ذاك ، وذاك يسأل الذى يليه ، والآخر يسأل من بعده . . . وأصداء الأصوات تصل اليه واضحة ، ثم خافتة ، ثم أشتد خفوتا حتى أصبحت كالهمس الصارخ . . . وطافت الصيحات والنداءات بالميناء ، ثم عادت تقترب وتعلو حتى وصلت اليه من جديد .

ترى ما الـذى أصــاب حمودة ؟! ، لابــد أن هذا هو سبب تأخـير حنفى . . . سيتزوج محمود من زوبة . . . كيف غابت زوبة عن ذهنه ؟!

استقرت الفكرة فى رأسه ولم تبرحه ، وطمأن نفسه على حمودة فلو حدث شىء ذو بال لجاءوا اليه . . . كان الله فى عونه ، خمسة أطفال وزوجة وصدر مريض ، قارب خال بجوار الرصيف وشبكة لاتجد من يطرحها . . . لابد أن حنفى ذهب للسيد أفندى الباشتمرجى ، رجل طيب وابن حلال ، ليس هنــاك ما يعيبــه سوى عزوبتــه هو الآخر . . . ماذا جرى لرجال هذه الأيام ؟! ، رجل كهذا ، طول بعرض وصنعة برع فيها يعيش وحيداً بلا زوجة ولا ولد ؟! . . . سيتزوج محمود من زوبة ، فكرة لاتقبل اعتراضاً . . .
« يا متولى » ، جذب الحبل ، وتصبب العرق على جبينه . . . النهار أصبح نهاراً ، السفن رائحة غادية واللنشات تكركر وتملأ الميناء بالضجيج ، والرزق فى الشبكة ، والزوجة فى البيت ، والإبن فى الحانة . . . !

***

مضى النهار ، وعاد الصيادون بقواربهم ، ومالت الشمس نحو الغرب وكادت أن تختفى ، وأقفرت الميناء وهدأت فيها الحركة . . . ليس سوى قارب شراعى هنا ، وقارب هناك . . . وصيحة تنطلق : « يامتولى » . . . فيها استجداء ، وفيها عناد متعب .

وسبحت الشبكة فى الفضاء ثم هوت الى سطح المياه ووراءها عينا المعلم محمد البلطى . . . وكان قد طرح الشبكة وجذبها عشرات المرات ، ولكنها خيبت أمله ، لم ترزقه الا بسمكات صغيرة ألقاها فى قاع قاربه . . . وطول يومه وهو يقاوم رغبته فى العودة . . . يقول لنفسه : « ياواد أرجع وسيبك من العناد » ، ويفور دمه ، ويغلى فى عروقه الغضب ، ويطرح الشبكة من جديد ، وفى كل مرة يخفق قلبه ، وتخرج الشبكة خالية . . . حتى دب التعب فى جسده ، وتهدجت أنفاسه ، وأصبحت الشبكة وهى فارغة حملا ثقيلاً تنوء به ذراعه .

جلس يرقب حباله وشبكته وفى رأسه ألف خاطر . . . ترى ماذا يقولون عنه لو عاد بلا رزق وقد ظل اليوم بأكمله باحثاً ؟! وماذا يحدث للرجال لو تحقق ما يقولونه عن عبد الموجود حمدان وسفينته التى توسق مائه طن من الأسماك ، وشباكه الحديدية ، وشركته الجديدة التى دخل فيها مع الانجليز . . . كيف ينافسون بقواربهم الهزيلة سفينة كالتى يتحدث الرجال عنها على الرصيف وفى المقهى ؟ . . . ما الذى يخبئه لهم المستقبل من أحداث ؟ . . . الرياح تشتد ، والسحب تتجمع ، والليل يزحف ، والشمس تختفى ، والقارب خال الا من بضع سمكات ، والشبكة فى المياه . . . وقالوا أيضاً أن سفينة الصيد الجديدة ستغرق البلاد بالأسماك ، فماذا سيصنعون ؟ . . . ومن أين يأكلون ؟ . . . لابد أن القلق قد انتابهم فى الزقاق لغيابه ، وسيأتى الرجال عما قريب ، سيجدونه بلا صيد ولا رزق ،

سيسخرون منه فى أعماقهم . . . يامتولى . . . الشبكة ليست ثقيلة . . . الغيظ يتملكه ، الضيق يسيطر عليه ، أنها . . . فارغة ، حتى المياه تتسرب منها . . . ماذا دهاه ؟ . . . خير له أن يعود ، من من الصيادين يقيم حياته على رزق يوم ، كم من سنوات كان الرزق فيها شحيحاً ، لكنه لن يعود خال الوفاض ، سيعود كما يجب أن يعود . . . عناد صبيانى ولاشك ، يفكر كما يفكر طفل . . . ليكن !! ، سوف يزحف بالقارب قرب باب الميناء ، ويلقى بالشبكة عند امتداد مياه البحر الى ما وراء الأفق ، هناك ينتهى حاجز الأمواج ، ويصطخب سطح البحر فى مد وجذر خطرين ، وربما هبت ريح قوية ، وبشائرها تلفح وجهه . . . الزمن يتحداه ، والقدر يتحداه ، والأسماك تعانده ، لكنه سيتحدى الجميع . . . ليجدف فى سرعة فعما قريب يحل الظلام . . . سطح المياه يربد ويزداد ثورة كلما اقترب من باب البوغاز . . . لكنه وصل ، فهل يتراجع ؟! . . . لماذا لايوحد الله ويصلى على النبى ويخزى الشيطان ويعود الى الرصيف وفى العمر متسع ؟ . . . حديث جبناء ، وجبن لايليق به . . . فليتكل على الله ويطرح الشبكة وينتظر رزقه فى صبر . . . ألقى بالهلب فغاص جاذبا حبله الطويل فى سرعة ، والشبكة مهدلة بين ذراعيه ، لكنها ستخرج اليه ملآنة منتفخة . . .

« ياعدوى . . . يابو العباس . . . يامتولى ! »

راقب الشبكة السابحة فى الهواء برضاء ، ثم همس : « طرحه معلم صحيح ياواد ! » . . . وسرعان مادب النشاط فى جسده ، وراح وجاء ، جذب حبلا ، وعقد آخر ، وجذف فى قوة . . . وقرأ آية ، ثم ابتهل الى الله متوسلا بالانبياء والاولياء ، وواجه القارب امتداد البحر بعيداً عن حاجز الأمواج ، وتلاعبت الامواج به فأخذ يتأرجح يمنة ويسرة ، وران على الدنيا هدوء عميق ، وجاءته الأصوات من بعيد هامسة ، تودع اليوم وتستكين فى

قلب الدنيا وتهجع بعد طول ضجيج . . . بدا له السكون مقبضاً تقطعه همسات الأمواج وهمهماتها وقد أخذت تعلو لحظة بعد أخرى مختلطة بصفير الرياح التى أخذت تشتد . . . وجلس العجوز على حافة القارب ، ظهره الى الشمال ، ووجهه الى حيث يرقد الشاطىء عن بعد وقد تناثرت فوقه الانوار . . . وغرق فى السكون تماماً ، لكنه انتفض فجأة على صوت حاد ثاقب طعنه من الخلف ، وثقب أذنيه فى قسوة واندفع نحو القلب تماماً ، فارتجف ، وارتجفت كل خلية فى جسده وهو يستدير فزعاً نحو باب البوغاز ليرى سفينة هائلة ـ كأنها جبل ـ تتهادى فى شحوب الغروب تشق مقدمتها مياه البحر فى بطء وثقة . . . قاس المسافة بعينيه ، وأيقن من وقوع الكارثة ، انتصب كالملدوغ وصفارة السفينة الثاقبة تخرق أذنيه من جديد ، ظل جامدا حائرا لايتحرك . . . أين ذهب حذره ويقظته ؟ . . . كيف باغتته تلك السفينة ؟ . . . مقدمتها تتجه نحو الداخل بلا توقف ، والشبكة فى الطريق ، الكارثة ! . . . ستتمزق الشبكة . . . لم يره أحد من رجال السفينة والا لهدأت سرعتها ، تشق المياه فى قوة ، ويقترب جدارها الصلد الأصم من قاربه ، هائلاً عالياً ، فإذا هو بجواره كالبرغوث يتقافز هناك وهناك تحت قدمى عملاق .

اندفع بلا تردد يجذب حبال الشبكة . . . لكنها ، لكنها ثقيلة . . . لابد أنها مليئة . . . يامرسى . . . وأخذ يلهث ، أنفاسه تتقطع ، والريح تهب عنيفه وتدفع القارب فيترنح بشدة ، لكن يديه ماتتا على حبال الشبكة فدار القارب حول مركز الهلب الراقد فى قاع المياه ، السفينة تقترب ، والشبكة تصعد ، وجزء صغير يظهر ، وأسماك . . . أسماك تتقافز منها وفيها . . . أنها مليئة ، طن من الأسماك : « يامتولى . . . ياأم العواجز . . . يامدبولى . . . ياعدوى ! » ، لكنهم موتى ، ماتوا كما مات السيد البلطى ، صفارة السفينة تنطلق كالزئير مرة أخرى ، الدنيا ظلام ولن يراه القبطان ، هل يترك الشبكة

وينجو بنفسه ؟! ... المياه خالية ، والامواج عالية ، والرياح عاتية ، والشبكة ثقيلة ... والعرق يتصبب على جبينه ، وذراعاه وهنتا ، والجبل العائم يقترب ، والاسماك كثيرة ... رزق ، رزق وفير ، فيض غزير ...

« حاسب ... حاااااسب ... هووه ... حاسب ! »

الظلام يشتد ، وزئير السفينة يعود فيرتج له جسده ارتجاجا ، والامواج تصطخب فى عنف ، والقارب يميل ... جذبة قوية والحبال فى يديه ، لكن الدوامات الرهيبة أقوى ، ومقدمة السفينة كالسكين تنغرس فى قلب الشبكة فتمزقها ، ويتمزق قلبه : « حاااا ... » ، ومال القارب ، ودار ، ومال .. ووجد العجوز نفسه يطير فى الهواء ويهوى الى المياه ، بجواره حائط أصم يسير دون توقف ، بعد لحظات تأتى المؤخرة ويمزق الرفاص جسده تمزيقاً ... لكن فى الحياة بقية ، لن يموت ، الملابس تعوق حركته ، لكنه سيسبح ... أين محمود ؟ وأم محمود ؟ ... وأين حنفى والرجال ؟ ... ليتهم جاءوا ليعودوا به ... القارب مقلوب ، والهلب فى القاع ، والرياح تشتد ، والمياه كالثلج ، وحاجز الأمواج يبدو بعيداً ، ولا ملجأ له غيره ، ذراعاه وهنتا ، وصوت الآلات يقترب ، منتصف السفينة ، وبعدها الرفاص القاطع ودواماته الرهيبة ، ستمتصه الدوامة الى جوفها ويمزق الرفاص أشلاءه فتتطاير فى كل مكان ، لكنه لن يموت ، انه يبتعد ، يسبح ، الحاجز يقترب ، والسفينة تمضى ، يدفع رفاصها أمواج المياه بغزارة ، فتصنع دوامة قمتها بيضاء تضىء الظلام ، تجذب جسده فى خفة ونعومة ، لكنه لن يستسلم لها ، سيقاوم ويضرب المياه بذراعيه بقوة ، بقوة ... بقوة أكثر ... أكثر وأكثر ... أقل من دقيقة ، ثوان خاطفة ويزول الخطر ... وقد زال ، ابتعد الرفاص ، فهدأ قليلاً ، ضاعت الشبكة ، والرزق ... أخذ يسبح ببطء ، الحاجز غير بعيد ، أنه يقترب ، ويصبح أقرب ، هاهو أخيراً ،

صخور صلبة ، ملساء ، يده تنزلق على سطحها ، صخرة عالية ... لا ، لا يستطيع الوصول الى قمتها ، جسده ثقيل ، أنفاسه تضيق ، محمود ... محمود ... لماذا ؟ ... لما ... ذا ؟! ... نتوء فى الصخرة ، تشبث به ، أين أنت يامحمود ؟ ... أبوك يغرق فى المياه وأنت غارق فى ملذاتك ؟ ... ضاعت الشبكة ، سطح الصخر ناعم أملس زلق كالصابون ... حنفى ... أين أنت ؟ ، الدنيا ظلام ، سكون ، النجدة ، يامحمود ... يا ... حنفى ... يارجال ... المياه تلطم رأسه ، ورأسه يرتطم بالصخر ، فيصيبه الدوار ، لكنه لن يغيب عن الوعى ... كيف حدث هذا ؟ ... ولماذا بقى !! ... لماذا لم يرحل ؟! ... نتوء آخر ، وبروز بجواره ... نجده من السماء ... قشة تعلق بها وماتت عليها أصابعه ، وصخرة تحت قدميه ، كيف سها عنها ؟ ، وأين كانت ؟ الـ ... الحمد لله ... مكان آمن ، نصفه فى المياه ونصفه فى الهواء ، لكنه بين جدارين يحميانه الرياح والأمواج ...

* * *

لماذا يمر بنا الزمان ؟ ... لماذا لايقف العمر عند الثلاثين ؟ ... كانت أحلى أيامه ... سينتظر حتى الصباح ؟ ... لا ... سوف يجيئون عما قريب ، البرد قارس ، وصدره يضيق ، وكأنه فى حلم بغيض ... ليكن ، ليفعل بنا الله ما شاء !

— ٧ —

أندفع السيد أفندى الباشتمرجى من حارة أبو السعود بجلبابه الفضفاض ، وجاكتته الحائلة اللون ، وقد أرخى طربوشه الى الوراء فى سعادة ، ودار الى اليمين دورة سريعة ، وخطا فى الزقاق خطوة ، ثم توقف مبهوتا . . . أخذ يجول بعينيه فى المكان وقد انتابته حيرة ودهشة . . . كان الزقاق ـ على غير العادة ـ قفرا يسوده الظلام ، لاضوء ولا بصيص من الضوء ، لا أطفال يلعبون ولا نسوة يثرثرن . . . أخرج ساعته من جيب جلبابه الصغير ، وراح يحملق فيها وعلامات الدهشة تتزايد على تقاطيعه لحظة بعد أخرى . . . وما لبث أن دس ساعته فى جيبه ، واستدار مسرعاً نحو الأسطى عبد المولى الحلاق فى دكانه الذى يواجه الزقاق . . . رفع له يده بالتحية دون أن ينبس بكلمة ، وتلاعب لسانه فى فمه دون أن ينطق بحرف . . . ونظر اليه الأسطى عبد المولى بعينين ساهمتين ، ثم هز رأسه وقال فى صوت حزين :

« أبوك محمد البلطى ياسى السيد ! »

وصباح السيد أفندى فى جزع :

« ماله . . حصل ايه ؟! »

« بيقولوا الريح . . . »

واختنق صوت الرجل ، وأحتبست الكلمات فى حلقة ، وعاد السيد أفندى الى الصياح :

« خبر اسود . . . قول حصل ايه ياجدع ؟ »

أشاح الأسطى عبد المولى بيده ، وأومأ نحو الطريق الى الميناء . . . وكأنما كانت حركته تلك أشارة بدء انطلق السيد أفندى بعدها يعدو مهرولا ، فقطع الحارة فى خطوات ، ثم انثنى الى اليسار مخترقا زقاقاً ضيقاً انتهى به الى شارع وكالة الليمون ، ودار الى اليمين ، وراح يجرى بكل ما فى ساقيه من سرعة .

* * *

أمام باب الرصيف ، كانت النساء ـ من البلطية وغير البلطية ـ قد أحتشدن مولولات نائحات . . . زوبة اعتصرها الحزن فانكفأت على الحائط وهى تبكى فى حرقة ، وعائشة تجلس على الأرض وقد أخذت أمها بين ذراعيها ، بينما راحت أم حنفى تصرخ بين الحين والحين بصوت مبحوح : « ياراجلى » ، على الجانب الآخر تكومت أم محمود ـ زوجة المعلم محمد ـ بجوار الباب ذاهلة عن كل ماحولها ، وقد أسندت رأسها إلى كفها وغرقت فى صمت ذاهل ، وبين الفينة والفينة ، كانت تطلق صرخة ملتاعة تنتزع الصوات من حلوق النسوة ، والدموع من عيونهن . . . وبدت مقهى سلومة ـ على ما اشتهرت به من زحام ـ خالية من الرجال تقريباً ، وقد تناثر من بقى

على الرصيف منهم فى كل مكان . . . البعض يتكهن بغرق المعلم محمد ، والبعض مؤمن أشد الإيمان بأنه لن يموت ، فهو ريس البلطية ، والبلطية لايقهرهم بحر . . . وبدا الرصيف ـ فيما وراء الباب ـ خالياً إلا من جندى استند إلى أحد الأعمدة وأخذ يحملق فى الظلام وقد تناثرت فيه أضواء الكلوبات والقوارب التى راحت تبحث عن المعلم محمد .

والأفكار تدور فى كل الرؤوس كأنها نسخ مكررة للحيرة والخوف والقلق التى سيطرت على النفوس والعقول جميعاً .

لم يعد المعلم محمد البلطى منذ خرج فى الصباح وحده !

ظنته زوجته فى المقهى كعادته كل ليلة ، وظنه حنفى فى البيت وكان قد غادر الزقاق قبل العصر ليزور حمودة ، وظن الرجال أن العجوز قد عاد قبلهم وسبقهم الى الحلقة وباع رزقه . . . ومضت بعد الغروب ساعة ، وساعتان ، وأذنت العشاء فى زاوية جميع ، وفى جامع المرسى أبو العباس ، وازداد هبوب الريح ، وشعر حنفى بالملل والضيق يتسربان الى نفسه ويسدان عليه كل منفذ للسلوى ، فغادر المقهى وهو حائر بين طريقين . . . اما أن يذهب الى الصحاب ، أو يذهب الى الزقاق . . . جلسة الصحاب فى البوظة تفرج الهم وتجعل للألم نخساً لذيذا ، قرعة أو قرعتان فى بوظة شلوفة ، وخدر يحمله على جناحيه الى أرض أحلام بعيدة المنال . . . لكن أحلامه ـ على شدة تعلقه بها ـ بدت له فى تلك الليلة شاحبة لزجة تبعث فى نفسه النفور والتقزز ! . . . فاستسلم لضيقه وأتجه الى الزقاق .

ما كاد يخطو فى الزقاق خطوة ، حتى طالعه صوت أم محمود تسأله عن عمه ، فتوقف وقد فاجأه الأمر . . . سنوات طويلة مضت ، اذا أراد فيها أحد المعلم محمد البلطى بعد الغروب ، فهو فى أحد مكانين ، المقهى أو

الزقاق . . . وكان حنفى فى المقهى منذ دقائق ، وليس المعلم محمد فى الزقاق !

« هو مارجعش ياخالتى ؟! »

« لا والنبى ياابنى من صباحة ربنا ! »

اندفعت الرياح من أعلى الزقاق فى طوفان لف حنفى وأسلمه لقشعريرة ارتجف لها ارتجافاً شديداً ، لكنه سرعان ما استدار عائداً وقد استبد به القلق .

وعصف القلق بالبقية الباقية من هدوئه ، وراح يتمتم محدثاً نفسه وهو يسب الحياة ويلعنها . . . كان مرض حمودة ، وما سمعه من السيد أفندى ، قد أمداه بحصيلة من التشاؤم تكفيه عاماً بطوله ، عندما عاد الى الرصيف فى الضحى وقالوا له أن عمه قد خرج وحده ، انقبض قلبه وعزف عن اللحاق به ، وراح طول يومه يتسكع ملولا بين المقهى والرصيف ، حتى ارتفعت الشمس الى منتصف السماء فذهب الى البيت وتناول غداءه ، ثم عاد الى حمودة ليجده غائباً عن الوعى ، تجمع حوله الأطباء والممرضات ومنعوه من الاقتراب منه . . . ولم يجد السيد أفندى .

الى متى تظل الكآبه هى سحابة حياته ؟ . . . أين ذهب عمه الآن ؟ . . . أيكون قد حدث له شىء ؟!

ولاحت لحنفى أنوار المقهى .

دقائق قليلة هى التى مضت حتى تجمع الرجال فوق الرصيف ، وراحوا يحلون قواربهم ، ويقفزون فيها ، ويتسلقون صواريها العالية . . . وغمر المكان بعد لحظات ضوء عشرات الكلوبات والمصابيح التى حملوها من الخارج . . . فما كاد حنفى يسأل الرجال عن عمه ، حتى قال رجل :

« آنى شفته فى المغربية عند باب البوغاز !! »

« باب البوغاز ياجـــدع ؟! »

« باب البوغاز وحياة النبى ، حتى آنى سلمت عليه ماردش السلام ! »

وبحثوا عن القارب ولم يجـدوه !

وكان فى هذا الكفاية . . . كلمات قليلة تبودلت ، تحرك بعدها كل شىء فى سرعة ونظـام !

ووصل الخبر الى زقاق السيد البلطى . . . وقبل أن يصل الى الزقاق ، تسرب مع الهواء الى كل بيت فى الحى !

* * *

كان المعلم محمد قد استكـان فى مكـانـه منـذ أن وجـد له مأمناً بين الصخـور . . . استـطالت ذراعـاه حتى اسـتطاع التشبث بقمة صخرة ، وبحث فوجد لقدمه مكاناً عالياً صعد اليه مبتعدا عن سطح المياه المتلاعب ، ثم قبع منكمشاً على نفسـه . . .

ومرت به الدقائق الأولى كأنها أعوام طويلة ، وهبط الظلام على الدنيا فكساها بردائه الأسود . . . ودار الفنار بضوئه الوهاج مادا شريطه الفضى الى عشرات الأميال كذراع مضيئة تمزق ستر الظلام التى دفنت البحر فى أغوارها المخيفـة ، وعن بعـد ، كانت أنـوار المدينة تتلألأ متناثرة كحبات من لؤلؤ وضاء . . . والأمواج ترتفع حينا وتضرب الصخر بقممها فيصل رذاذها الى قدمى العجوز ، فتسرى فى جسده رعدة ، وتنطلق من صدره سعلة ، بينما انعقدت ذراعاه فوق صدره ، وجمد . . . وظلت عيناه ترقبان كل شىء .

ومرت ساعة ، أحس بعدها كأنه بلا ساقين ، ثم تسرب اليه خدر مؤلم جمد كل أعضائه ، حتى شفتيه ، خيل اليه أنهما تضخمتا وأصبحتا فى حجم

لايسمح لهما بالانطباق . . . وكست عيناه طبقة ندية من الضباب ، وضعفت خفقاتُ قلبه وتباعدت ، وارتعد فكه . . . وران من حوله الصمت ، ومع الصمت تسربت الى نفسه وحشة ويأس . . . زحزحة قدم فوق أحجار زلقة قد تؤدى به الى الأعماق ، ركود يصيب نفسه ، وهمود يحط على أحاسيسه ، فلا خوف ولا جزع ، لا برودة ولا دفء . . . أحس كأنه معلق فى الفضاء ، لا حول ولا طول ، نسى القـارب ، ونسى محمـود ، ونسى حنفى والرجال . . . الطبيعة من حوله فى موات ، الحياة بعيدة بعيدة ، وراء ضباب كأنها حلم ، فليمت اذن فى هـدوء !

* * *

وسواء طال به الزمن أم قصر ، فقد مضى . . . ودبت الحياة فى الدنيا من جديد ، وغمرت أضواء الكلوبات سطح المياه . وترامت اليه أصوات الرجال ونـداءاتهم ، فظل ساكنا كأنه لايسمع ولا يرى ولا يعيش . . . واقتربت القوارب أكثر ، وتتالت الأصوات منادية ، وتساءل العجوز عن سبب سكونه وسكينته . . . أيكون قد مات حقاً ؟! . . . القوارب تسبح فى كل مكان ، بعضها يشرِّق ، والبعض يغرِّب ، وأخرى تطير اليه ، والصيحات تعلو وتعلو فلا تهز فى جسده شعرة . . . وانبعث من قلب الظلام المضىء صوت ارتجف له قلبه ، ووقف له شعر رأسـه . . .

« بابا . . . ياااابـا »

محمـــود !

نشط عقله كأنها نخسته عصا سحرية ، فانطلق يفكر فى سرعة . . . هل يستطيع أن يجيب ؟!

« يااااابـــا . . . »

هل سـيجد صوته ؟!

« يابويـــا . . . ياااابا »

« محمو . . . د . . . محمود . . . هوو وه . . . محموو و ود ! »

أهـو الـذى ينـادى أم أنســان آخر سواه ؟ . . . تحركت ذراعاه دون أن يدرى ، وحملته ساقاه المتجمدتان رغم ارتجافهما ، ورعده تمس قلبه فتندفع منه الدماء راكضة كاللهب فى عروقـه . . .

« بابا . . . يابا محمـد ! »

« أيوه . . . أنا هنا . . . هوو وه ياولاد ! »

« يامعلم محمـد . . . يابلطى ! »

« أيوه يابرعى . . . ياحاج . . . أنا هنااا! »

وتجمعت الأنـوار ، وبدت له أشباح القلاع وهى تصفق فى الهواء كأنها طيور نورس خرافية . . . وطفح الـدمـع من عينيه ، وراح يتسـاءل وهو يرتجف . . . هل قدرت له الحياة مرة أخــرى ؟ . . . أى يوم هذا الــذى مضى ؟! . . . الـرزق جافاه ، والقارب مقلوب ، والشبكة ممزقة ، والموت كان قريباً ، والفرح يغمره بالرغم من كل هذا فالحياة حلوة ، الصخور ليست ملسـاء كما ظن ، هنـاك أمـاكن خشنة اعتمدت عليها كفاه الآن ، ساقاه تخشبتـا ، الأنوار تتجمع وتتلاصق لتصنع كتلة من الضياء فكأن الدنيا فى فرح ، صوته ينطلق راعدا ، وصوت يصـرخ :

« أبوبا أهه . . . جاى لك يابا . . . جاى لك ! »

إنه محمــود !

ما أحـلى صوت ولده ، جسده يهوى الى المياه ، وجسد آخر ، لابد أنه حنفى . . . لابد !

« خليك مكانك يابا ، جايين لك يابويا !! »

« بوجى يابنـــدارى »

« حاسب يااحمد وولع النـار »

« شد البارومة ياسيدهم ، لم القلع ياجدع »

« حضرت البطّاطين يارومة ؟ . . . جهز نفسك أول مايطلع ! »

أذرع قوية تضرب المياه فى مقدرة ، عشرات الرجال خرجوا من أجله ، ومصابيح كثيرة ، عشرة ، عشرون ، ثلاثون . . . أكثر ، أكثر بكثير . . . وضباب يحجب عنه الرؤية ، دموع تسح من عينيه . . وصوت محمود يناديه فيرد عليه مرتجفـا :

« أنا هنا ياابنى . . . أنا بخيـر ! »

ورجل يصيح من بعيد . . . وجدوا القارب !

وصل حنفى الى الصخور . . . وجهه يطل عليه من أسفل ، وكأنه السيد البلطى يخرج اليه من أعماق المياه لينقذه ، ومحمود بجواره ، أذرعهما مفتولة تحمله فى قوة ويسر ، والليل أصبح نهارا .

« سلامتك يابا . . سلامتك ! »

« أنا بخير ياواد ، جمد قلبك . . . القارب انقلب بيه ، الشبكة راحت ، كان فيها كتير ، كانت واسقة طن ياواد ، خدتنى المركب غدر ! »

« فداك يابا . . . فداك ! »

قالاها ـ حنفى ومحمود ـ فى نفس واحد ، قلبه يضطرب فى صدره كحمامة مذبـوحة . . . برعى يمد له ذراعه من القارب ، عشرات الأصوات تسلّم وتنادى وتسأله عن حاله . . .

« آنى بخير ياولاد . . . الله يسلمكم . . . بتقول ايه ياسيدهم ؟ . . .

البرد جامد ؟ . . . لأبداً . . . آنى كنت مولع نار يابن القرموط وبنشوى سمك ! »

ضحكات ؟ . . . ما أحلى الضحكات ، يخلعون عنه ملابسه ، ويدلكون له ساقيه وقدميه وجسده ، يدثرونه بالبطاطين ويقربونه من النار ، محمود يقترب منه وينحنى أمامه ، تقطر المياه من وجهه وشعره وجسده ، ويبكى !!

« بتعيط ليه ياواد . . . انت صغير ؟! »

« انت بخير يابا ؟ »

« نحمدوه على كل حاجة ، بخير . . . بخير والحمد لله ! »

ما أحلى الدموع عندما تدفء عينا طال الصقيع من حولها ، شفتا ولده على ظهر كفه تدفعان الحياة دفعا الى قلبه . . . شاى ؟ . . . سيجارة ؟ . . . وفرحة طاغية ، تصفيق وغناء ، وطبل فى كل قارب ، وأشرعه ممتلئة بالريح ، وغناء الرجال يتصاعد الى عنان السماء . . . « سالمة ياسلامة » . . . كيف حال حمودة ؟ . . . فى المستشفى ؟ ، وأمك يامحمود ؟ وأمك ياحنفى ؟ . . . وعائشة ؟ . . . والعيال كلهم ؟ . . .

وكأنه غاب مئات السنين ، لم يكن سفرا طويلا ، كانت ساعات مرت كالدهور ، احك عما كان فى الشبكة من رزق آخر مرة ، ولكن . . . قبل أن تحكى مل برأسك قليلا ، وارشف من الشاى الساخن ، واجذب من السيجارة نفساً ، وتمدد ، وأسعل . . . فلابد أنك مريض . . . أسعل ياعجوز أنها سبعون عاماً . . .

— ٨ —

قبع محمود فى منتصف القارب بعد أن ارتدى ملابسه ، وحمل بين كفيه كوب الشاى الذى قدموه له ، وأخذ يرشف منه على مهل ، وعيناه لاتفارقان وجه أبيه .

من كان يصدق هذا ؟ . . . كيف كان يعيش أيامه الماضية ؟ . . . هل يحب أباه حقاً كل هذا الحب ؟ . . . بدت له الحياة فى لحظة بوجه جديد وغريب أخذ يحملق فيه كالمذهول . . . كان يرتعد وهو يرشف الشاى غارقاً فى الضجة التى أقامها الرجال من حوله ، فى الصياح والنكات والأغانى التى أخذت تسبح فى سماء الميناء فى ذلك الليل البهيم . . . الأضواء المتناثرة وأشباح القوارب والرجال ، كان هذا يهزه هزاً عنيفاً ويبعث فى جسده قشعريرة ارتعدت لها أوصاله . . . لكنه حزين ، وحزنه عميق يكاد يسحق روحه .

فى لحظة ، خيل اليه أن أباه قد مات ، كانت لحظة تساوى العمر كله ، صرخ فيه أحدهم وهو جالس وسط الزقاق غارق فيما يغرق فيه كل ليلة :

« أبوك يامحمود ! » . . . عالم غريب مبهج يجذبه اليه فينساق دون وعى وراء ليل يقوده من أعماقه . . . ماذا يريد ؟ . . . لايدرى . يروح ويجىء ويقول الشعر ويغنى المواويل ويطرب الصحاب ويعيش الحياة بكل قلبه . يقولون عنه فى الزقاق أنه عربيد وهو قول لايهمه ، فهو ليس فى واقع الأمر عربيداً ولا حشاشاً ، كل ما هنالك أنه حزين . . . حزنه غريب لايدرى كنهه ولا مبعثه ولا سببه ، شىء كالضياء الباهر يلوح له فى ظلام الحياة فينجذب اليه مقهوراً مغلوباً على أمره ، الصيد مهنة شريفة والصيادون أعظم الناس وأكرمهم وأحبهم لقلبه ، لكنه ليس مثلهم . وا أسفاه ، الشعر الذى يقوله لايدرى متى تعلمّه ولا كيف نطق به . وتغلى مراجل فى أعماقه . شجار والده يحز فى نفسه كما تحز السكين رقبة شاة تذبح ، يشعر دائماً أن أباه وراءه ، حائط قوى يستند إليه إذا أصابه الدوار ، وجهه العريض وأنفه الكبير وصوته الأجش أحلى ما رأى وما سمع فى حياته ، حبه لأبيه لم يكن يوماً موضع نقاش بينه وبين نفسه . . . لكنه الليلة يحسه بشكل آخر ، أعمق وأشد وأعنف وكأنه غرام !! . . . أيموت هذا الرجل ؟ . . . أيفنى ذلك الوجه الهائل الذى يملأ حياته ؟ . . . أتهمد تلك الحيوية التى لم تؤثر فيها سبعين عاماً ؟ . . . أيذهب كل هذا ويبقى وحيداً ، بلا أب ، وسط هذه الدنيا الغريبة عليه ؟ . . .

عندما أخبره زكريا أبو دراع بما حدث ظن أنه يهون الأمر عليه حتى لاتأخذه الصدمة ، كان فى بوظة شلوفة عندما اندفع زكريا من الباب صارخاً :

« أبوك يامحمود ! »

« خير . . . ماله ؟! »

قالها فى جزع وكل جسده يتقلص ويضطرب .

« خرج من الصبح ومش لا قيينه ! »

جمد كما جمد الصحاب وران السكون للحظات ، واعتصرت نفسه آلام رهيبة ، ثم خرج صوته مبحوحاً :

« قول يازكريا قول . . . أبويا جرى له حاجة ؟! »

« أبدا والله ، بس لسة مارجعش ! »

« الريح جامد والليل متأخر ، قول . . . »

« ياجدع انت صغير ، والله مانعرف »

كان مخدراً من هول الخوف عندما همس مذهولا :

« أبويا مات ؟! »

وعلت الصيحات من حوله :

« ياشيخ وحد الله ، فال الله ولا فالك ، عيب ياجدع كدة ! »

واندفع الى الخارج كأنه يهرب من سياط تلهب كيانه ، دموع تصعد الى عينيه فيكتمها فى صدره لتفور وتغلى وتعذبه أشد العذاب . . . ما أقسى أن يموت الأب ويتركنا وحدنا حتى ولو كنا رجالا بالغين . . . اندفع كالمجنون وعبر الشوارع والحوارى ولحق بالرجال وقفز الى قارب وانطلق يبحث بعينين لاتريان ! . . . الرياح تلذع وجهه الملتهب بالدماء ، والظلام كثيف ، والدنيا فارغة ، عدم ، ليس بها أحد . . . أكان والده كل أحد بالنسبة اليه ؟ . . . لماذا نموت ؟!! . . . لماذا ؟ . . .

لحظات مرت عليه كان يقاوم فيها دمعه الغزير ، حتى خيل اليه أن رقبته تنتفخ وتوشك على الانفجار . . . وتوسط القارب الميناء ، ونادى رجل :

« يابا محمد . . . »

فتبعه محمود صائحاً بكل ما فى حلقة من قوة :

« ياااابـــا . . . »

وفوجىء بنفسه يصرخ باسم أبيه ، كان النداء أبعد المعانى عما نطق به ، كان نواحاً اندفع بعده الدمع فغطى وجنتيه وغمرهما ، واقترب منه حنفى ووضع يده على كتفه وهمس بصوت ثاقب هادىء :

« جرى ايه يامحمود ، احنا عيـال ؟! »

حنفى لايتحدث إلا باسم الجميع ، لم يسمعه مرة يقول فيها « أنا » . . . طالما تساءل عن سبب الاختلاف بينهما ، لقد أحب حنفى وأحب بكل قلبه الجلوس معه والتحدث اليه . . . لكنه كان كالآخرين لايفهمه . . . وشيخ الآخرين أبوه !! . . .

شيخهم وكبيرهم وزعيمهم ! . . . ليكن ، فيكفيه من الدنيا أنه عاد الى الحياة . . . عدت يا أبى الى الحياة وسأخضع لارادتك ، سأخرج الى الصيد فى الصباح وأعود به الى الحلقة وأبيع وأشترى وأهجر الشعر والمواخير والغرز . . . لم أذهب اليها يا أبى لأنى حشاش أو سكير ، بل لأن الحشاشين والسكارى هم الذين يفهموننى ويقبلون على بضاعتى ، والله كنت صادقاً كلما عدت اليك تائباً . . . لم أخدعك أبداً ، نفسى ممزقة وروحى تائهة ، أبحث عن نفسى كالضال فى أعماق محيط بلا قاع . . . من أنا يا أبى ؟! . . . لو أدخلتنى المدرسة لتعلمت وبحثت وعرفت من أنا ؟ . . . فكرى يخيفنى يا أبى ، أحب اللذة ، ولذتى القصوى أن أقول الشعر ، لكنى سأطلقه من أجـل عينيك . . . سأطلق الشعر وأتزوج الصيد ، سأقر بنفسى عينيك ، وسأكون طوع بنانك . . . حزنى شديد شديد يعتصر قلبى ، تقولون عنى أنى طفل كبير ، فلماذا لم أكن رجلا مثل حنفى ؟ . . . لماذا ؟ . . . أنا لا أُغار منـه ولكنى أحسـده . . . حنفى يتصرف كرجل فى السبعين ، وأنا أعبث

كطفل فى العاشرة . . . عندما حملتك وعدت بك الى القارب وجلست أمامك ، سألتنى عن سبب بكائى ، ونهرتنى ياأبى . . . لكنى أستعذب البكاء الآن . . . خيل الى أنى آذيتك ، لن أعصى لك أمراً ، صدقنى فهذه اخر مرة ، لن أذهب هنا أو هناك ، لن أغادر الزقاق إلا للرصيف ولن أترك الرصيف إلا للحلقة ! . . . تفرحنى ضحكتك وتهز قلبى بالسعادة . . . تماماً كما أهتز يوم رأيت كايداهم .

* * *

أنت لاتعرف كايداهم يا أبى ، لكنها تعيش فى دمى . . . يحق لى أن أفكر فيها فأبى حى ونحن فى فرح . . . مومس هى ، أعلم ذلك ، لكنها قطعة من قلبى المحترق بحبها . . . لاطاقة لى بمقاومة ما أحسه نحوها . . . تحسدوننى يارجال على حبها وأنا أكثركم تعاسة ، ذاقت أحضانكم الواحد بعد الآخر ، وتعرت أمامكم فرداً فرداً ، ورقصت لكم رقصة الحياة عشرات المرات ، لماذا تسمونها رقصة الفراش يارجال ؟! . . . والله أنكم لغافلون عما فى الدنيا من حقائق ، انها مثلى يارجال ، قالت لى ذلك فى تلك الليلة . . . عندما أغلق علينا الباب كنت سكران ، نظرت فى عينيها وانزلقت نظراتى على جيدهـا وملست على صدرهـا فارتجف قلبى ، ضحكت منى ليلتهـا وسألتنى ان كنت رجلا !! . . . لم أرد عليها فلسانى كان مشلولا ، جلست بجوارى أنا الذى كنت أذوب للمس عينى لجسدها ، واحتضنتنى وسألتنى لماذا أقول الشعر ، وكيف أقوله ، فسألتها : لماذا ترقصين فى المواخير والحانات ؟ ، فضحكت منى وهى تبتعد ملقية بجسدها على الفراش بجوارى ، قالت لى مالا تعرفونه يارجال :

« أنا كده ، اتخلقت كده ، أحب الرقص والرجاله ! »

صعقتني كلماتها فارتبكت ، لكنها عادت فنهضت قائمة على كوعيها ووضعت رأسها بين كفيها وسلطت على عينيها ، كانت الحجرة دافئة ، والفراش ساخناً ، وثوبها منحسراً عن فخذها ، وقالت بصوت مبحوح :

« البنت اللى تقول لك انها عاوزة تاكل عيش كدابه ، واللى تقول لك انها بتجرى على عيال كدابه . . . اللى تقول لك ايش بالذى كدابه ! »

ثم اعتدلت فى الفراش وتهدل شعرها ، وارتفع صدرها فى انفعال وهبط ، وأنحسر الثوب عن كتفيها ، وصوبت الى نظرتها وقالت :

« احنا كده يامحمود ، صنف مدعى عليه ، هربت من أبويا ومراته واشتغلت خدامة وغسالة وعرفت رجالة عدد شعر راسك ، فيهم الوحش وفيهم الأوحش ، فيهم الوسخ وفيهم الأكتر منه ، وكلهم أصناف تدوخ الراس ! »

« وأنا . . . من أى صنف ؟! »

« انت غلبان يامحمود زى حالاتى ، حنفى ابن عمك بيجى يشرب له قرعتين ويضحك ضحكة ويقول عن اذنكم ، هويته شوية أيام ، ولو طلب منى الرفق كنت بقيت خدامته ، لكن حنفى مش زيك وانت مش زيه ! »

« مين أحســن ؟! »

قلتها يارجال بلا وعى ودون قصد ، نظرت الى كايداهم وكأنها تريد أن تعرينى وتعبث بما فى أعماقى ، ثم ضحكت وهى تتمرغ فى الفراش فى دلال وقالت :

« أنت بتغيـر منه ؟! »

ولم أرد عليها ، أحسست كأنها تصفعنى ، لكنها عادت فقالت فى صوت حنون . . . كم كان جميلاً صوتها يارجال :

« اللى زيك ما يعرفش الغيرة ، قلبك زى اللبن الحليب ، لكن غصب عنك ، أنا عارفة أنك معذور ، عارفة كدة كويس ، أنا لى أخت متجوزة واحد موظف ، موظف فى البلدية يامحمود ، جوزها كان حايطلقها بعد أنا ماطفشت ، كانت زى حنفى تمام ، الدنيا فى عينها بيت وراجل ولقمة عيش ،والدنيا فى عينى رقص وغنا وألف راجل وكاس ! »

ليلتها بكت على كتفى ، ساحت دموعها فوق خدها ولم أقبلها ، خفت على وجنتها من شفتى الباردتين ، ارتجفت يومها كأنى مصاب بالحمى ، ونامت فى حضنى حتى الصباح ، وحكم على وعليها ألا نذوق طعم الحب .

« أنت زى أخويا يامحمود ، عمرك ما خليتنى أحس انك راجل زى بقية الرجالة ، كنت دائماً حنين وقريب منى ، زى أخويا ، أبويا ! »

ولم تكن تدرى أن قلبى يحترق !

وفى الصباح كنت أبتسم لها ، وكان قلبى يقطر دما تصرخ قطراته فى عروقى : « أحبك ياكايداهم . . . أحبك » . . . لكنى لم أقلها يارجال ، فلست فى نظرها رجلا كالرجال . . . مضيت عنها وكأنى كنت فى حلم ، وبكيت . . . بكيت وحدى كثيرا . . .

وفى المساء جلست وسطكم وأنتم تترنحون وتضحكون ، وتلاعبت أصابع زين على ثقوب مزماره ، وتلوى جسد كايداهم فى رقصة أذهلتكم ، لكنى كنت أراها كما لاترونها ، رأيتها ترقص من ألم دفين يبعث فى النفس والجسد أعظم لذة ، نفس الألم الذى رقص له لسانى فأطلق شعرا غنيته لكم :

ياعينى دمعك ضنانى من البكا والنوح
ما أنت اللى كنت السبب ، ليه نظرتك بتروح
للى عشقته وخلى القلب بات مجروح

على مهلك يا أبى ، هذا هو الرصيف ، الحمد لله على سلامتك ، أمى تزغرد والنساء يا أبى ، يدك لأقبلها مرة أخرى ، سأطيع بعد اليوم كل رغباتك ، سأطلق حياتى رغما عنى فلا أملك سوى الأسف . . .

ترى . . . هل ستذكرنى كايداهم ؟!

— ٩ —

كان المعلم محمد يقطن آخر منزل على اليسار عند طرف الزقاق المسدود ، وكان بيته ـ كبقية بيوت الزقاق ـ قديما ، ذا فناء واسع يمتد فى رحابة وراء المدخل مباشرة ، تقوم على جانبيه حجرات ضيقة ، تفصل بينها أبواب هى أقرب للستائر الرقيقة ، لاتكاد تخفى شيئا أو تحجب صوتاً لكثرة ما بها من ثقوب وشقوق ، أو تفصل بينها حيطان خربة متآكلة سرت رطوبة الأرض فى أسفلها ، ونقعت على سطحها فى بقع كئيبة تصدم العين وتصنع اطاراً مناسباً للحجرة ذات الأرض العارية من البلاط أو الخشب . . . وإذا وجدت حصيرة تغطى سواد الأرض ولزوجتها ، فهى ممزقة متآكلة الأطراف مليئة بالثقوب . . . وفى ركن الفناء الأيمن تقوم دورة المياة والحمام ، أما المطبخ فليس له وجود فى الزقاق كله ، ذلك أن من عادة نساء البلطية أن يطهين الطعام أمام أبواب الحجرات . . . وفى أوقات الغروب ، تخرج كل أمرأة الى عتبة حجرتها ، أمامها وعاء فوق موقد تختلط ضجته بضجيج المواقد الأخرى ، بأصوات النسوة فى ثرثرتهن . . . بصراخ الأطفال اللاعبين فى

الـزقـاق ، أو بكـاء آخرين يحبون فوق الأرض ويتمرغون فى التراب . . . وتنتشر - فى ذلك الوقت من اليوم - رائحة الطعام المطبوخ ، وتمتلىء الأفنية بالبخار الدافىء .

وفى الصدر - أمام المدخل مباشرة - يقوم سلم ضيق مظلم حالك الظلام فى أشـد أوقات النهار نوراً ، يخيل الى الصاعد عليه - إن كان غريباً - أنه سرداب يؤدى الى مقبرة معتمة ، ويتعرج السلم يساراً فى دورتين ، ويصل الى الـطابق الأول الذى يبدو دائماً - فى كل البيوت - أكثر أتساعاً من سابقه ، يلبس ثوب القـدم رغم المحـاولات العـديدة التى تبذل فى تجديده كدهان حوائطه أو رصف أرضيته بالبلاط .

وقـد مرت سبع ليال لم يبارح فيها المعلم محمد فراش المرض ، كان قد أصيب بنزله شعبية حادة ، لم يستطع فن السيد أفندى الباشتمرجى ولا مرانه أن يقفا أمامها ، فاستدعى طبيباً من المستشفى زاعماً له أن المعلم محمد زوج خالته . . . وقد كابر السيد أفندى فى البداية أمام نفسه ، وبذل أقصى ما أستطاع من جهد ، ظنا منه أن حضور الطبيب الى الزقاق أمر سيكلفه من كرامته مالا يطيق ، لكنه أمام تداعى صحة العجوز وتدهورها ، لم يجد مفراً من استدعاء الطبيب . . . وعلى عكس ما كان ينتظر ، رفع هذا من قدره أمام أهل الزقاق ، خاصة النساء اللواتى أخذن يتهامسن - على مسمع منه - عن مركزه فى المستشفى ، وكلمته التى لا يستطيع طبيب أن يردها . . . وكان لابد أن يثلج هذا الثناء صدره ، ويزيد من زهوه وتقديره لنفسه ، فكثرت على لسـانـه أسماء الأدوية الغامضة ، وقصص بطولاته وعبقريته وانقاذه لأرواح الكثيرين . . . وإن كان هذا كلفه - يوم أن جاء الطبيب - جنيها كاملا أشترى به بعض الأدوية ، مما ترك فى نفسه ضيقاً شديداً ، إلا أن ضيقه هذا سرعان ما تبخر وزال مع ماجد من أحداث قلبت حياته الساكنة رأساً على عقب !

كان حمودة قد غادر المستشفى بعد أن مكث فيها يومين . . . وقد أضافت عودة حمودة للزقـاق لمسئوليات السيد أفندى مسئوليات جديدة . . . فنشط نشـاطاً ملحوظاً ، ولم يتوان عن زيارة الزقاق كلما وجد لديه وقتاً يسمح له بالذهاب ، وكانت زياراته المسائية تمتد الى ما بعد منتصف الليل ، حيث يلتف الرجال حول فراش المعلم محمد ، تتوسطهم مجمرة تتصاعد منها ألسنة حامية من لهب يبعث الـدفء فى الأجسـاد . . . وتحلو الأحـاديث وتكثر الحكايات وتدور أكواب الشاى مرات ومرات ، ويعبىء جو الحجرة دخان الجوزة التى لاتكف عن الكركرة ، يلف الجميع فى غلاله يرون الحياة من خلالها ذات لون بهيج ، وطعم ألذ مذاقـــاً .

وبقدر حب السيد أفندى لهذه السهرات وفرحته بها ، لما كان يوليه اياه الرجال من عناية خاصة فرضتها شهامته وتفانيه ، إلا أن غبطته كانت أشد لما أصاب أم حنفى فى تلك الأيام من ضعف شديد ألزمها الفراش ، وما كان يتيحه له مرضها من محادثة عائشة حديثاً ملتوياً تحمل كلماته معانى كثيرة ، بذل جهداً كبيراً حتى استطاع أن يفهمها منه المعنى الذى يقصده .

والغـريب . . . الغـريب الـذى جعـل قلبـه يرقص فرحاً ، أن عائشة استجابت لغزله ! . . . وكانت استجابتها ملتفة ملتوية تحمل - هى الأخرى - أكثر من معنى ، مما دفعه لأن يأخذ دائماً جانب الحذر الشديد حتى لايحدث ما يمكن أن يعكر صفو سعادته .

* * *

كان السيد أفندى أشد الناس سعادة وهو يدلف - فى الليلة السابعة - الى بيت المعلم محمد . . . فقطع الفناء فى خطوتين - وكان الفناء خاليا - ووصلت أصـوات الرجال من الدور الأعلى الى أذنيه عندما امتدت قدمه الى السلم

المظلم يتحسس درجاته ، وصعد درجة ، ودرجتين ، ودار مع استدارة السلم عندما اخترقت أذنيه هفهفة ثوب ، فتنبهت حواسه كلها فجأة ، ثم توترت عندما تلمست خياشيمه تلك الرائحة التى لايخطئها وسط آلاف الناس . فهمس بصوت مضطرب :

« ميـــن ؟! »
« مساء الخير ياسى السيد أفندى »
« عيشــــة ؟! »

صعد درجة أخرى بجساره تعودها فى مثل هذه المواقف ، وان كان الوضع هنا يختلف ، وامتدت يسراه فوق سياج السلم زاحفة ، فاصطدمت بيدها التى فرت مولية واختفت عن حواسه فى الظلام ، فعالج الأمر بسرعة قائلاً وقد تصلبت كل أعضائـه :

« ازاى الحال دلوقت ياعيشة ؟! »
« نحمدوه . . . أحسن كتير »

وسـاد صمت عميق ، تخللته أصوات أنفاسها المتلاحقة ، وأصوات الرجال الآتية من الداخل ، لكن صوت عائشة تصاعد فجأة وعلى غير انتظار خفيضاً هامسـاً :

« بس أنت غبت عنا كتير ياسى السيد أفندى ! »

رقص قلبه رقصاً طروباً ، فلم يكن قد غاب عن الزقاق ، سوى صباح ذلـك اليوم ، وأحس بغـريزته أن وراء قولها ما وراءه ، فقال مضيقاً عليها الخناق بحذق الخبيـر :

« مانا كنت هنا امبارح بالليل يابت الناس !! »
« والنهاردة الصبـح ؟! »

لم يعد أمامه شك . . . على أن الشك وان كان فى حد ذاته مبعث لذة ـمية ، إلا أن ذروة اللذة تأتى فى لحظة اليقين الباهرة . . . لذلك ، سرعان ا أنقض عليها بالسؤال متعجلاً لتلك اللحظة ، وكأنه ينتزع منها قلبها :

« يعنى وحشــتك ؟! »
« وحشت الزقاق كلــه ! »

عادت تروغ منه وتفر . . . ولكن ، أيقنع بهذا القدر ويترك للظروف أمر اليقين ؟! . . . طالما حاورهن فى المستشفى وطاردهن . . . يرغن فى سراديب حل يلهب المشاعر ، ويشعل فى الحواس ناراً هادئة تبين فى ظلمة السراديب ـضـوء ألف شمعـة . . . وفى مثل هذا الظلام المتأجج يحلو الكلام النحوى . . . ترى هل هى ملتصقة بالحائط أو تقف وسط السلم ؟ . . . ياله من مجنون عربيـد !!

« يعنى أنت زى غيرك ياعيوشة ؟! »
« ياسلام عليك ياسى السيد أفندى . . . عن اذنك بقى ! »

ولا يدرى كيف أفلتـت من جواره دون أن تمســه فى ذلـك المكـان الضيق . . . النساء كالقطط ، يرين ـ حتى فى الظلام ـ الرغبات والنفوس ، عوده أحساسهن على حدته ، وان لم يستطع مجاراته أو اللحاق به . . . وكانت عينـاه تتبعـان شبحها الهارب وهى تغادر البيت ، واستطاع أن يلمح على وجهها ـ عندما انفلتت الى الزقاق ـ شبح ابتسامة ، فخفق قلبـه .

لو أن أحداً قال للسيد أفندى أن ذلك ممكن أن يحدث ، لما صدق . . . ولأقسم بأغلظ ما يؤمن به من إيمان ـ على ندرتها ـ أن هذا أمر لايمكن أن يحدث . . . ولكن ، ما إن تنقض علينا تلك اللحظة الخارقة النادرة الوجود . حتى نفقد فيها قدرتنا على تكييف حياتنا حسب منطق التقاليد ، فنشعر وقتها

وكأننا كنا سجناء غلالة رقيقة لاتكاد تحجب من نفوسنا شيئاً ، يخيل الى المرء فى لحظة كهذا أنه أعمى وأصم وأبكم ... تركيز النظر فى انسان للحظة كهذه ، كاف لأن يعريه من ثيابه !!

صعد السيد أفندى الدرجات الباقية فى خطى ثقيلة ووجه متلهب ، وفى رأسه دوامة فائرة ، وان كان احساسه بلذة اللحظات التى ولت لازال يسيطر عليه ... إلا أن ثمة احساس آخر بالمسئولية قد وضعته فيه وحدته على السلم من ناحية ، وأصوات الرجال التى كانت تقترب كلما صعد درجة من ناحية أخرى .

هب أن أحدا رآهما ؟ ... حقا أنه لم يصنع شيئا منافيا للأدب أو التقاليد ، ولم يقل شيئاً غير مألوف سوى كلمة التدليل « عيوشة ! » ... ولكن ، هب أن احدى نساء الزقاق ـ وما أكثرهن ـ كانت جالسة فى أحد الأركان المظلمة ، وهب أنها سمعت ؟!

كيف تجرأ ، وكيف أقدم ، وكيف فقد وعيه ؟ ... وكيف وكيف وكيف ؟!

* * *

كان عليه أن يعود فى تلك الليلة الى المستشفى ليبيت فيها حتى الصباح ... فأمده هذا بحجة لعدم البقاء طويلاً ـ وقد كان يستطيع ـ فما أن حقن المعلم محمد وانتهى من عمله ، حتى أحس برغبة شديدة فى مغادرة المكان ، بل فى الفرار ... أحس كأن عيون الجميع تلهبه وتحيطه بسياج من الشك ، كان مؤمنا فى أعماقه أنه أخطأ ، فالتقاليد عند آل البلطى أمر له قداسته ... الحب شىء محرم ، علاقة الرجل بالمرأة لاتذكرها الألسن ... أحس بثورة طاغية لم يعهدها فى نفسه ، ما الذى يربطه بهؤلاء القوم ، هل

يرفضون طلبه لو تقدم للزواج منها ؟ ... سيحيرهم الأمر ، فهم لا يزوجون بناتهم من أغراب حتى ولو كانوا صيادين ، وهو صديق حقاً ، لكنه غريب ، وليس صيادا ! ... هل ما يقال عنهم صحيح ؟ ... أهناك سر يتوارثونه عن السيد البلطى ؟ ... لشد ما يرتعب من نظراتهم .

« عن اذنكم يارجالـة ! »

ولم تصل الى أذنيه كلماتهم والحاحهم ، كان غائباً فى لجة من الوجل والضيق والنشوة والخوف والرعونة ... جسده يصطلى بنار طالما أحرقته ، لكن لسعها هذه المرة أقوى آلاف المرات ... هل تحبه عائشة ؟! ... الزقاق خال والأبواب مغلقة وأصوات الرجال تصل اليه من أعلى ... فماذا لو عرج ليسأل عن أم حنفى ويلقى على عائشة نظرة ؟! ... ماذا دهاه ؟ ... هل أصيب بالجنون ؟ ... يده تطرق الباب ، وصوتها يصل اليه سائلا عن الطارق ، وقلبه يدق بعنف ... ووجنتاه التهبتا بدماء تكاد تغلى .

« أهلاً وسهلا سى السيد أفندى ! »

ما كاد ينطق حرفاً حتى جاءه صوت أم حنفى من الداخل يسأل عن القادم ... وردت عليها عائشة وهى تفسح له الطريق مرحبة ، وانتصب فى ضوء المصباح جسد زوبة وهى تتطلع اليه بعينيها الجسورتين ... تحيته لزوبة سريعة مقتضبة ، قبل يد أم حنفى بشفتين مرتجفتين .

« قلت نفوت نسأل عنك ! »

« سألت عليك العافية ياضنايا ... آه يانى »

ابتسمت العجوز فى رضاء شديد ، واعتدلت فى جلستها وهى تأمر عائشة باعداد الشاى .

« لا والله ماق لزوم أبداً ، أصل أنا عندى وردية ليل ، انتى بتاخدى الدوا ياخالتى ؟! »

ليتحدث فى اختصار وليمض فى طريقه فلن يستطيع شيئاً حيال زوبة التى دخلت الحجرة وجلست محملقة فى وجهه . . . شعر بعينى عائشة فوق صدغه ، ولكنه لم يستطيع أن يرفع اليها بصره . . . كلماته فاترة غائبة ، وكلماتهم حارة ، ورغم هذا يشعر بضيق يكاد يخنقه ، فليمض اذن فلن تتاح له فرصة .

« فوتكم بعافية ياخالتى ، حانعدى بكرة الصبح إن اذن الله نجيب لك الدوا التانى »

صافح العجوز وصافح زوبه ، ثم استدار نحو عائشة وانقض عليها بعينين ملتهبتين برغبة عربيدة ، ومد لها كفا جسوراً ثم أطبق على كفها فتركت له يدها وهى ترخى أهدابها حتى لتكاد أن تغمض عينيها ، قطع الفناء فى خطوتين واستدار نحو الباب ثم توقف وفرد لها كفه مرة أخرى فسلمته يدها بلا تردد ، وانصب على صدرها بصيص ضوء ، ورأى الصدر منفعلاً مضطرباً ، ورقص قلبه . . . ولا يدرى كيف ترك يدها . . . ولا كيف مضى عنها !

* * *

كانت الساعة قد جاوزت الثامنة بدقائق عندما تسلم السيد أفندى مائة واربعين سريراً ، يرقد عليها مائة وأربعون مريضاً . . . وانتحى بعدها فى ركن العنبر وراء المنضدة الكالحة البياض . . . ورفع عينيه ودار بهما فى العنبر بملل عندما اصطدمتا بسعديه وهى منحنية فى أحد الأركان تنظف الأرض ، فأخذ يرقب ردفيها المحشورين فى ردائها الأبيض ، وقد بانت استدارتها محددة التقاطيع فالتهبت فى جسده نيران رغبة لم تخمد بعد .

طالما تمنى أن ينال سعديه ولو مرة بعد تلك الليلة التى قضياها سوياً فى همس حتى مطلع النهار . . . تزوجت من رجل أذاقها المر ثم طلقها بعد أن ترك بها ابنة أصبحت فى الثالثة . . . تأوه مريض فى نهاية العنبر فنهض اليه فى كسل وتراخ وعيناه لاتفارقان سعديه ، وكف المريض عن التأوه فتوقف وعاد من حيث جاء . . . ما الذى دهاه الليلة ؟! . . . وما الذى حدث حتى سقط فى تلك الدوامة المخدرة . . . التقت عيناه بعينى سعديه ، فألقت عليه التحية باسمة :

« مسا الخير يابو السيد ! »

رد عليها فى هدوء ، أنه يعلم أنها تحوم حوله وتنصب له شباكها . . . خرجت من العنبر فارتمى فى مقعده مفكراً لاهثاً . . . على أن صراخ معدته سرعان ما أيقظه من غفوته ، فتذكر أنه لم يتناول عشاءه بعد ، وكأن ذكر الطعام سحر بعث فى نفسه الحيوية فجأة ، فنهض نشطا وهو يأخذ طريقه الى المطبخ .

ألقى بالتحية على زكى الطباخ ، واختطف قطعة لحم ازدردها بسرعة وتلاها بقطعة أخرى . . . لو كان متزوجاً لأغرق أولاده باللحم . . . كانت هناك أفكار سخيفة تراود ذهنه بين الحين والحين . . . فهو يعلم عن يقين أنه يأكل غذاء المرضى وقد احتاج الأمر منه الى قليل من التفكير . . . الأدوية التى يعالج بها آل البلطى اقتطعها من علاج مرضاه الراقدين فى العنبر . . . ليس فى الأمر حرام أو حلال ، الدنيا فى نظره منفعة بعد طول حرمان ، فى صغره عزَّ عليه اللحم حتى بكى ذات مرة وأبكى أمه معه ، لن يعلم ذلك أحد ولن تعلمه عائشة بالذات ، يقول للجميع أنه نزح من القاهرة بعد أن توفى أبوه وأمه وورث عنهما بعض المال ، والحقيقة أن أمه ذاقت من أجله المر بعد موت أبيه ، ثم ماتت ذات ليلة وتركته وحيداً . . . عمل خادماً عند

طبيب ، واستطاع أن يشرب الصنعة ثم يقفز فى حذق درجة درجة حتى واتته الفرصة فعمل فى المستشفى . . . يصلى الفرض فى وقته دون نسيان ، ويرتكب الحرام بين الحين والحين ، أى نعم ، ولكن فرض الله واجب !

سرح بفكره ذات مرة فزاره ضميره على استحياء . . . أليس حراما أن تأكل لحم المرضى ياسيد أفندى ياباشتمرجى ؟! . . . وصمت أمام ضميره فى عجب ، كان السؤال غريباً أشد ماتكون الغرابة . فمنذ أن عرف الطريق الى الحياة والجميع من حوله يفعلون ذلك ، المرضى غلابة ، هذا صحيح ، ولكنه أشد منهم غلباً . والله يرزقكم فلماذا تفكرون ؟! . . . الحقن التى عالج بها أم حنفى وأنسباء المستقبل لم يصب أصحابها ضرر . كانوا دائماً يضحكون ويشفون ويغادرون المستشفى فى أتم صحة وأتم عافية ، الأطباء مبذرون ، والمداوى حقا هو الله . . . ولم يزره ضميره بعد ذلك ، عاد الى مكمنه وراح فى نوم عميق وقد اقتنع تماماً ! . . . أراح وأستراح .

ومضت الحياة بعدها هنية حلوة ـ نحمدوه ـ لامصاعب فيها ، لو اعتمد على مرتبه لمات من الجوع . جنيهان وثمان وعشرين قرشاً وستة مليمات فقط لاغير . يدفع منها عشرون قرشاً أجر الغرفة التى يسكنها . وجبة طعامه لاتتكلف أقل من خمسة قروش ، حقاً أنه يسترزق من هنا بقرشين ومن هنا بقرشين . . . والله سبحانه وتعالى يرزقكم ، فهل تتبطرون ؟!

التهم طبق الأرز بالخضار ، والتهم قطعتين أخريين من اللحم ، إن لم يأكلها هو فسيأكلها غيره . . . تجشأ بعد ذلك بالصحة والعافية ، وأحس بدمائه تعربد فى عروقه فغادر المطبخ بعد أن أخذ كوب الشاى فى يده ، وانطلق لايدرى الى أيـن .

خرج الى فناء المستشفى ، ووقف وسط الخلاء والسكون وحيداً متلذذا

انفاس السيجارة التى أشعلها ورشفات الشاى الساخن . . . مرت بذهنه الخواطر والأفكار ، فاستعذبها وهز رأسه فى رضا . . . وهبت نسمة باردة اصطكت لها أسنانه ، دس السيجارة بين شفتيه وجذب منها نفسا عميقاً سحبه الى رئتيه ، ثم عاد ونفثه . لكنه سرعان ما استدار عائداً وقد دب النشاط فى أوصاله . . . صعد درجات واخترق ممرات وألقى بكوب الشاى الفارغ عند حافة شباك ، وتوجه الى العنبر . . . عند باب العنبر وقف وهو يرقب المرضى منهمكين فى تناول عشائهم ، وما كاد جسده يظهر حتى صاح احـدهم :

« مفيش لحمه ياباشتمرجى ؟! »

أحس وقتها أن يدا جذبته من أحلى نومة لتوقظه فى عنف ، فصاح فى غيـظ :

« أطفح وأنت ساكت يامصران ياأعور ، عاوز تموت ! »

« مصروف لى لحمة ، الدكتور قال كدة !! »

ولم يعن السيد أفندى بالرد عليه ، ذلك أنه لمح سعدية تخترق ممرا جانبياً يؤدى الى سلم يفضى الى حجـرة الشغـالات . . . لم يفكـر ، ولم يهتم بالتفكير ، قادته غريزته فانساق لها كالأعمى ، اندفع وراء سعديه فى خطوات نشطة وأنفاس تتردد مسرعة ، انثنت المرأة وهبطت سلما ، فتمهل عند قمته ، وما كادت تهبط السلم وتستدير الى الممر المظلم حتى اندفع يقفز السلم قفزاً .

« سـعديه ! »

فى صوته بحة لاتخطئها أذن امرأة مثل سعديه ، فاستدارت نحوه وألصقت ظهرها بالحائط :

« خير ياسيد ياخويـا ؟ »

« على فيـن ؟ »

سؤال لامعنى له ، فالممر لا يؤدى إلا لحجرة الشغالات فى نهايته ، فى عينيها قلق وفيها شيء آخر ، ارتبكت وفهمت فأربكته .

« خير . . . . عاوز حاجـة ؟! »

دمـاؤه الساخنة لاتدع له فرصة للتريث ، صدره يعلو ويهبط فى انفعال وحشى . . . غابت الدنيا والاحداث وتوقف كل شيء عند لحظته .

« كنت باقول نقعد نتكلم شوية ! »

حديث لايفـوت على سعـديه التى تعـرف من فنون الرجال مالا يعرفه السيد ، ثمة ضوء شاحب يمتد من حجرة الشغالات ، يظهر فيه شبحها الممتلىء الملتصق بالحائط فى فورة ونداء . . . انه يعرف ما يدور بذهنها ، وهى تعرف ما يدور بذهنـه !

« وبعدين معاك ياسـيد ؟! »

« مش قادر ياسعديه . . . مش قادر ياولية ! »

ترى من ينتصر ؟! . . . لقد انتصر هو على أم سالم وفوقية وفردوس والولية ام عبده أيضا ، فى ليال كهذه الليلة ، وأماكن من المستشفى كهذا المكان ، عندما ينتابه الجنون ، لايدرى أين رأسه من قدميه ، ولا يفرق بين جميل وقبيـح .

« وبعدين معاك ياسـيد ؟! »

خطا نحوها فى جسارة حتى لامست قمة كرشه ذراعها ، ومال عليها فى بطء مستنـداً الى الحـائط ، ولم تتحـرك من مكـانها ، فهـل تسلم دون مقاومة ؟ . . . رقصت فى أعماقه شياطين حمراء ، فارتجف وتنهد وقال :

« وبعدين معاكى انتى يامدوخانى ؟! »

« سيد . . . حد يشوفنا ، اعقـل ! »

وانفلتت فجأة وعلى غير أنتظار تاركة اياه فى حيرة ونار ، كلهن كذلك ، وابتسـامة عربيدة تعبث بشفتيه ، لكنه سينتصر ، شبحها يسرع فى ظلال الضوء الشاحب ، لن يتحرك من مكانه ، تنثنى الى الحجرة وتختفى داخلها بعد أن تلقى عليه نظـرة .

ظل متسمـراً فى مكـانـه ، جمدتـه مشـاعر ملكت عليه حواسه وأفكاره وأشعلت النيران فى كل ذرة من جسـده ، امتـدت يده السمينة فمسحت قطرات من العرق تصببت على جبينه ، حاول أن يفكر دون جدوى ، كان قد أصبح أسيرة شهوة عارمة ، هو لايستطيع الاقتراب من حجرتها والا حدث مالا قبل له به ، حجرة الشغالات عالم محرم على الرجال . . . الحائط بارد ، وجسده يغلى ، والساعة جاوزت التاسعة . . . ولا زال فى الليل متسع !

ما الذى تفعله عائشة الآن ؟!

ذكـرهـا يكاد يشعل الشيب فى رأسه ، لو كانت بين ذراعيه لاعتصرها عصراً ، لمزق شفتيها وحطم ضلوعها . . . هل يحبها حقاً ؟! . . . نعم ، نعم نعم ، والا فما هذا الذى يحسه كلما ذكرها أو رآهـا ؟!

غادرت سعدية الحجرة فجأة ، خطت خطوة واحدة ثم توقفت بعيداً عنه .

« أنت لسة واقف ياسيد ، اعقل ! »

جمود يشل كل تفكيره فلا يتحرك ، حلقة جاف وكأنه لم يذق قطرة من المياة منـذ سنوات ، تقدم منها مسلوب الإرادة ، لكنها لم تتراجع ، تقدم خطوة أخرى ثم امتدت يده فجأة فجذبها بعيداً عن الضوء ، وارتمت المرأة ، بقوة جذبته ، فوق صدره السمين . . . قاومت فى وهن ، ولكن شفتيه سرعان ما انهالتا فوق وجهها وهو يخور كالثور !!

عندما عاد بعد ذلك الى العنبر ، كان المرضى قد غرقوا فى سبات عميق ، وارتفع شخير بعضهم ، وترددت أنفاس البعض فى هدوء . . . وساد المكان سكون أنيس . . . فجلس السيد أفندى فى استرخاء فوق مقعده وراء المنضدة الكالحة البياض ، وأخذت أصابعه تعبث فيما فوقها من أدوية وأوراق . . . كانت علامات الرضا والارتياح بادية على وجهه بوضوح ، وابتسامة رائقة احتلت ملامحه السمينة ، وفى لحظة ، كان قد قرر أن يتقدم ، فلم يعد يطيق البعد عن عائشة أكثر من ذلك !

ولكن . . . هل يفعل حقـاً ؟!

ـ ١٠ ـ

ساد الظلام بيوت الزقاق إلا من ضوء شاحب هنا ، وذبالة مصباح تتراقص فى وهن هناك . . . وغرق المكان فى صمت تخلله صفير الرياح التى كانت تندفع من أعلا الزقاق فى قوة عاصفة ، فتنفذ من شقوق الأبواب والنوافذ .

وكان حموده ممددا ـ فى نصف جلسة ـ فوق الفراش وقد تدثر بالأغطية . . . على رأسه طاقية من الصوف ابتلعت جبهته وأذنيه وصدغيه ، وظهر شاربه الكث وكأنه كل شىء فى وجهه ، وساد الحجرة صمت تخللته أنفاس العيال وقد راحوا فى سبات عميق ، بينما كانت عطيات تعد كوب الينسون الساخن لزوجها الذى أخذ يرقبها بعينين قلقتين .

لم يذق حموده ـ منذ أن غادر المستشفى ـ للراحة طعماً . . . كلمات الطبيب وتحذيراته تطن فى أذنيه بلا انقطاع ، حماس السيد أفندى وثورته لايفارقان خياله ، وأولاده الخمسة فى حاجة اليه ، وزوجته تعمل من الصباح للمساء

ولاتكف . . . وصدره يضيق حينا ، ويتسع للهواء حينا ، ولكن بحساب ، الضعف يتسرب الى جسـده حتى ليكاد أن يفقده رشده . بالأمس أحس بالشبكة الفارغة على ذراعه كأنها طن من الحديد ، وانتابه بعد طرحها دوار ، فظل ساكناً فى مكـانه متشبثاً بالحبال ، ثم ترنح ، ولولا الستر لسقط من طوله . . . كل شىء يبدو له كئيباً مرا .

تناول كوب الينسون من يد زوجته ، وأخذ يراقبها وهى تدثر الأولاد وتسد شقوق الباب بخرق تمنع الهواء المتسرب فى اندفاع . . . ثم استقامت واتجهت نحو الفراش وصعدت اليه . . . كانت هى ملاذه الوحيد وموضع سره ، لكنه يخاف أن يصرح ـ حتى لعطيات ـ بما يعتمل فى نفسه من قلق ، وما يدور فى ذهنه من أفكار . . . أفكار غريبة ـ جد غريبة ـ تعربد فى ذهنه ، ومهما حاول وجاهد ليضيق عليها الخناق ويكتمها فى صدره ، إلا أن بوادر منها أخذ لسانه يفلتهـا ـ على الرغم منه ـ بين الحين والحين ، ولولا سرعة تداركه للأمر ، لانفضح للأهل ما يفكر فيه . . . وكأنه كفر !

ليس الأمـر أمر هجرة ، انه فراق أهل وأصحاب وزقاق عاش فيه منذ طفولته ، مرضه يلح عليه أن يقدم ، فلا مفر ، ووراءه بطون تريد أن تمتلىء ، ولا يعـرف فى الدنيا غير صناعة الصيد وطرح الشباك واختيار المكان الملىء بالرزق . . . دماؤه التى تجرى فى عروقه مالحة كمياه البحر ، صدره العليل يأنس لهواء الشاطىء ويحبه ولو كان فيه نهايته . . . والمستقبل ؟ . . . المستقبل مجهول يبين له بلا ملامح . . . فماذا . . . ماذا يفعل ؟!

مددت عطيات ساقيهـا تحت الغـطاء فلامست قدماها الباردتان قدميه الـدافئتين . . . فارتجف . عادت فلمت ساقيهـا ودثـرتهـا بطرف جلبابها وجلست الى جواره متربعة صامتة . . . فى عينيها حنان جارف وحب طاغ ، لم يسمـع منها فى حياته كلمة تعكره ، ولم تفعل فى حياتها غير ما أمرها أن

يفعله . طالما حسد نفسه على عطيات ، كانت ـ من دون نساء الزقاق ـ حلوة اللسان منكسرة الطبع لاتؤذى أحدا ولا ترد لأحد أذاه ، من الفجر حتى منتصف الليل لايشغلهـا سوى رجلهـا وأولادهـا وبيتهـا ، تحادث النـاس بالحسنى ، وتنساق لكلمات زوجها فى طاعة عمياء ، وحب مقرون بإحترام شديد !

رشف حمودة من كوب الينسـون بتلذذ ، وضمـه بين كفيه وأخـذ يرقب البخار المتصـاعـد منه وقد غرق عقله فى لجة محيرة . . . ما الذى ستقوله عطيات ؟ . . . يعرف أنها ستوافقه وتطيعه بلا كلمة اعتراض ، ولكن ، هل تستطيع حقا مغادرة الزقاق والشاطىء والسعى معه الى المجهول دون خوف أو وجـل ؟

مالت بكتفهـا نحـوه فالتصقت بكتفـه ، وأحس حموده بذلـك الشعور الفياض المتدفق الذى يطغى فيغرق مشاعره كلما جلس اليها فى ليلة شاتية

« ازى صدرك دلوقت ياسى حموده ؟ »

« نحمدوه ياعطـا !! »

قالها فى اقتضاب وكأنه يفر ! . . . ولكن أين المفر ؟ . . . وراءه البحر وفيه ما فيه من مرض وعذاب وألم . . . وأمامه المجهول بضياعه وشحوب صوره ومعالمه . . . وبجـواره رفيقة العمر فلماذا لايجس النبض ويتلمس وعورة الطريق مستنداً اليها ؟!

« عطيات . . . عاوز نقول لك على حاجة »

« خير ياســى حمودة ؟! »

لكنـه لم يتكلم ، عاد الى الصمت من جديد . . . وأخـذت عطيات تتساءل فى حيرة . . . ترى ما الذى يشغل باله . . . هل قال له الطبيب غير

ما علمت ؟ . . . مع الأيام أصبحت تشعر وكأنه ابنها لازوجها ! . . . كان دائماً فى حاجة الى رعايتها وحمايتهــا . . .

« بالك مشغول بايه ياسى حموده ؟! »
تمنت على الله أن يطلب سيجارة ، فما كان أحب منظره اليها وهو يدخن .
« عاوز سيجاره ياعطيات ! »
« وصدرك ياسى حمــودة ؟! »

رغم الزغروده التى انطلقت فى صدرها ، الا أن حكمتها كانت دائماً أسبق الى لسانها من أمانيها . . . لمحت علامات الضيق على وجهه ، فامتدت يدها تحت الوسادة وأخرجت صندوقاً قدمت له منه سيجارة . . . ومال حمودة على عود الثقاب الذى أشعلته . . . وتساءلت هى ، لماذا تحب أن تراه مدخنا ياتــرى ؟

« كنت عاوز نقول يا عطيات . . . »
وعاد الى الصمت من جديد ، فقالت عطيات بصوت خافت :
« بتخبى على عطيات ياسى حمودة ؟ »
« آنى نخبى عليكى . . . ؟! »

قالها فى استنكار ، ورفع الكوب الى شفتيه فأفرغ مافيه دفعة واحدة ، ثم مال به الى الأرض بجوار الفراش ، وعاد الى جلسته وقد احتقنت الدماء فى وجهه . . .

« كنت عاوز نقول . . . ايه رأيك لو رحنا مصـــر ؟! »
« مصـــــــر ؟! »

« أيوه مصر . . . صحتى ياعطيات ، العيال محتاجين لى ، نعمل ايه بس ؟ ، نفضل كده كل يوم والتانى فى المستشفى ؟، والا نفضل كل يوم

والتانى بالشكـل ده ؟ . . . قولى لى يابت النـاس نعمـل ايه ، نعمل ايه بس ؟ . . . هيه ؟! »

اختنق صوتــه ، فكف عن الحـديث فجـأة ، وجـاشت نفس عطيات بالحنان ، فتسللت يدها الى كفه على استحياء وقد باغتها الأمر فنكست رأسها ولاذت بالصمت ، بينما عاد حموده الى الحديث من جديد :

« شوف يابت الناس ، قالوا عد غنمك ياجحا ، قال لهم واحدة واقفة وواحده نايمة . . . آنى فكرت فى الموضوع كويس ، وربنا ماينساش عبده ، لو بعنا الشبكة بكذا ، والقارب بكذا ، نقدروا نفتحوا دكانة فى أيتها حتة فى مصـر ، فى أيها حى ! »

« اللى تشوفه ياسى حموده ، اللى تشوفه ! »
كأنها تقول له « كف عن الحديث ! » . . . فراق الزقاق عند أهله كفراق الحياة سواء بسواء ، لكنه مريض ، صدره عليل ، وحياته على الشاطىء لابد قصيرة ، وما باليـد حيلة . . .

« افرضى جرى لى حاجة ياعطيات . . . افرضى يعنى . . . أسيبكم لمين ؟! »

« اللى تشوفه ياسى حموده . . . اللى تشوفه »
« مش اللى نشوفه . . . لأ ، انتى ايش قولك فى الموضوع ؟! هيه . . . ايش قولك يا عطيات ؟! »

« القول قولك ، أنا وياك منين ما تروح ؟ »
« آنى كنت عارف انك حاتزعلى . . . كنت عارف . . . »
« أبداً وحياة نور عينيك . . . أبداً ياسى حموده »
اختنق صوتها ، وسبحت عيناها فى الدموع ، وزفر حموده وهو يقــول :

« نفتح دكانه ، نبيع لب ، نعمل أيها حاجة ، هو آنى مش راجل ياعطيات ، والعيال دول مش عيالى . . . حكم ربنا وده مقدر ومكتوب! »

« ياترى حا يقولوا ايه ياسى حموده . . . حا يقولوا ايه ؟! »

استدار اليها بغتة وحملق فى وجهها بغضب وحيرة . . . ليقولوا ما يحلو لهم ، لن يترك نفسه فريسة للمرض ، ولن يترك أولاده ليربيهم غيره . . .

« ما يقولوا اللى يقولوه ، حد حاينفعنى لما نروح فيها . . . لو كنتى سمعتى كلام الدكتور كنت عرفتى »

« قال ايه . . . قال ايه وحياة النبى قال ايه ؟! »

لهفتها عليه تبرد نار صدره ، جزعها الصادق يملأ حياته بالسعادة :

« قال لى حاتموت لو قعدت هنا شهرين كمان . . . »

« يا مصيبتى ، ومستنى ايه ياسى حموده . . . مستنى ايه ياخويا ؟ »

سره الرهيب وجد له متنفسا فى النهاية ، علامات الذعر واللهفة والجزع تظهر على وجهها كشمس فى ظهيرة يوم صيف ، الراحة تغمره فيقول فى هدوء :

« يعنى موافقة يا عطيات ؟ »

« إلا موافقة ياخويا . . . إلا كده ، من بكره نسيب الزقاق . . . من بكره . احنا لينا مين غيرك . . . أنا والعيال ما نسواش بصلة من غير نفسك ! »

انهمرت دموعها فغطت وجهها بكفيها وغرقت فى نشيج صامت ، وانسحبت يده فربتت على كتفيها ، ثم جذبها اليه فاستسلمت ، وألقت برأسها فوق صدره ، وتسمعت بأذنها دقات قلبه الرتيبة ، وملأت خياشيمها رائحة أنفاسه المعطرة بالدخان . . .

« آنى . . . آنى خدامتك ياسى حمودة . . . اتوكل على الله ! »

ألقى ببقايا السيجارة على الأرض ، ولف حولها ذراعه الآخر وضمها الى صدره بحنان ، وسوى الغطاء وراء ظهرها فانكمشت على نفسها ملتصقة به كقطة دافئة ، رفع وجهها إليه فغمرته نظراتها . . . ابتسم وابتسمت ، جفف دموعها ومال على خدها فطبع عليه قبلة حانية . . . تسرب الدفء اليهما فازداد التصاقهما ، وهمست عطيات وهى تقبل رقبته ثم تدفن رأسها فى صدره من جديد :

« أخص عليك ياسى حموده ، وكنت مخبى عنى سبع أيام ؟ »

قال حموده بصوت حالم متحشرج النبرات :

« ايش قولك ياعطيات . . . ايش قولك لو تاجرنا فى السمك ؟! »

— ١١ —

همس المعلم محمد محدثاً زوجته وهو يحملق فى الظـلام :

« ايش قولك يا أم محمـود ؟! »

« خير ياخويـــا ؟! »

« عاوز نجـوز الواد ! »

شهقت المرأة فى فرح ، ونهضت فى مكانها وانحنت عليه قائلة بصوت مضطـرب :

« ده يبقى يوم المنى يابو محمود . . . يوم الهنا ! »

« بس آنى خايف . . . خايف نجوزه من هنا ، ويرجع لعوايده من هنـا ! »

ردت عليه زوجته فى سرعة ودون تفكير ، وقد استخفها الفـرح :

« جرى لك أيه ياخويا ، والنبى انت ظالمه ، هو يعنى أقل من مين ؟! »

« ياوليه آنى مش فى كده ، آنى بنقول يعنى أن الجواز يمكن يصلح حاله

ويخليه يهتـدى بالله وينتبه لشغله ، لكن نرجع ونقول نستنى شوية لحد ما نشوف هو حايرسى على آنى بر . . . وبعدها نتـوكل ! »

« والنبى أنت حُر ، حاكم انت لك أحكام »

وعادت المرأة الى استلقائها ، وظلت مفتحة العينين ، لكنها لم تستطيع الصبر فعادت الى الحديث مرة أخـرى :

« بقى يعنى لو مشى كويس ، تقول نستنى عليه لما نشوف حاله ، وإذا راح كده والا كده ، تقعد تشتم فيه وتسود عيشته ، يابو محمود حرام عليـك ! »

وانتـظرت أم محمود من زوجها أن يبادلها الحديث ، لكنه كان غارقاً فى التفكير يقلب الأمر على كل وجوهه ، ومنذ سبعة أيام وهو لايكف عن التفكير فى الموضوع ، وكاد ذات مساء أن يقدم عندما انفرد بالريس صادق لدقائق ، لكن لسـانه تعثر قبل أن ينطق بكلمة وانتابه الخوف . . . حقاً لقد انقطع محمود عن زيارة البوظة أو السهر فيها ، يخرج فى الصباح مزاملاً حنفى فى القـارب ، ويحمل الرزق مع ابنه عمه كل مساء الى الحلقة . ثم يعود اليه بالمـال . . . ويبقى بجـواره لايبرح البيت . . . لكن ، من يدريه الا يعود محمود الى سيرته الأولى ؟!

عادت أم محمود الى الحديث من جديد وفى صوتها رنه غضب :

« بس ياخويا ماهو محمود بقى عال ، اللهم صلى على النبى ، هو يعيبه ايـه ؟ »

فقال المعلـم محمد فى خجـل :

« ياوليه افهمنى ، يعنى نجوزه بت الناس من هنا ، ويروح يرافق عليها من هنا ؟ . . . ده يبقى اسمه كلام مهرضـه ؟ »

« أستغفر الله العظيم ، ياراجل تف من بقك »

« أتف من بقى ازاى ؟ . . . هو اللى يسهر فى البوظه لوش الصبح ت عليه المعصيـة ؟! »

ضحكت المرأة فى سخرية وقالت هامسة :

« اسم الله . . . الله يرحـــم ! »

« قصـــدك ايه ؟! »

« يوه . . . ولا حاجة . . . بس يعنى . . . »

تنحنح الريس محمد فى غلظة ، فكفت زوجته عن الحديث ، ولمعت عين فى الظلام ، وقفزت الى ذهنه ذكريات أيام خلت . . . فقد بعد وفاة الس البلطى صوابه وكأنه كان سجينا طيلة حياته ، فانطلق الى البوظة لايلوى ع شىء ، وعرف فيمن عرف فى تلك الأيام امرأة كادت تلهيه عن حياته ، لك تنبه فجأة عندما فاحت رائحة السيرة وعرفها أهل الزقاق ، فاستغفر ر وتاب . . . ونسى تلك الأيام ولم يعد يذكرها وكأنه لم يعشها ، وحتى لو ذكره عرضا أو ذكره بها لسان زوجته الذى يعرف كيف يطعن فى الوقت المناسب فسرعان ما يحول الحديث بعيدا عنها فينساها ، وتغوص أحداثها الى أعما مظلمة ترقد فيها ولا يظهر لها أثر . . . لذلك قال محولا الحديث فى لباقة وقد رق صـوته ولان :

« ايه رأيك فى زوبـــه ! »

قفزت زوجته جالسة مرة أخرى ، وانتفضت كلماتها بالفـرح :

« ست البنات . . . والنبى يابو محمود فضك من اللى فى دماغك ده واتوكل على الله خلينا نفرح بالـــواد ! »

لم يكن المعلم محمد أقل تلهفا على الأمر من زوجته بطبيعة الحال . فمنذ

تلك الليْلة وفى قلبه نار تضطرم واحساس رهيب بالفناء . . . زواج محمود يلح على قلبه إلحاحاً متصلاً ، كم من مرة نادى فيها ولده وأجلسه بجانبه وهم ان يفاتحه فى الأمر ، أو يسأله لماذا لم يطلب الزواج حتى الآن ، ولولا ارادة قوية ، وعزيمة وصبر وقلة ثقة فى ولده لانتهى الأمر منذ أيام . . . يسعده أشد السعادة أن يرى أحفادا تجرى دماؤه فى عروقهم ، ويشقيه أشد الشقاء ذلك الشك المقيم فى نفسه نحو ولده . . . لم يخدعه عزوف محمود عن سهراته وحياته اياهـا ، فهـو مريض على أى حال وليس محمـود بابن حرام ليتركه ويسهر ، لكنه لن يظل العمر كله فى الفراش ، سوف يسعى الى الرزق غدا أو بعد غد ، ويومها سيبين له الخطأ من الصواب ، والحق من الباطل .

قال لزوجته وهو يستدير مولياً ظهره اياها ، وفى صوته نبرة آمره :

« لمى لسانك ومش عاوز حد يسمع بالسيرة دى . . . الأيام جاية ، والمية تكدب الغطاس ! »

وكان واثقاً أنها ستطيع ، وأن أحدا لن يعلم بما دار بينهما ، فأولاها ظهره ، واغمض عينيه . . . وراح فى النـوم !

— ١٢ —

غادر محمود وحنفى حلقة السمك قبل الغروب بلحظات وسارا متجاورين بحذاء الشاطىء المهجور . . . ذلك الشاطىء الذى لم يسبح فيه قارب ، ولا ألقيت فيه شبكة منذ ابتلعت مياهه جسد السيد البلطى . . . ولاحت لهما على امتداد البصر صخرة رأس التين رابضة تحت أقدام القصر الكبير ، تنطحها أمواج البحر بقممها الزبدية فى زمجرة غضبى ، وما تلبث أن تتكسر عند أقدامها العتيدة فى أنين مكتوم . . . وقد ظللهما الصمت وقتا غير قصير وهما يسيران ، حتى اذا اقتربا من نهاية الطريق ، كان عليهما أن يميلا يسارا ، ويعبرا الشارع ، ثم يدلفا الى حارة السعداوى ، ويخترقا بعدها حى السيالة من الناحية المواجهة للميناء ، ويتركا على يسارهما مسجد المرسى أبو العباس بعد مسيرة دقائق ، ليغوصا فى أزقة وحوار تتشابك وتتلاقى وتتفرع فى غير نظام ، حتى اذا توسطا تلك الكتلة الضخمة المكدسة بالمنازل القديمة المتهاوية ، انثنيا يمنة ويسره فى تعرج مستمر . . . ليصلا ـ بعد دقيقة أو دقيقتين ـ الى زقاق السيد البلطى .

لم يكن ذلك الطريق الذى سلكاه هو أقصر الطرق الى الزقاق ، لكنه كان الطريق الذى تعود حنفى السير فيه فى هذا الوقت من كل يوم ، يدفعه الى رؤية الشاطىء المهجور حنين جارف ، ويظل طوال سيره بجواره الشاطىء ، يعانى من شىء يعبث بنفسه وأمنه عبثاً متصلاً ، يحسه قوياً كبيراً يملأ كيانه ويضغط على أفكاره ، باهر الضوء . . . لفرط وضوحه وجلائه ، لايكاد يعرفه أو يميزه وكأنه يغشى البصر !

هنا غرق أبوه ـ وهو لايصدق بأنه خاوى أو غاص مع جنية الى قاع البحر فى تلك البقعة الرملية شرقاً ، الصخرية غرباً . . . فى مكان ما من هذا الشاطىء المهجور ، كان السيد يقف وسط قاربه ، يطرح الشباك ويجذبها ، ويحمل الرزق الى بيته وآلـه !

هنا مات أبوه ـ ولابد أنه مات ـ واختفى ، حتى جثته لم تلفظها الأمواج ولم تلق بها الى الشاطىء ، بل ابتلعتها وطوتها واذابتها فى أعماقها فلم يعد منه أثر .

هل يستطيع أن يعيد السيرة مرة أخرى ؟! . . . أن يقسم الشاطىء ويختار لعائلته تلك البقعة المهجورة . . . قلبه يفيض بالحماس والحب لتلك الأفكار ، أما عقله ؟ . . . عقله الغريب يتمرد ويرفض ويقول لماذا ؟! . . . حنينه الى الشاطىء أمره غريب ، ينمو فى نفسه يوماً بعد يوم ، وكلما لامست عيناه رماله ومياهه تدفق الحنين الى نفسه تدفقاً هادراً وكأنه ينبع من منبع فياض . . . ما إن يرى الصخرة حتى يتوقف ـ بالرغم منه ـ ويلقى ببصره الى الأفق البعيد متمنياً ـ فى ألم ـ أن يطل عليه وجه أبيه من جوف المياه . . . فى ذلك الوقت من كل يوم ، عندما يلامس قرص الشمس حافة الأفق البعيد ، يحلو لحنفى أن يجتر ماضياً لم يعشه ، ماضياً مجيداً مليئاً بالعز والقوة والسلطان ، ويتملى حاضراً مهلهلا مهددا ، ويستشف خلال أحداث الأيام

ما سيكون عليه المستقبل . . . ويعود دائماً منكسر الخاطر . . . ويظل الشاطىء مهجوراً !

ما الذى يريده بالتحديد ؟!

سؤال محير لايعرف له جواباً ، ببساطة يريد العز والقوة والسلطان ، يريد أن يزوج عائشة ، وأن يتزوج زوبة ، وأن يشفى حمودة ، وأن يجد كل رجل فى الزقاق رزقاً يقيم أوده ويملأ بطون أولاده ! . . . وماذا بيده أن يفعل ؟! . . . هل كتب عليه هذا التيه الى مالا نهاية ؟!

« جرى ايه ياحنفى ؟! . . . سرحان فى أيه ؟ »
« هيه ؟ »

عندها فقط تنبه لوجود محمود . . . ماذا لو حدثه بأمر حيرته تلك ، حقاً أنه يختلف عنه فى كل شىء ، لكنه ابن عمه قبل هذا وبعده ، هو الآخر يعيش فى عالم لايمت الى عالمه بصلة . . . ما الذى حدث للعائلة ؟ . . . هل أصابتها عين ؟! . . . الفقير فيهم يزداد فقراً ، والغنى يزداد بعداً ، واللقمة فى فم هذا ليس لغيره نصيب فيها ! . . . واقع لاجدال فيه ، حديث الناس عنهم أحلام غير متحققة ، يجمعهم زقاق ضيق ، ويلجأ كل منهم الى الآخر ويحمى كل منهم الآخر ، هذا حق ، ولكن ، أهذا كل مايجب ؟! . . . فيهم من لايكاد أحد أن يراه إلا فى الملمات وكأنه غريب ، ومنهم من اشترى بدل القارب قاربين ، وبدل الشبكة شباكاً كثيرة . . . وبعد أيام أو شهور لن يصبح للقارب أو الشبكة قيمة عندما تأتى سفينة عبد الموجود حمدان وقد كثر الحديث عنها . أين الرجال فى العائلة ؟! . . . وأين الرجال على الشاطىء . . . رفع بصره الى محمود واختطف من وجهه نظرة ثم تساءل : هل كتب عليهما أن يحملا العبء كله ؟ . . . محمود ليس صياداً ، وهنا

المصيبة ، ولن يكون صياداً . . . يوم أو يومان وتعود ريمة الى عادتها القديمة ، ويعود محمود الى البوظة وكايداهم .

لا . . . لن تعود سيرة أبيه ، فليس الزمن كالزمن ، وليس الناس كالناس ، والشاطىء أصبح مهجوراً !

* * *

ذات ليلة ثقلت عليه الحيرة فخلع ملابسه وألقى بجسده الى المياه ـ أكان مجنوناً وقتها ؟ ـ وظل يسبح ويتوغل غير عابىء ، كان القمر بدراً ونوره يفرش سطح المياه فى وداعه ، لكنه لايغوص الى أعماقها ، بل يبقى مستلقياً على السطح لايتعداه ، أراد أن يستشف ما فى أعماق البحر من أسرار ، كلت ذراعاه ولم يكف عن السباحة ، ألقى بنظرة الى الوراء فوجد الشاطىء بعيداً ، جال ببصره حوله فبدت له الدنيا خلاء إلا منه ، الصخرة مخيفة هائلة ضخمة . . . جاشت نفسه وتذكر أباه وتمنى لو أنه لم يمت حقاً كما يقولون . . . فصرخ بكل قواه :

« يابا . . . ياسيد يابلطى ! »

ردت اليه الصخرة صدى صوته من جديد ، فعاد الى النداء واجف القلب مستنجداً ببقية أمل . . . الموتى يستدلون على أجسادهم بالقبور ، وأبوه لاقبر له ولا جسد . . . ترى أين هو الآن ؟! . . . أكان فى جوف سمكة اصطادها وباعها فى الحلقة وأكل لحمه الناس ؟!

« يابا . . . ياسيد يابلطى . . . يابا . . . يابا . . . يابا . . . »

وخرج يومها من المياه والحزن يعتصر قلبه ، لكنه كان مرتاحا وكأنه أدى واجباً . . . وعاد الى الشاطىء ليالى أخرى ، ونادى على أبيه فيها . . . وهو

موقن أنـه مات . . . مات . . . مات . . . فماذا يريد ؟! . . . ولماذا يعود دائماً ، ويسبح ويتوغل فى المياه وينادى ؟!

* * *

لاحت لهما مئذنة المرسى أبو العباس وقد هبط الظلام وأضيئت المصابيح ، فخطر له خاطر . . . لماذا لايذهب الى بوظة حسين شلوفة ؟! . . . اجتاحته على الفور رغبة فى مجالسة الصحاب ، ضحكة من هذا وبوظة ودخان وموال ويغرق القلب والعقل معاً فى خدر لذيذ ، لكنه لايفقده وعيه ولا وقاره . . . قال فى سرعة وكأنه يخاف التعثر :

« رايح فيـن يامحمـود ؟! »

« البيت ياحنفى . . . يعنى حانروح فين ؟ »

« ماتيجى نروحوا عند شـلوفة ! »

« لأ !! »

قالها محمود فى اقتضاب وسرعة وكأنه يبعد عن نفسه شبحاً مخيفاً ، فلاذ حنفى بالصمت .

لم يحدث أن اجتمعا على شىء الا فيما ندر ، ولم يكن اختلافهما مثار شجار أو كراهية ، على العكس ، كان كل منهما يكن لصاحبه حبا عميقاً ووداً يصدر عن احساسهما بأخوة لاتنفصم . على أنهما قد أحسا ذلك الاختلاف بين طبائعهما ، فترك كل منهما صاحبه لحياته دون اعتراض أو تذمر . . . طالما سهرا فى البوظة سويا ، لهذا صحابه ولذاك أصدقاؤه ، فإذا صادف وغادراها فى وقت واحد ، أتجه كل منهما ناحية ، وسلك طريقاً مختلفاً . . .

عند التقاء شارع وكالة الليمون بحارة نور الصباح افترقا . . . انثنى حنفى الى اليمين متجهاً نحو شارع البحرية فباب الكراسته ، وغاص محمود فى ظلام الحارة غارقاً فى صمت حزين . . .

— ١٣ —

عندما دلف حنفى إلى بوظة حسين شلوفة ، كان كل شىء فيها يقارب الوصول إلى ذروته . . . سحب الدخان انعقدت فى سماء المكان ، والموائد صفت متجاورة بالقرب من الجدران فى استدارة ، حولها مقاعد مستطيلة تلاصق الرجال فوقها وتزاحموا . . . والمعلم جمعة تصدر المجلس يحيط به الشعراء والمعجبون . . . لكن مقعد كايداهم كان لايزال شاغراً ، يجلس حوله الطبال والزمار فى انتظار واستكانة . . .

القى حنفى بالتحية على الرجال ، فهللوا صائحين :

« ألف مسا . . . أمال فين محمود يامعلم حنفى ؟! »

نفس السؤال الذى ألقوه عليه بالأمس وأول أمس وكل يوم منذ غاب محمود عن البوظة . . . ولم يجد حنفى جواباً سوى هزة من كتفيه ، وكلمات قالها وهو يبحث لنفسه عن مكان :

« قلت له ييجى ، مرضيش ! »

صاح المعلم جمعة فى أســى :

« دول سبع ليال النهارده ياجدعان ، سبع ليال ومحود غايب عنا ، حد منكم زعله ؟ . . . البت عملت له حاجة ضايقتـه ؟! »

وراح يجول بعينيه فى الوجوه متسائلاً ، غير أنه لم يظفر بغير الصمت جواباً فهز رأسه فى أسى وهو يرفع كوز البوظة إلى شفتيه فى نهـم .

وسرعان ما عاد كل شىء الى حاله ، انتحى حنفى ركنا منزويا وراح يرقب الجـالسـين فى صمت ، وارتفـع صوت حكشـه بائع لحمة الرأس منادياً : « يامسهـل ! » . . . وخاضت نفيسة بائعة الترمس بين الرجال وهى تلقى عليهم النكات وتحضهم على الشراء بكلمات مفضوحة ، ثم صرخت ضاحكة من قرصة لدغها بها رجل لعبت البوظة برأسه . . . والكيزان تفرغ لتمتلىء من جديد . . . وكايداهم تدلف من باب المكان ملتفة فى ملاءتها ، فتعلو الصيحـات مرحبـة عابثة . . . وينهض اليها الشاطر الطبال وزين الزمار ، وتسابقا فى حمل الملاءة التى ألقتها عن جسدها فى دلال ، ليظهر ثوبها الفاقع اللون وقـد انعكست على سطحـه أضواء الكلوبات الباهرة ، وتموجت مع استدارة ردفيها ونهديها وبطنها . . . ناداها رجل فردت عليه بابتسامة ، زعق آخر بصوت ثمل :

« ياريتنى ملايـة لف ! »

فرنت ضحكتها وجلجلت ، ثم ردت عليه عابثة :

« بس يادايب ! »

ضج المكـان بالضحـك والتهليل ، واتجهت كايداهم الى مقعدها وهى تجول ببصرها فى الوجوه ، وما إن استقرت فوق المقعد حتى مالت الى الوراء ، فمال نحوها الشاطر وزين فى عبودية وتبتل ، وسألتهما كايداهم فى همس :

« برضه مجـــاش ؟! »

« لا والله ياست كايداهم ! »

لمحت حنفى فألقت عليه التحية ، ورد حنفى تحيتهـا فى اقتضاب وهو يدفن نظراته فى كوزه ، وعادت تميل الى الخلف وتسأل :

« حنفى ماقالش حاجـة ؟! »

فقالا فى وقت واحـــد :

« بيقول أنه مارضيش ييجـى ! »

ظللت وجهها سحابة من كآبة ، لكن تقاطيعها سرعان ما ابتلعت تلك الكآبه عندما صاح أحد الرجال طالبا احدى رقصاتها . . . فابتسمت فى دلال وهى تتناول السيجارة التى امتدت بها يد حسين شلوفة ، ونقر الشاطر فوق طبلته ، وصفق المعلم جمعة بكفين هائلين وهو يصيح :

« والله لازم ألَيّل معاكى ياكايداهم ! »

وصاحت كايداهم بمرح لتحية المعلم جمعه ، قائلـة :

« تعيش ياســيد الكل . »

وصفق البعض فى انبساط وهم يستديرون فى أماكنهم نحو جمعه ، وصفق اخرون طالبين كيزانا أخرى ، وراح الجميع يتصايحون فى انتظار الغنـاء .

وقـد مضت سنوات طويلة لم تعرف فيها بوظة حسين شلوفه الشعر ولا قائليه ، ثمة مواويل تطلقها حناجر الرجال بعد أن تثقل رؤوسهم وتتمايل من الانسجام حينا ، ومن عدم السيطرة عليها فى غالب الأحيان . . . وبصرف النظر عن حلاوة الصوت أو قبحه ، كانت المواويل هى ألذ ما يمارسه الرجال حول كيزان البوظة .

حتى جاء جمعة ذات ليلــة .

جاء وحيداً وألقى التحية على الرجـال فردوها ، كان غريباً فلم يعيروه اهتماماً ، جلس فى أحد الأركان وأخذ يشرب فى سكون ، ظل يجرع كوزا وراء الآخر ، ويلتهم حبات الترمس وعيدان الجرجير فى نهم ، ويشترك فى الحديث من بعيد بكلمة أو كلمتين ، حتى اذا انتصف الليل كان الحديث قد جمع بينه وبينهم ، فانتقل من مكانـه وجلس معهم . . . وكان لابد للانسجام من بلوغ ذروته ، وذروة الانسجام هى الغنــاء !

وعلى غير انتظار لعلع صوت جمعة . . . انطلقت حنجرته بموال صمتت له كل الحنـاجـر ، وأرهفت لسماعه كل الآذان . . . وبهت الرجال وذهلوا لحلاوة صوتـه ، كان صوتـاً رخيماً عذباً ينسال فى سهولة بجرس يجلجل فى سعادة حزينة . . . وكان يقول الشـعـر !!

وسرعـان ما ذاع الخـبر فى الحى ، وانتشر بعـد أيام ووصل الى الأحياء الأخـرى ، فتـوافـد الشعـراء من كرمـوز والأنفوشى وكوم الدكة ، وعرف الكثيرون الـطريق الى بوظـة شلوفـه . . . وحول الكيزان سالت دموع ، وجلجلت ضحكـات . . . وحـول جمعة التف الشباب فى انبهار ، وراحوا يلتقـطون الأبيات من بين شفتيه ليرددوهـا فى كل مكان . . . وكان محمود البلطى أحـد أولئك الذين سحرهم شعر جمعه ومواويله . . . بهرته الدنيا الجديدة واجتذبته إليها بقوة لا تقهر . . . وأصبحت كلمات جمعة هى البلسم الذى يبرد نار قلقة وحيرته وعذابه ، فحفظها عن ظهر قلب ، ورددها مرات ومرات . . . وغنى ذات ليلة لعبت فيها البوظة برأسه ، فهلل له الرجال فى حماس ، ورأى كايداهم فسلبته لبه ، وأطلق الشعر دون أن يعى ، فاحتضنه جمعة وقربه اليه . . . فغنى وأشعر وأطلق من قلبه آهات كانت تتلوى على لسانه راقصة دامعة . . . وقربه جمعة من مجلسه ، وانضم فى ليلة الى الشعراء

وحاجاهم بأبيات ، وأصبحت البوظة هى ملجأه الوحيد . . . وطبع الحزن أشعاره فتعلق الرجال به ، واستعذب هو الحزن فرافقه فى غير تذمر !

وقد ظهر محمود فى تلك الليلة عند باب البوظة فجـأة . . .

كان زائغ العينين ، منبهر الانفاس ، شاحب الوجه ، متسمرا فى مكانه متطلعاً الى الداخل بنظرات شرهة غير مستقرة ، كأنه يمتص بعينيه كل ما تضج به البوظة من حياة ، ولمحه جمعة فصرخ بكل صوته وهو يفرد ذراعيه فى الهواء ويقفز من مكانه :

« مين ؟! . . . محمود البلطى ؟! يا ألف مرحب ! »

تحولت الـرؤوس كلها نحو الباب ، وتوقف كل شىء للحظة ، وصاح جمعـة مرة أخرى وهو يضم صديقه الى صدره ، ونهض الرجال مرحبين ، ورفـع حنفى عينيه الى محمـود وعـلى وجهه ابتسامة حنون . . . ولم تتحرك كايداهم من مكانها !

بدا محمـود مرهقـاً مكـدودا ، ارتسمت على تقاطيعه علامات حيرة وألم دفـين ، صافح الرجال فى ود ، والتقت عيناه بعينى كايداهم فارتعد . . . تقدم منها فى خطوات بطيئة ومن حوله الرجال . . . حتى إذا أصبح على بعد خطوة نهضت اليه ، فتوقف عن السير ، وجاءه صوتها عبر الضجيج والصخب :

« سلامتك ياسى محمـــود . »

« تسلمى يا كايداهم ، الله يسلمك ! »

« ليه غبت عنا المدة دى ؟ »

« الغايب حجته معـاه ! »

« واللى له حبيب ينسـاه ؟! »

ضج الرجال بالضحك ، وصاح جمعة فى مرح :

« كايداهم بتقول شعر ياجدعان . . . عليه العوض ! »

فرد عليه رجل وهو يرفع كوزه الممتلىء الى شفتيه :

« اللى يدوق لدعة القلب يصبح نبى . . . عقبالنا يارب ! »

جرع حنفى كوزه دفعة واحدة ، والتقط من فوق المائدة حبات من الترمس أخذ يلقى بها الى فمه فى سرعة ، والتقت عيناه بعينى محمود مرة أخرى . فصاح فى عصبية وكأنه يخمد بصياحه بركاناً فى أعماقه :

« ألف مرحب يامحمود يابن عمى . . . آنى مش قلت لك تعالى ، قلت لى لأ يابن الناس ؟! . . . »

كان شيئاً غريباً أن يتحدث حنفى ، وكان الأغرب منه أن يصيح . . . لذلك ، فقد حملق محمود فى وجه ابن عمه غير مصدق ثم ابتسم عندما صاحت كايداهم :

« حنفى البلطى اتكلم ياجدعان . . . ميت فل ! »

فصاح حنفى مدافعاً عن نفسه :

« نعملوا ايه ياكايداهم ، ماأنتى تنطقى الحجر ! »

وصرخ رجل فى مرح وكأنه ضبط حنفى متلبساً بجريمة :

« حاسب ياجدع ، دى رفيقة أخوك ! »

وجذب جمعه محمود الى جواره قائلاً :

« ليلتنا أنس يارجالة . . . والنبى ليلتنا أنس ! »

ثم ربت على كتف محمود فى ود وحب وهو يقول :

« سبع ليالى ياجدع ، سبع ليالى تغيب فيهم عن أحبابك ؟ . . . سبع ليالى يامحمود ؟! »

وجلس محمود بجوار جمعة ، وعاد الرجال الى أماكنهم ، وشحن الجو بشحنة هائلة من النشاط ، كل شىء كان يبدو بهيجا فى تلك اللحظة ، حتى حنفى انتابته نوبة عربيدة من سعادة كأنها ضياع ، فحمل مقعده بيمناه وكوزه بيسراه واقترب من جمعة وجلس أمامه وهو يصيح :

« ملعون أبو الدنيا ، محدش واخد منها حاجة ! »

وتعالت الانغام فجأة فى موجات هادرة صاخبة . . . وغنى جمعة ، وانداح صوته ساريا كالمخدر ، وألقت كايداهم بسيجارتها الى الأرض وسحقتها ، وتعالت نقرات الطبلة متموجة راقصة ، فتراقص معها نغم المزمار فى نشوة ، وصفق الرجال وعلت وجوههم سعادة كأنها الغضب فى وحشيتها ، واهتز جمعة فى مجلسه ، وجذبت كايداهم الشال من فوق كتف زين وهى تنهض متقصعة ، ثم لفته حول وسطها وانزلقت على أرض المكان بقدمين طائرتين وجسدها يهتز ويترجرج ويتراقص فى سرعة وحذق ، وتلاقت الأكف فى تصفيق منتظم ، وغنى جمعة : « ياليل » ، واندفعت كايداهم تميل على الرجال وتجذب شواربهم فى عبث وتنثر عليهم بسماتها ومداعباتها فى سخاء . . . وحمى وطيس الرقصة ، وحميت الأكف فى تصفيقها ، كما حميت الطبلة فى نقراتها والمزمار فى أنغامه وجمعة فى لياليه . . . وسكر الرجال بخمر السعادة ، تمايلوا وشربوا وتصايحوا وصرخوا وكأنهم تحولوا الى مجانين . . . ودارت كايداهم حول نفسها ، وهزت صدرها ووسطها ، وراحت وجاءت ، وشرب محمود ، وشرب . . . ثم شرب كأنه يسابق الزمن ، وبدت البوظة وكأنها جمرة ملتهبة ، وكلما انتهى نغم طلبت كايداهم نغماً آخر . . . انثنت فى تمايلها واختطفت كوز البوظة من أمام محمود ، وضعته فوق جبينها وهى تميل الى الخلف ، وراحت تتمايل وتتراقص ، وجسدها ينثنى ، ويتثنى . . . وشعرها تهدل حتى لامس الأرض ، وما لبثت أن رفعت الكوز من مكانه

وقربته الى شفتيها ، وأخذت ترشف ـ كالمعجزة ـ من البوظة على مهل ، بينما وسطها يترجرج ويهتز ، وعيناها لا تتركان عينى محمود وكأنهما شدتا اليهما بخيوط لاتنقطع . . . وتصبب منها العرق ، وسال على وجهها وجيدها وانزلقت قطراته فوق صدرها . . . ومضت الدقائق ، وبرقت فى عينها نظرات نشوانة عربيدة . . . ثم توقفت .

وتوقف الجميع وراحوا يلهثون فى أنفعال !

وجلست كايداهم بجوار محمود . . . وتصاعدت رائحتها الى أنفه فغيبته عن وعيه . . . راح يجول ببصره فى المكان غير مصدق ، واضطرب قلبه وتراقص . . . ضياء ووجوه وناس ودخان . . . طعم البوظة اللاذع يرد اليه الروح ، فيبتسم ، وتغيض ابتسامته عندما يتذكر ما قاله رجل لحنفى « حاسب ياجدع ، دى رفيقة أخوك ! » . . . لايدرى الرجل ما قالته له « أنت زى أخويا يامحمود ، عمرك ما خليتنى أحس أنك راجل زى بقية الرجالة ، كنت دايماً حنين وقريب منى ، زى أخويا ، أبويا . . . ! » . . وعبثا يحاول أن يعيد الى شفتيه ابتسامتهما . . . راح يفكر فى صراخ محموم لا يسمعه سواه : « حرمت على من دون الرجال جميعاً ، الأنى أحبها ؟! . . . عجب ! . . . رضخت للحرمان دون مجادلة أو تذمر . . . ألأنى أعشقها ؟! . . . ما أشد العجب ! . . . لو طلبت منها روحها لما ضنت بها علىّ ، فى عينيها نداء صارخ فكيف ألبيه ؟ . . . كيف ؟ . . . فى قلبى حب لم يحمله قلب رجل من قبل . . . وحنانها ؟ . . . أليس برهاناً ؟ . . . لمسات يدها ليدى ؟ . . . نظراتها ؟ . . . كل هذا يغرقنى فى فيض من اللذة والألم معاً ، لكن حبى يعذبنى ويكوينى ولا أعرف له دواء . . . هل من حل !؟ . . . هل من دواء ؟ . . . فلنسأل جمعة :

وطبيب أريد أسألك عندكش دواء ينطال

للمغرم اللى عامل كفوفه للدموع منطال ؟!

بدأت المحاجاة بينى وبين صديقى وأستاذى ، توتر الرجال وران السكون العميق على المكان ، تحملق فينا العيون كجمرات ملتهبة ، المرجل السحرى يغلى فى أعماقى ويتصاعد منه البخار الى ذهنى شعرا . . . الأنفاس تفح فى قلق وكأنها تنفث فى الهواء لهباً ، المعلم جمعة يرفع القرعة إلى شفتيه استعداداً ، وحنفى . . . حنفى يشب برأسه فى لهفة وعلى وجهه علامات ألم طافح . . . حتى أنت ياحنفى ؟! . . . ما الذى يؤلمك يازين الصيادين ؟! . . . وانداح صوت جمعة :

يامحمود أصبر ، ياشيخ دا الصبر للأبطال
منين أجيب لك دوا ينشف عليك دمعك
من كتر نعيك على أحبابك تقل سمعك
قوم اسأل المولى قادر على جمعك
من غير حبيبك جميع الطب لك بطال !

أعرف هذا ياجمعة وأدريه وأعيه وأتعذب ، لوعتى يارجال تكفى عشرات منكم لتكونوا أعظم المحبين ، رأسى يدور بنشوة غابت عنى أياما بطول سنين ، قاومت كثيرا كى لا أعود اليكم ، لكنى لم أستطع ، كدت أختنق بحنفى بعد أن تركنى بثوان ، جلست مع الرجال فى الزقاق فكدت أختنق حديثهم جاف ثقيل ، ووجوههم صارمة جامدة مهمومة . . . انطلقت فجأة كالمجنون وكأنى أحطم قيودى . . . كنت أعدو فى الطريق كالعطشان يبغى نبع ماء عذب . . . لاحت لى البوظة من بعيد كشاطىء يسعى اليه غريق . . . ضجيجكم وصراخكم حبيبان إلى قلبى ، جسد كايداهم ملتصق بجسدى . . . ورائحتها تملأ صدرى . . . حبى مرض لا أدرى كيف ولماذا أصبت به ؟ . . . أصرخوا وصيحوا وصفقوا وأفغروا أفواهكم وعبوا

من البوظة وأحملونى على سحابات اللذة لأرتع لحظات فبعدها حرمان . . . أبى وأمى وأهلى فى حاجة الىّ ، وأنا أحبهم ، وأحبكم ، وأتمزق بينهم ، وبينكم . . . !

كايداهم تنهض من جوارى لامرأة تقف عند الباب ، تخطف الملاءة من زين وتختفى فى الظلام قائلة أنها ستعود . . . كلكم تعرفون هذه المرأة كما أعرفها ، جميعكم تعلمون أنها ذاهبة لتقدم جسدها لرجل غيرى ، زبون لابد وأن يكون له شأن والا لما تركتنا ! . . . هل أنا رجل كالرجال ؟! . . . من منكم يحس ما أحس به ؟ . . . كلكم تنظرون الىّ فى ترقب منتظرين انشادى وأبياتى وشعرى ، دموعى قريبة تكاد تطفر من فرط اللذة والألم والخزى جميعاً . . . أسقونى أولا ، هكذا ، ثم خذوا انشادى لعلكم تشعرون :

ما تلومونيش ياناس ، أنا لى حبيب غايب
قاعد معاكم لكن عقلى الذكى غايب
ان مت يااخوان والا صابنى صايب
أبكم بحرقة ، وشيلوا جسمى برتايب

حنفى ينهض كأن ثعباناً لدغه ، وجهه وهو يمضى ينطق بها لا أعرف ! . . . أنى لك ياحنفى أن تفهم الحب ؟ . . . كيف تعرفه وقد شببت فى زقاق السيد البلطى ؟ . . . والدك أسطورة يا ابن عمى يتغنى بها الناس على الشاطىء ، وأبى عجوز كادت المياه أن تبتلعه لولا رحمة الله ! . . . ولو مات لما قالوا أنه تزوج جنية ، فهو لايصلح ! . . . وراءك ماض هائل تستند اليه وتفاخر به . . . شاطىء مهجور تقف أمامه كل غروب وتتأمل مياهه فى عشق ، أتحسبنى غافلا عما تفكر فيه ؟! . . . انك تريد أن تعيد السيرة وتبدأ القصة من جديد ، تسير الآن فى ظلام الطريق جامد الملامح سريع الخطوات ، ستصحو فى الصباح كعادتك وتسبقنى الى الشاطىء . . .

سيخرج أبى معنا غداً أو بعد غد فلن يطول رقاده ، لن أسلم من لومه وتقريعه . . . أحس كأنى طائر فى الهواء معلق لا أرض لى . . . خذونى يارجال فى أفواهكم ، أغمرونى بصيحاتكم ، أنسونى حبيبة القلب التى تتمرغ الآن فى أحضان غيرى . . . أنشد ياجمعة أبياتا تشفى غليلى أو تزيد من النار المشتعلة فى ضلوعى . . . أصرخوا وأضحكوا وضجوا وصموا آذانى فما عدت أحتمل !

— ١٤ —

أهـــو جنـون ؟!

ليكن . . . أصبحت لاتطيق ، صدرها يجيش بها لا يستطيع أن يتحمله انسان ، مضى عليها اليوم تعسا قلقاً ، ونهشت التعاسة والقلق أعصابها بلا رحمة . . . أكثر ما تخافه أن يزجرها . . . أن يهملها أو يحتقرها ، وحتى لو فعل ، فالتضحية رخصية مهما دفعت . . . غير أنها لم تعد تستطيع الصبر .

نام أبوها ، ونامت أم حنفى وعائشة ، وسكنت الحركة فى الزقاق كله ، وعم الظلام وكثف حتى لم تعد ترى كفها الذى بسطته أمام وجهها .

غادر حنفى والرجال زقاقهم فى الصباح ، وذهبت لتجلس مع خالتها وابنة خالتهـا وبـين كفيهـا كوب الشاى ، جلست معها وتحدثت اليها ، وراح الحـديث بينهن وجـاء ، وثـرثـرن فيما يقوله الرجال عن سفينة عبد الموجود حمدان ، والمستقبل المخيف الذى ينتظر رجال الشاطىء . . . وقالت من وراء ذهنها ما سمعته من أبيها : « ده كلام فارغ ، دول الرجاله اللى غاويين لت

وعجن ، ومنين عبد الموجود يجيب تمن مركب زى دى ؟ . . . أبويا قال كده ياخالتى ! »

غير أن سفينة عبد الموجود حمدان لم تكن هى التى تشغل بال خالتها فى ذلك الصباح ، كان هناك شىء آخر راحت العجوز تلوكه فى ذهنها وتعبر عنه بكلمات غامضة ، كانت كمن يكتم فى صدره أمراً رهيباً لايريد البوح به ، على أنها سرعان ما انفجرت بلا تحفظ تبكى وتنوح وتبوح بما يخيفها ، وهى مؤمنة أشد الإيمان أن حنفى خاوى جنية مثلما فعل أبوه . . . انقبض قلب زوبة رغم قدم الحـديث ، وبهتت عائشـة لبكـاء أمها ورعبها البادى على وجهها ، وراح الحديث ينزلق بين ثلاثتهن ، وكل منهن تحفر له مجرى يلائم هواها . . قالت أم حنف أن زوجها جاءها فى المنام وقال : « ابعدى ابنك عن الجنية ! » ، وكل شىء يؤكد مخاوفها وقلقها : « أمال مش عاوز يتجوز ليه ؟! . . . المهر جاهز ، والعرايس على قفا من يشيل ! »

وتساءلت زوبة بينها وبين نفسها : « حقاً ، لماذا لايتزوجها ؟ . . . هل عائشة هى السبب الوحيد ؟ . . . هناك علامات ! نظراته ، صمته العميق ، رأيه الصائب ، قوته . . . ثم ، من أين يتأتى هذا لرجل أن لم يكن قد خاوى حقاً ؟! »

وكان شيئاً رفعها الى السماء ، ثم ألقى بها الى الأرض فتصدعت ، أحست كأن روحها قد فارقتها ، وانتابها الرعب ، وأمه تقول فى ولوله :

« عملها ، عملها زى ما عملها أبوه ، واحدة من أياهم رابطاه ، ياحسرتى ! »

تشـاغلت أصـابع زوبة بأطراف شالها وهى ترجف ، وقالت عائشة فى لهجتها القاسية المريرة :

« مش بعيد والنبى يعملها ، ماهى عيلة البلطى مبليـة ! »

وصاحت زوبة بلا وعى :

« فال الله ولا فالك ياعيشة ، تفى من بقك ياختى ! »

فردت عليها عائشة فى جبروت :

« أمال مش عاوز يتجوز ليه ، هو مش راجل زى الرجالة ؟ »

وأرخت زوبة عينيهـا أمـام نظرات عائشة الغامضة القاسية ... هل كشفت سرها ؟! ... هل عرفت أنها تحب حنفى ؟! ... رفعت اليها عينين مبللتين بالدموع ، لكنها وجدت عينى عائشة فى انتظارها ، ولم تعد تحتمل ، فنهضت متعثرة لاتلوى على شىء .

* * *

ومضى النهار ولم يأت ، وجزء كبير من الليل ولم تدب قدماه على أرض الزقاق ... وكانت قد قررت فى نفسها أمرا . ليكن ما يكون ، ليحدث ما يحدث ، لتنطبق السماء على الأرض ، لكنها ستسأله أن كان قد خاوى حقـا ؟

عند الضحى كانت جالسة فى وجوم عندما وجدت عائشة تقف فوق رأسها كالسيف وهى تقول فى دهـاء :

« اللى واخد عقلك يتهنى به ، بانادى عليكى بقالى مدة ! »

انكشفت المستور وتعرى ، حقيقة مشاعرها تصرخ فى كل من يراها ، وحقيقة مشاعره هو لم تعد مجالا لشكها ، ولكـن ...

لم يرها فى الصباح وهو يغادر الحجرة ، وعندما خرجت الى الفناء وجدته واقفـا عنـد باب البيت فى انتظارها ... شبكته على كتفه ، ولا ستة فوق

راسه ، وعيناه تحملقان فيها بجسارة ، خفضت عينيها وقلبها يرقص فى طرب :

« صباح الخير ياسى حنفى ! »

لم يرد التحية ، وتحركت شفتاه فى قلق ، وأحست ـ ولا تدرى كيف ـ أنه يريد أن يقول شيئاً ... تقدم منها خطوة ، واقترب منها وهو يرد تحيتها بعد طول صمت ، ثم اعتـدل فى وقفتـه وهم بالحديث ، لولا أن هوى صوت عائشة فوق رأسيهما كمطرقة شيطان :

« الله ، أنت لسة ماتوكلتش على الله ياخويا ؟! »

وأفلحت اللئيمة فيما أرادت ، جعلته يفر من البيت كمن تلاحقه النار ، استدارت اليها فلمحت على وجهها ابتسامتها الصفراء الساخرة ، فابتسمت دونما رغبة فى الابتسام ، وقالت كأنها تستجلب رضـاها :

« ربنا يحميه لك ياعيشـة ! »

مصمصت عائشة وهى تقـول :

« يحميه لى أنا لوحـدى ؟! »

« يحميه للزقاق كلـه !! »

وغادرتها وفى قلبها ثورة ظلت تزداد اضطراما لحظة بعد أخرى ، ما الذى كان يريد أن يقوله لها ؟ ... خمنت ، وقلبت الأمر على كل وجوهه دون أن تستقر أو تهدأ ، خيل اليها أنه سيقول لها : « باحبك يازوبة » ... وأحياناً أخرى تخيلت أنه سيقول : « أنا رايح لأبويا صادق بعد الطرح طوالى » ... ثم قالت خالتها ماقالت ، وقالت عائشة ما أرادت ، وأحست أنها تهوى الى قرار مظلـم .

ومضى النهار كأثقل ما يمر نهار ، غسلت وطبخت وثرثرت وزارت وعادت وكانت تنتظره فى كل دقيقة لتسأله ، وستسأله !

الليل ساكن بارد ، وشخير والدها يملأ الحجرة ، والباب مفتوح نصف فتحة ، وعيناها محلملقتان فى الظلام ، وأذناها تتسمعان حديث الريح وتنتظران بلهفة دبات قدميه ، وما إن تسمعها حتى تنهض إليه وتلتقى به فى الفناء . . . و . . . وليحدث بعدها ما يحدث !

هل نامت عائشة ؟! . . . .
أهذه خطواته ؟! . . . نـ . . . نـ . . . نعم ! . . . نعم هى !

عنفت دقات قلبها حتى أوجعت صدرها ، ونهضت كالملسوعة وقد توترت كل أعصابها ، لكنها تسمرت فى مكانها كأن قوة تشدها الى الأرض ، واقتربت الخطوات واقتربت ، ثم خفت سرعتها ، وصر باب الطريق ، واندفعت كالمجنونة !

* * *

حدث كل شىء دون أن تدرى وكأن هناك من حملها وألقى بها فى أحضانه !! . . . مرة واحدة وجدت ذراعيه تضمانها الى صدره فى قوة . . . فجأة تحققت كل أحلام يقظتها ومنامها ، اللحظات التى سبقت ذلك سقطت من عمرها ، ولا تدرى أهو الذى همس :

« زوبه ! »
« سى حنفى ! »

وساد الصمت الا من أنفاسها وأنفاسه ، أرادت أن تتراجع مبتعدة عنه فاقتربت حتى ألتصقت به أكثر . . . كان جسده ملتهباً ، وكانت ترتجف فى عنف ، وخافت ، غير أن شفتيه بددتا كل خوف .

جذبها الى الحجرة الخالية فى طرف الفناء ، فانقادت له بلا تفكير . . . ليصنع بها ما شاء . . . قبلها بجنون أفقدها الوعى فتعلقت بعنقه فى الظلام وراحت تغمره بقبلاتها ، سقطت شفتاه فوق أنفها وعينيها وجبينها وشعرها وشفتيها .

« سى حنفى ! »
أهذا صوتها أم صوت قلبها ! . . . أصابعه مغروسة فى لحمها ، ليته يغرسها أكثر . . . ما أعذب أن تتألم من فرط قوته ، خارت قواها ولم تعد تستطيع الوقوف فترنحت ، ارتجفت ساقاها وتهاوى جسدها بين ذراعيه . . . ما ، ما الذى حدث ؟!

« سى حنفى . . . أخص عليك ! »
الغريب أنها تتدلل ، بل وتبتسم !

سقط الحجاب واحترق وتبخر وكأنه لم يكن ، ماذا سيقول عنها بعد ذلك ؟! . . . ليقل ما يحلو له ، ليظن فيها الظنون ، ليهجرها إن أراد ، فهى تحبه ، وستحبه ، وتقبله كلما استطاعت الوصول اليه ، ما ألذ العيب لو كان العيب والفجور هما حنفى وشاربه وشفتيه .

جذبها ، لالا ، حملها فجلسا على الأرض اللزجة متجاورين ، لا . . . ملتصقين ، لالا . . . ممتزجين !

وتلاشى من الدنيا كل شىء ، حتى هو لم يعد له وجود . . . لا أهل ولا خير ولا شر .

دفنت رأسها فى صدره ، وانهمرت أنفاسه لتدثر وجهها بغلالة دافئة ، وأخذت تهدأ رويداً رويداً . . . لكنها كانت تشعر برغبة عربيدة لاتقاوم ، وانقشع على غير توقع ستار الخجل فانطلقت . . . ماذا سيفعل بعد ذلك ،

و . . . هل يفعـل ؟! . . . هل تدعـوه ؟! . . . أى فجـور هذا يابنت البلطية ؟! . . . لكنهـا للعجب ـ ضحكت لحلاوة ذلك الفجور ، وهزت رأسها وكأنها تطرد عنها أشباحاً من نار . . . هل يقاوم هو الآخر ما تقاومه ؟ وهل تراوده نفسه ؟ ، همست لنفسها باسمة أنها عربيدة فاجرة معجونة بماء النار ! . . . فليكن فالدنيا برد ! . . . حنفى يبتعد عنها قليلا ، فابتسمت فى دهـاء . . . انـه يقـاوم !! ، وأحست بالسعـادة كما لم تحس بها من قبل ، ولكن . . . لماذا لاتلقى إليه بالطعم لعله يتلقفه ولتر ما يقـول :

« ليه عملت كده ياسى حنـفى ؟! »

كاذبة . . . لكن كذبها له حلاوة العسل . . .

كأنها رأته فى الظلام يبتسم ، فارتجفت فى انفعال وتداخلت فى نفسها ، ثم اقتربت منه ـ كالقطة ـ وأوت الى صدره وراحت تـزوم !

« بردانـه يازوبة ؟! »

« ليه عملت كده ياسى حنفى ؟! »

ليست كاذبة هذه المرة تماماً ، شىء كان ينبعث من أعماقها فتجيش به نفسها . . . فجأة ، أحست احساساً غامضاً بالسعادة والألم سوياً . . . كيف فعلت ما فعلت ؟! كيف أقدمت ؟! . . . ما الذى دفعها الى هذا الجنـون ؟!

« وبعدها معاكى يازوبـة ؟! »

دمـوعها تنهمر من عينيها . . . دموع ندم أم دموع فرح ؟ . . . لم تكن تدرى . ثمة رغبة حارقة فى البكاء . . . فقط أرادت أن تبكى ، صفت الدنيا فى عينيهـا كصفـاء السـماء فى ليلة صيف ندية ، صدرها هادىء ساكن ، كسطح البحر بعد عاصفة هوجـاء .

« بتبكى يا زوبـة ؟ »

هزت رأسها دون حديث . لذة لاتعادلها لذة . تعمل اليوم بطوله دون توقف ، وتقضى الليل بطولـه دون نوم ، وتنتظره فى النهار والليل . . . ما الذى يدريه هو عن دمعهـا ؟!

« لا متى حايطول الانتظار ياسى حنفى ؟ »

« حانكلم أبنويا صادق ، نكلمـه وخـلاص . . . نتوكل على الله واللى يحصل يحصل ! »

« والجنيـه ؟! »

« جنيه ايه يابـت ؟! »

« اللى انت مخاويهـا ! »

أنفلتت ضحكتـه رغماً عنـه ، فزم شفتيه فى قوة ، وأخذ جسده يهتز ، وتسللت أصابعها الى شعيرات صدره كما تسللت الراحة الى قلبها ، وعادت تقول فى دلال :

« بتضحك على ايه ياسى حنفى ؟ »

« مين اللى قالك الكلام ده ؟ »

« خالتـى . . . »

« يابت اعقلى ، انت بتصدقى ؟! »

« طب وعيشـة ؟! »

قالتهـا دون وعى ، وياليتهـا مافعلت . . . لو كانت دموعها فى البداية ماء ، فجفـاف عينيهـا بعـد ذلـك لهب . . . صمت دون جواب ، وطال صمته ، وزفر فى ضيق . . . وتعلقت أنفاسها فى انتظار كلماته . . .

« والله ماآنى عارف يازوبة ، ايش قولك انتى ؟ »

« اللى تشوفه ياسى حنفـى »

« عيشة منكسره يازوبة ، وملهاش غيرى »

« وآنى لى ميـــــن ؟! »

أحست بابتسـامتـه فى تلاعب أصـابعـه بيدهـا ، فابتسمت وعاد اليها هدوءها ، لكنها ما لبثت أن انقضت عليه بدهاء تنتزع منه ما حلمت بسماعه طيلة أيامها ولياليها :

« بتحبنى ياسى حنفى ؟! »

« بتحبك ؟! . . . ربنـا اللـى يعلم ، ياما ليالى ما بنشوفش فيها النوم يازوبة ! حاسس من غيرك أنى مش عايش . . . وانتى يابت ؟! »

كلماته تبتسم ، فابتسمت هى الأخرى وقالت بسرعة خاطفـة :

« أيـــوه ! »

« ايوه ايه يابـــت ؟ »

« الله . . . وبعدين معاك ؟! »

« عارفة يازوبة ، آنى نفسى فى تلات حاجات »

رفعت شفتيها الى شفتيه وطبعت عليها قبلة . . . وأحست أنها تزداد عطشاً . . .

« نفسى فى قارب . . . ونفسى فى شبكة جديدة ! »

« والحاجـة التالتـه ؟! »

ونخسهـا باصبعـه فى جنبهـا فقفزت ضاحكة ، وامتدت كفه الى فمها يحجب الضحكة المرحة عن أسماع النائمين . . . واستسلمت لكفه ، ومالت معه حتى لامست رأسها صدره ، وأغمضت عينيها !

* * *

وعاد الصمت من جديد ، ومال حنفى على وجهها فلثمه فى هدوء وقد

تطايرت من رأسه آثار البوظة تماماً . . . أحس براحة شديدة وهو يضمها الى صدره ، بدا كل شىء له بهيجا ، وتذكر غناء محمود وشعره فابتسم فى حب . لولا هذه الأبيات لما اكتوى بنار الوجد ففر من البوظة هارباً . . . وأخذت أفكاره تترتب فى ذهنه فكرة وراءها فكرة ، وصفا تفكيره وهدأ فراح يقول كأنه يحلم :

« بقى عندى تلاتة ومتين جنيه يازوبة ، ندفع منهم مهرك ويفضل تمن قارب وشبكة ! »

« وحانسكن فين ؟ »

« هنا ، فى الأوضـة دى »

وأخذا يحملقان فى الظلام ، ويتحسسان بنظراتهما جدران الحجرة الخالية وأرضها ، وجذبتهما الاحلام فراحا يؤثثانها . . . وضعت زوبة دولاباً فى الركن الأيسر ، والفراش بجوار الباب .. فى مكان جلوسهما ـ وفرشت على الأرض كليما أسيوطياً ، وأنجبت له ولـدين وبنتـين ، وزوجت عائشـة من ابن الحـلال . . . و . . . وضحكت من قلبها ، وضحك من قلبه ، وسرقتهما السعادة فلم يشعرا بزمن ، ولعلع صوت المؤذن فلم يسمعاه ، وسعلت أم حنفى فانتفضا مذعورين .

* * *

تسلل حنفى الى حجرته عندما كانت أمه تتقلب على جنبها لتنهض ، وألقى بنفسه فوق الحشية وتوسد ذراعه وأخذ يحملق فى السقف سعيداً . . . وحاول أن يفكر ، أن يستعيد ما حدث ، حاول . . . حاول . . . ولم يفلح !

ذابت الأفكار والأمانى والأحلام فى رجفة الرضا التى اجتاحته ، وبقى

عقله خالياً من كل شىء ، وظلت أحساسيسه على مستواها من السعادة و...
توقف تماماً عن الحياة . ثم حاول أن يمسك بطرف الخيط ، تذكر أشـ...
محمود فى الوظة ، ثم نساها . . . وهبطت زوبة على ذهنه ، وذابت . . .
وحل محلها حمودة ، وتميع . . . وقزت كايداهم برقصاتها ، واختفت . . .
وسعلت أمه مرة أخرى ، ثم غاب عنه صوت سعالها . . . واستشعر أحضان
زوبة ، وفر من ذكراها . . . ونادت عليه أمه ، فرد عليها بلا وعى :

« ايوه يامه صاحى ! »

شهقت العجوز وهى تتحسس مكانه ببصرها الكليل :

« كفى الله الشر ياابنى ، ايه اللى مصحيك ؟ »

وانبثق صوت عائشة فى الظلام كعواء مقبض :

« وهو نام يامه علشان يصحى ! »

وهب حنفى فى مكانه كالملدوغ ، وحملق أمامه فى غضب ، أتكون عائشة قد أحست بالأمر ؟

« قصدك ايه يابت ؟! »

« ولا حاجة ياخويا . . . دانت لسه داخل آهو ! »

« وانتى مالك ياامقصوفة الرقبة ؟! »

وصاحت أمـــه :

« مالكا أزاى . . . صحتك يا ضنايا ! »

وبدأ موال كل صبـــاح .

— ١٥ —

بدأ موال كل صباح ، لكن عائشة لم تكن ككل صباح ، كان الشك قد تحول الى يقين ، والخوف من المقدر أصبح حقيقة هوت فوق رأسها بعنف وقسوة . . . فذعرت ، وحنقت ، لا . . . ثارت ، بل أصبحت وكأنها إنسان وقع بين براثن وحش خرافى ولم يعد أمامه سوى الدفاع المستميت .

كيف تحتمل الأمر ؟ . . . كيف يتزوج حنفى قبل أن يزوجهـا ؟

لا . . . لن يحدث هذا ، لن يحـدث . . .

ليس أمـامهـا سوى طريق واحـد ، ليس هنـاك غيره . . . هبطت من الفراش وهى تتدثر بشالها وتتثاءب ، وتنظر الى شقيقها بنصف عين ، قوة غريبة تتوالد فى أعماقها ، عقلها يتحرك بسرعة ، وبجنون ، لسانها يتلاعب فى فمها غير قادر على الصمت ، اختلست نظرة أخيرة من حنفى ووجدته مطرقاً . . . فيم يفكر ؟ هل عقد النية على أن يفعلها ؟! . . .

« يابنى أسمع كلامى ، ما هو لو كنت متجوز ما كنتش سهرت الليالى ، كنت لقيت واحدة تلمك ، ياواد اعقـل ! »

ولم يرد حنفى ، لم يفه بكلمة ، كل ما فعله أنه زفر من أعماقه . . . اذن ، فلم يعد هناك مجال للتردد . . . ليس هناك وقت ، ووجدت لسانها يتحرك ، وصوتها يخرج وكأنها فى حلـم :

« والله يأمه ما عرفت أنام الليلة ولا دقيقة ، زى ما أكون سمعت رغى وكـلام وحـديت فى الحوش ، قلت بسم الله الرحمن الرحيم ، وعطشت ، مديت ايدى للقلة لقيتها فاضية ، خفت أطلع بره ، عطشت زياده ، قلت يعنى يابت حايكـون مين ، والا يعنى حايكون مين ، خرجت أشرب من الزير . . . و . . . »

وصمتت ، والتقت عيناها بعينى حنفى ، فيهما ألم ، و . . . وتوسل . ارتجفت ، وازدردت لعابها ، ثم استدارت نحو المصباح ، وسألتها العجـوز :

« وايـه يابت ؟ . . . »

ولم تستطيع أن تمنع نفسها من الحديث . . . لم تستطع ، ولم تستطع أن تخوض فيما كانـت تريد الخـوض فيه ، هل فهـم حنـفـى ؟ . . . هل يتراجع ؟ . . . عيناه معلقتان بوجهها ، وشفتاه مطبقتان فى عزم . . .

« أنا عارفه بقى يا امه ، آهو تخاريف نوم ، فين الكبريت ؟ »
وأضاءت المصباح ثم انفلتت مسرعة الى الفناء لتعد الشاى . . . ورأت زوبـه . . .

« صباح الخيـر »

وكانت زوبه تبتسم . . . وجهها مضىء بنور سعادة لم تستطع اخفاءهـا . . .

« صباح الخير ياعيشـه »

كأنها لم تفعل شيئاً ، كأنها لم ترتكب اثما . . . واندلع فى صدرها شعور بالكراهية ، والبغضاء ، وتمنت أن تصفعها ، أن تكشف للناس سرها ، أن تذلهـا ، وفى قسـوة ، أن تمزق تلك الابتسامة المرتسمة على الوجه الجميل وتسحقها بقدمها . . . ووصل اليها صوت أمها من الداخل :

« ياواد اسمع كلامى وريح قلبى حرام عليك ! »
المعركة تبدأ وهى بعيدة عن الميدان ، يجب أن تنتقل اليها والا انطبقت السماء على الأرض ، ووافق حنفى . . . واندفعت بلا وعى الى الحجرة . . .
« فين الشاى يابت »
« على النار . . . ا . . . ا . . . آدينى بأولع البابور ! »

كان واجمـا مطرقـا ، جسده مكوم ورأسه مدفونة بين ركبتيه ، وكالمنومة وجدت نفسها تقول :

« زى ما أكون سمعت يا أمـه . . . . . . »

ونهض حنفى مندفعا ، وازاحها عن طريقه وهو يغادر الحجرة دون أن ينتظر الشاى ، ودون أن يشعل سيجارة ، ودون أن يلقى عليهما التحية ، وزغـردت الفـرحـة فى صدرهـا . . . انتصرت ، ولكن . . . لماذا آذت أخـاهـا ؟ ، لماذا آذتـه ؟! . . . أطلت وراءه وراحت تناديه ، لكنـه لم يرد عليها ، ولم يلتفت لزوبه التى استقبلته بابتسامة انتشرت على صفحة وجهها فملأتـه ، كأنه لم يكن فى أحضانها منذ دقائق . . . رفعت اليها عينيها ، وفاضت نفسها برغبة عنيفة فى الايذاء . . . كيف تبتسم له الفاجرة كل هذه الابتسامة ، ألم تندم ؟ . . . ألا تخجل ؟ . . . ماذا حدث للدنيـا ؟ . . .

الغـريب الـغـريب ، والعجيب العجيب ، أن يحدث هذا فى عائلة البلطى ، فى زقـاق السيد البلطى ، وفى بيت حنفى البلطى ، بل حنفى البلطى هو الفاعل دون غيره . . . ماذا بقى لها بعد ذلك ، لن تلوم بعد اليوم أحـداً لو تعـرى فى الطريق وسار أمام الناس يعرض عليهم عورته . . اهتزت الدنيا وارتجت من حولها ، ولم تصدق ، بل هى لا تستطيع تصـدق .

مرتاحة ؟ . . . نعم ، راضية ؟ . . . لا !!
أيقنت فى ذلـك الصبـاح أن حنفى لم يخاو كما فعـل أبوها ، بل خاوى زوبة . . . وقد كانت تتمنى ـ فى أعماقها ـ أن يزوجه السيد البلطى من احدى أميرات البحر لترتاح من رعبها وقلقها وترقبها . . . كتمت هذا الاحساس ودفنته فى أعماقها دون أن تجرؤ على جذبه الى ضياء التفكير الواضـح . . .

وكاد رأسها أن ينفجر . . . وجه زوبه تغير فما عادت زوبه التى ألفتها ولا عرفتهـا . . . وجـه العـالم تغير وتبـدل ، أصبـح ذا لون شاحب وملامح مطموسة . بمن تستجير ؟!

ترى هل كانت تفعل مثلما فعلت زوبه لو واتتها الفرصة مع السيد أفندى ؟!

فعلتها التى أقضت مضجعها وأطارت النوم من عينيها ، وأسلمتها لرهبة ورعب شديدين ، باتت الآن ماسخة لاطعم لها . . . عذابها أبله ، وخوفها سخيف ، وأرقها طفل لايعنى شيئاً . كل ما فعلته هو أنها أسلمت كفها لكفه مرة ، هذه فعلتها المشينة . . . وباتت ليلتها تبعد كفها عن جسدها وكأنه لامس الشيطان نفسه . لو استجابت لمناجاة الرجل لما خسرت شيئاً بل لربما كسبته زوجاً .أحست باشمئزاز شديد ونفور أشدعندماذكرته . . . كلماتهامعه

على السـلم خطيئـة ظنت أنها لن تمحى من تاريخ البلطية الى الأبـد . . . ضعفها أمام نظراته ، وانهيارها أمام توسلاته أسلماها فريسة للهم والقلق حتى جافتـه وصدته وزجرته ، فارتاحت نفسها بعد طول عذاب واستقرت بعد طول أرق وقلق . . . ورغم هذا لم يكف السيد أفندى عن زيارة أمها ، ولم يكف عن التهامها بنظراته ، ولم يكف عن إلقاء الكلام بألف معنى ، وكانت تفهم ما يقصد . . . توسل وحايل ولو أرادت لركع أمامها ، لكنها رفضت ، ثم هددتـه بالأمس أن تخبر أخـاهـا بمحـاولاته ، فارتعب ، وارتعبت هى الأخـرى لقولها الذى لم تلكه فى ذهنها ، بل وجدته ينطلق من فمها وكأنها كانت تكفر به عما اقترفت من ذنوب ! . . .

قال لها الرجل فى صوت مرتجف وهو يغادر البيت :
« أنا قصدى شريف ياعيشة ! »

فقالت بجبروت وقســـوة :
« اللى قصده شريف ياسيد أفندى ما يكلمش حريم ! »

فر الـرجـل مذعوراً . . . وربما لن يعود . ومضت ساعات قليلة ، ثم شاهـدت أخـاهـا فى أحضـان ابنة خالتها ، كان يقبلها . سمعت صوت القبـلات بأذنيهـا ، ضمهـا الى صدره ، سمعت تنهدات الفاجرة وزفراتها وهمسها . . . وتقلص جسدها من الانفعال ، ووقف شعر رأسها ألما ورعبا ، ولم تدر ماذا تفعـل .

كان الظلام حالكاً حقاً ، لكن خيالها أضاء الظلام وألقى فيه بكتلة من ضياء لايخطىء فى نورها الأعمى . سمعت النجوى والهمس وصوت القبل . ليتها ما أرقت ، وليتها ما عطشت وما غادرت الفراش ، ليتها ترددت وصبرت حتى يطلع النهار . . . ولكن ما حدث قد حدث ، وما كان قد كان . . .

انهار كل شيء ، وتحطم الإله ، وتمرغ ابن السيد البلطى فى طين الحجرة الخاليـة .

« بت يا عيشه . . . انتى حاتنعسى ، فزى هاتى لى كباية شاى . ! »

أمها مطرقة تفكر . . . كل ما يشغل بالها هو حنفى وزواج حنفى وكأنها لم تنجب غيره . . . أمهـا تفكـر فى حنفى ، وحنفى يفكر فى زوبه ، وهى وحيدة تكاد أن تموت من البرد !
هل أخطأت أم أصابـت ؟!

لم تأت زوبه كعادتها كل صباح . . . فلتناديها لترى ما تصنعه الفاجرات حين يتحدثن . . . طوفان رهيب من الكراهية والحقد يجتاح نفسها ويطغى ويفيض فترتجف لهول أحساسها به . . . هل تكره زوبه حقاً ؟!

« يازوبـه . . . زووووبـه ! »
جاءت بلا كلمـة ، ذليلة ، شاحبـة الـوجـه ، منكسرة العينين ، لعل خروجه دون تحيتها قد أثار فى نفسها الخوف . . . لتتعذب تلك التى كانت سعيدة وهى فى أحضان حنفى ، ولتعذبها هى أكثر ، وتتلـذذ . . .

« ما تيجى ياختى ، انتى نعستى والا ايه ؟! »
صعدت الى الفراش ، وجلست متربعة يداعبها النوم ، ويتراقص رأسها فوق رقبتها ، رأس ملىء بالخبث والمكر ، ووجه جميل يخفى وراءه انثا فاجـرا .

أعـدت الشـاى وصبتـه فى الأكواب ، وجلست تتأملها وتنتظر الفرصة للانقضـاض ، كوب الشـاى يهتز فى يد أمها ، ستعود الى النوم من جديد كعادتها ، وتتركهـا وحدهما لتتبادلا الحديث ، وسيكون اليوم حديثاً شيقاً . . .

« باين عليكى مانمتيش الليله يازوبه ! »
شيئاً فشيئاً حتى تكون اللذة أقوى ، الرعب يطل فى عينيك يافاجرة ، ليت أخى يرى وجهـك كما أراه الآن ، لكنى أعلم أنه سيحبه . . . أنت كالشيطان ، بل أنت شيطان زين لأفضـل الشباب والرجال طعم الخطيئة فوقـع . . . ترى لو طال بكما الوقت ، أكنت تـسلمينه نفسك ؟! . . . وما يدرينى ما حدث قبل أن أنهض ؟ . . . لعله عبث بنهديك ، وجاس بأصابعه خلال صدرك . . . وتحسس بكفيه بطنك . . . و . . . ومن يدرى ؟!
نار قلبى تزداد اشتعالا ، ولن تبرد نارى قبل أن أهوى بالحقيقة فوق رأسك لأهشم كبرياءك . . . ولكن لا ، قطرة قطرة لأتشفى على مهل . جميلة حقاً ، وممتلئة حقا ، لكنك فاجرة . . . ومن الفاجرات من يفقن فى جمالهن ملكات يعشن فى القصـــور . لو كان أبى على قيد الحياة لعـرف كيف يربى هذه العائلة . . . ولكن حسرتى شديدة ، لقد ذهب دون أن يترك وراءه رجلا يخافه الناس ، ولا حتى تخافه حريمه .

« مالك ياختى ، زى ما تكونى بايتة بعيد عن فرشتك ! »
« أبداً ياعيشة ، بس الدنيا برد قوى يابت خالتى ! »
ياناعمة اللسان ، الضوء يتسرب من النافذة ، والنهار يطلع ليكشف عن خبايا الليل والظلام .

« طب أطفى اللمبة النهار طلع !! »
أطيعى كالخادمة ، لاشك عندى أنك خمنت ما يدور فى رأسى ، لاعمل لك الا التصنت علينا وسماع ما يدور بيننا ، لولا جنون أمى وتخريفها لما طاف بذهن أخى أن يفكـر فى الـزواج من عاهـرة مثلك . . . يليق بابن السيد البلطى أن يتـزوج أمـيرة من الأمـيرات ، ترفعـين رأسك وتنظرين الىّ بلا خجل . . . والله لأكسرن هذه الرأس . . .

« الا قولى لى يازوبة . . . أنا شايفه ياختى فرشتك زى ماهى ، [illegible]
مانمتيش عليها الليلة والا ايه ؟! »

« وبعدين معاكى ياعيشة ، مالكيش دعوه بيه يابت خالتى ! »

« يوه . . . هو أنا قلت حاجة لسة !! »

« فتك بعافيـــة !! »

تردين على وكأنك طاهرة الذيل ؟ . . . وتغادرين الحجرة غاضبة ؟ . .
ولكن الى أين ؟ . . . فى النهار متسع ، بل فى العمر ما يكفى لأسقيك [illegible]
على مهـل !

فلأدثـر عظامى النـاتئـة ، ولأغفـو قليلاً فقـد تعبت . . . لماذا يطلع
النهار ؟! ، لماذا لاتظل الدنيا فى ظلام أبدى ؟ . . . ترى ، متى يعود السيد
أفندى ؟ . . . لوعتى عليك ياكفى ، متى تذوق لمساته مرة أخرى ؟!

هل يعود الى الزقــــاق ؟ . . .
يالى مجنونة !! . . . كيف فعلت معه ما فعلت ؟!

— ١٦ —

أشرقت الشمس ، ولم يطل قرصها الدافىء على الناس . . . وأيقن حنفى وهـو يغـادر الـزقاق أن اليوم لن يكون فيه صيد ، كانت السحب الكثيفة السوداء تحجب السماء عن النظر ، وسطح المياه مربدا ، والريح عاصفة . . . وقد سار فى الشوارع والأزقة شارد الذهن ، وكلمات عائشة لاتزال تطن فى أذنيه ، وكـان أكثر ما يعـذبه أنه لم يستطع أن يرد عليهـا ، أو يوقف حديثها . . . بل هو لم يستطع أن يرفع اليها عينيه !

مر به رجل وألقى عليه التحية ، فلم يسمعه ، ولم يرد تحيته ، اقترب من باب الرصيف تقوده قدماه دون وعى منه ، واجتاز الباب فى سرعة كأنه يهرب من شيطان يطارده . . . رأى الـرجـال وقد تجمعوا أمـام قواربهم الخـالية منكمشين من الـبرد ، تتلاعب الرياح [illegible] الفضفـاضة ، [illegible] القـوارب المـتراصـة بجـوار بعضها . فتحتك جوانبها مرسلة [illegible] الأعصاب . . . ولمح محمود يقف مستنداً الى جوار المقهى شاحب [illegible]

محمر العينين ، سارحاً ببصره الى الأفق البعيد ، فأيقن أنه لم ينم ليلته هو الأخر . . . اقترب منه وألقى عليه التحية ، ثم وقف بجواره يرقب الحياة من حوله ببصر زائغ وعقل غائب .

هل سمعت عائشة شيئاً ؟ . . . هل رأتها ؟ . . . صوبت حديثها الى صدره كأنها تطلق سهاماً تعرف أين تصيب ! . . . كيف أقدم على ما أقدم عليه ؟ . . . وكيف سمحت له زوبه بذلك ؟ . . . ولماذا انتظرته ؟ . . . هل هو نادم ؟

بحث فى أعماقه فلم يجد سوى الرضا ، وبجانب الرضا عثر على شيء كالقلق ، كالاضطراب ، كالضيق الذى ينتاب المرء عندما يصنع شيئاً غير مألوف ، والناس من حوله فى دهشة !

أيقظه محمود من أفكاره عندما قال :

« أبويا نزل ياحنفى ، أبويا وصل ! »

بوغت حنفى بحضور المعلم محمد البلطى ، ارتجف لسماع اسمه ، واعترت جسده قشعريرة باردة عندما رأى عمه يخطو فوق حجارة الرصيف وسط الريح بقدمين ثابتتين . . . ترى ما الذى يحدث لو علم أهل الزقاق بما حدث ؟ . . . كيف يواجههم اذا زل لسان عائشة وفقدت صوابها وقالت شيئاً ؟!

تدافع الرجال نحو المعلم محمد مهنئين ، وتقدم حنفى نحو عمه وانحنى على يده ليقبلها . . . وكان واضحاً أن المعلم محمد سعيد بعودته الى الشاطىء ، سعيد بشبكته الجديدة الملقاة على كتفه . . . وقد رفع العجوز عينيه ناظراً الى الأفق المظلم ، وقال فى مرح :

« يظهر أن البحر بيعاندنى يارجاله ، يوم ما ننزل يعمل الموج عمايله . . . يالله بينا على القهوة ، مفيش فايدة ! »

وأطلق ضحكة مجلجلة وهو يتجه الى المقهى الزجاجى القائم على الرصيف ، يتبعه الرجال منسحبين واحدا وراء الأخر ، تاركين وراءهم قوارب خالية تتأرجح فوق سطح مضطرب .

* * *

كان من عادة الرجال فى الايام العاصفة التى يتعذر فيها خروجهم الى الصيد ، أن يتجمعوا فى المقهى ، يرقبون مياه البحر المتلاطمة ، ويدخنون ويثرثرن ويشربون الشاى فى اسراف ، وكأنهم فى يوم عيد . . . كانوا فى تلك الأيام النادرة يمضون أوقاتا هى فى غالب الأمر أجمل أوقاتهم ، لولا ما كان يشوب ذلك الجمال من قطع رزق ، أو احتياج الى المال .

على أن شعورهم فى ذلك الصباح ، كان ـ على غير العادة ـ مضطربا بالتوتر والقلق ، كانوا مسرورين لمواتاة الفرصة أخيراً لتجمعهم ، بعد أن أضناهم ذلك الخوف الذى يسيطر عليهم كلما مر يوم وتناثرت الأقوال حول أسطول الصيد المزمع انشاؤه .

كانوا يلتقون كل يوم بعد الغروب فى المقاهى التى اعتادوا التجمع فيها ، غير أن احساساً غريباً كان يبعد كلاً منهم عن الأخر ، احساس بالخوف أن تتجسد الكلمات التى يلوكونها حول هذا الموضوع فتصبح حقيقة ، وأن يواجه كل منهم الأخر بما يعتمل فى نفسه . . . ورغم أن أحاديثهم حول هذا الموضوع قد كثرت فى الأيام الأخيرة ، خاصة بعد أن ثرثر بعض رجال عبد الموجود حمدان فى المجالس مؤكدين حقيقة الأمر ، إلا أن عيونهم كانت تتلاقى فى حيرة ، يطل منها سؤال واحد : « ماذا نحن فاعلون ؟! »

لكن السؤال ـ أبداً ـ لم يجد له جواباً سوى الصمت الحزين !

قال قائل أن عبد الموجود حمدان شارك بعض أغنياء الانجليز بمال وفير . وأنه يبحث الآن عن مشتر لقواربه الاثنى عشر ! . . . وقال آخر أن السفينة الواحدة من هذه السفن ، تستطيع وسق ثلاثين طنا من الأسماك ، وأن الرجال على سفن كهذه يستعملون شباكاً غير الشباك ، شباك من حديد مجدول ، تلقى إلى البحر بواسطة أوناش ضخمة ، فتغوص فى المياه إلى الاعماق ، وتجذب من الأسماك ما يفوق حجمه حجم الحيتان !

وصل الأمر الى المعلم محمد البلطى وهو لايزال راقدا فى فراشه ، وسمعت أذناه أكثر من قول ، وحمل الرجال اليه أكثر من رأى . . . فسأل عن عبد الموجود حمدان ، وعلم أنه لم يعد يزور الشاطىء فى الأيام الأخيرة . . . . فصمت واضطراب ، فإن عبد الموجود لم يزره فى مرضه ، بل هو لم يكلف نفسه سؤال رجل من عائله البلطى ! . . . فكيف يعلل هذا الأمر ؟ . . . وبماذا يعلله ؟ . . .

وكلما صمت الرجال من حوله فى انتظار رأيه ، كلما ازداد اضطرابه وقلقه ، لكنه راح يهون عليهم الأمر ، ويبتسم فى وجوههم متظاهراً باللامبالاة ، ويرسل المراسيل للتفاوض مع الخواجة ستاكس لشراء شبكة جديدة غير التى ضاعت منه فى الحادث . . .

لكن الحقيقة أنه كان أشدهم حيرة ، كان ضياع الشبكة بالنسبة اليه كارثة تقصم الظهر ، فلم يكن عنده من المال ما يكفى لشراء شبكة جديدة . . . ثلاثون جنيها مبلغ ليس باليسير ، والخواجه ستاكس لايعرف الرحمة أو العدل ، وقد طالت المفاوضات بينهما ، مفاوضات قام بها المعلم صادق حينا ، والريس جابر حينا آخر . . . لكنها نجحت أخيرا ، وأفلح الرجال فى

شراء الشبكة على أن يسدد ثمنها على أقساط . ومنذ ذلك اليوم والمعلم محمد يضع فرحته بالشبكة الجديدة تحت نار هادئة لتتمدد وتشغل الحيز الأكبر من تفكيره .

وقد حاول العجوز كثيراً أن يؤجل الحديث عن عبد الموجود حمدان الى أن يتضح له الصواب من الخطأ . . . فرغم ثراء عبد الموجود ، الا أنه كان يحبه ، فمنذ خمسة عشر عاماً كان الرجل تابعا من أتباع البلطية ، يخرج للصيد لقاء ربع الرزق ، لكنه تغير مع الأيام ، ونمت ثروته ـ ولا يدرى أحد كيف ! ـ حتى اشترى اثنى عشر قارباً . وأصبح لديه جيش من الرجال يعملون تحت امرته . . . ورغم أن المعلم محمد كان يعلم ما يكنه له عبد الموجود من احترام عميق ، إلا أنه وضع فى اعتباره أنه رجل صلب لايستهان به ، لذلك . . . فما أن خرج من البيت لأول مرة فى ذلك الصباح ، يحمل شبكته الجديدة فوق كتفه ، ويذهب الى الشاطىء ، ويرى ما كان من ثورة الطبيعة وعلو الأمواج واشتداد الرياح ، حتى أيقن ـ فى قرارة نفسه ـ أن الرجال سيضعون المسئولية كلها فوق كتفه ، فلم يجد ما يعالج به أفكاره ومخاوفه وحيرته سوى الابتسام .

* * *

ما كاد يدلف الى المقهى حتى اختار لنفسه مقعدا فى صدر المكان ، وجذب الريس جابر مقعداً وجلس على يمينه ، وأحكم حمودة شاله الصوفى حول رأسه ، ثم فرك كفيه وصفق منادياً عليوة الجرسون ، وقبع حنفى بجوار محمود وسط الحلقة التى اكتملت حول المعلم محمد . . . وأخذ الرجال يتصايحون فى مرح مصطنع ، وصيحات عليوة تتمطى وتتنغم وهو يطلب للرجال مشاريبهم . . . وسرعان ما انعقدت سحب الدخان فى سماء المكان ، وكركرت الجوزة ، وعلا صوت الرشفات ، وامتلأ الجو بدفء لذيذ بعث فى نفوس الرجال بالثقة .

وعلى غير انتظار ، دوت فى المكان صيحة رجل وقف عند الباب . . الفارع الطويل ، ووجهه الأسمر المستطيل ، وشاربه الغليظ الذى يمتد طرفاه فوق صدغين غائرين ، ورفع يده بالتحية الى رأسه قائلاً بصوت جهورى :

« صباح الخير يارجالة ! »
ثم التفت الى المعلم محمد وصاح مرة أخرى :

« أنا سمعت يامعلمى أنك قمت بالسلامة ، وحياة مقام المرسى أبو العباس ما كنت هنا لما حصل اللى حصل ، ألف الحمد لله على السلامة !! »

نهض المعلم محمد لاستقبال الوافد الجديد ، ووقف الرجال جميعاً لوقوفه وأخذوا يصافحون الرجل فى احترام مشوب بالحيرة ، وقدم المعلم صادق مقعده للضيف ، وصفق المعلم محمد منادياً عليوة ، وطلب شاياً للريس عبد الموجود حمدان .

* * *

سرعان ما تجمع الرجال حول المجلس ، وجذبوا مقاعدهم من أطراف المقهى وكل منهم يشعر أن شيئاً لابد سيحدث ، وتلاعبت الأسئلة فى الأفواه ، وارتسمت علامات استفهام كبيرة فوق الوجوه .

وأحس المعلم محمد بالعيون التى أحاطت به فى إلحاح تطلب منه القيام بواجبه ، وأحس أكثر بثقل المسئولية الملقاة على عاتقه . . . وكان بخبرته يعلم نتيجة المشاحنة والمصادمة مع رجل كعبد الموجود لايؤخذ الا باللين والكلمة الطيبة .

دار ببصره فى الوجوه ، فوقعت عيناه على محمود ، وكان يتثاءب ، فانقبض

وهو يتذكر أن ولده ـ وأن كان قد بدّر فى الحضور الى الشاطىء ـ لم يبت ليلته فى البيت . . . وعربدت الخواطر فى ذهنه ، ثم اضطربت واستكانت عندما ربت عبد الموجود على فخذه محييا ، فرفع يده الى صدره يرد التحية ، عندما صاح رجل من وسط الجمع على غير انتظار :

« إلا صحيح الكلام اللى بينقال ده يا معلمى ؟! »

وقع المحظور ، ولم يعد هناك مفر . . . كان واضحاً أن الرجل يوجه حديثه لعبد الموجود ، فساد الصمت تماماً حتى أحس الجميع بالضيق والحرج ، خاصة وأن عبد الموجود لاذ هو الآخر به وعلى وجهه ابتسامة نصف نصف . . . على أنه دس سيجارة بين شفتيه ، ونفث دخانها فى عصبية ، ومال على المعلم محمد وقال هامساً :

« حكاية ايه يامعلمى ؟! »
ضحك المعلم محمد وقال موجها حديثه للرجل الذى سأل :
« طيب استنى على رزقك شوية ، هو حمرى جرى ؟! »
ثم ربت على كتف عبد الموجود وهو يقول فى هدوء ولا مبالاة :

« حكاية المراكب اللى بيقولوا عليها » .
« كل شىء نصيب ! »

قال عبد الموجود ذلك . . . وسكن كل شىء ، وخفقت قلوب الرجال خفقات عاتية ، وكأنما عبد الموجود قد ضاق بالعيون التى أحاطته ، والصمت الذى لف المكان ، فعاد يقول مؤكداً حديثه :

« كل شىء بأمر الله ، كله بأمره ! »
وعلا صوت من وسط الجمع المحتشد :
« وده اسمه كلام ؟! »

برقت عينا عبد الموجود ، وارتفعت رأسه فى الهواء فى تحد كأنها تمثال من الصخر ، وصوب عينيه نحو محمود البلطى ـ وكان هو صاحب الصوت ـ وصاح فيه بصبر نافذ :

« قصدك ايه يامحمود ؟! »

وعاجله محمود بالرد فى ثورة :

« قصدى ياأبويا أن ده ما اسموش كلام ، نروحوا احنا فين بعد ما تطلع المركب دى ، نجوعوا ، نشحتوا ؟! »

وصاح عبد الموجود فى دهاء :

« كل واحد ورزقه يابن والدى ! »

وكأنما ضاق الرجال بمراوغته ، فعلت الهمهمات ، وقال أحدهم فى غضب :

« حايبقى فين الرزق ده ، اذا كانوا بيقولوا أن المركب توسق أكثر من ثلاثين طن مرة واحدة . . . »

وقال رجل آخر :

« الكلام بالعقل يارجاله ، كله ينصلح بالتراضى ! »

وأحس عبد الموجود بالحلقة تضيق حول عنقه ، فزمجر موجها حديثه للمعلم محمد :

« عاجبك كده يامعلمى ، عاجبك ؟! »

وعاد الصمت يلف المكان ، وأطرق المعلم محمد مفكرا ، وأحاطته العيون فى ترقب فى انتظار كلمته ، وعبث عبد الموجود بطرف شاربه فى قلق ، وعاد يقول مواجها زمجرة الرجال وهمهماتهم وكأنه يتعجل الموقف :

« ايش قولك يابا محمد ، عاجبك الكلام ده ؟! »

وأخيرا . . . أخيرا تحدث المعلم محمد ، فصمت الرجال ـ كالعادة ـ وأسلموا له القيادة دون تفكير .

« ماهو ربك عرفوه بالعقل ياعبد الموجود !! »

« ودى فيها قلة عقل يابويا ؟! »

وأخذ المعلم محمد يتحسس طريقه بحذر :

« ماهو احنا ما نعرفوش الحكاية كلها ، اتكلم واحنا نسمع ! »

أعتدل عبد الموجود وقد أدرك بذكائه الشرك الذى نُصب له ، وكان عليوة قد وضع كوب الشاى أمامه ، فامتدت يده اليه ، وأخذ يرشف منه على مهل ، ثم قال فى صوت ثابت :

« الحدوتة مش عايزة كلام . . . جانى راجل انجليزى اسمه « هوب » ، وقال لى الحكاية وما فيها عاوزينك تشترك معانا فى مركب صيد ، مركب واحد يامعلمى ، مش أسطول . . . الراجل قال ياعبد الموجود أنت النص ، واحنا النص ، والمكسِب بالنص . . . كلام زين ؟! »

وقال المعلم محمد فى صبر وهو يهز رأسه :

« زين ! . . . »

« هو قال لى كده ، قلت له يلزمكم كام ، قال خمس ألوف ، قلت ماشى . . . اللى ورايا واللى قدامى وحياة مقام المرسى ، دفعتهم واتوكلت على الله . . . فيها ايه دى ؟! »

ولأول مرة يظهر الغضب على وجه المعلم محمد البلطى ، عندما رفع وجهه اليه ، أيقن الجميع أن اللحظة الحاسمة قد دنت ، وتوترت على الفور أعصاب الرجال ، وتحفز البلطية . . . وحتى هذه اللحظة كان المعلم محمد

يراوغ نفسه ، ويهرب من أفكاره متعللا بأى حجة يصادفها عقله ، لكنه لم يتصور أن الامر قد وصل الى هذا الحد ، كان يمنى نفسه باقناع عبد الموجود بالعدول عن مشروعه ، لكن كلمات الرجل وضعت حد فاصلاً بين الظن واليقين ، كما أدرك أن ولده أسلم الرجال قياد المعركة بتهوره واسترساله فى الغضب ، فلا مجال اذن للتـردد :

« والرجاله دول ياعبد الموجود ، ياكلوا منين بعد عملتك دى ؟! »

« كل واحد ورزقـه يابا ! »

« وقتها حاتغطوا السوق بالسمك ، والتاجر له اللى يسعفه ، واللى يرخص له ، واللى يدى له سمكة كبيرة ! »

« كل واحـد وشـطارته !! »

وزعق رجل وكأنما الكيل قد فاض به :

« واحنا يا ريس عبد الموجود . . . وولادنا ؟! »

« ربنـا ما ينساش حـد ! »

كان المعلم محمد قد أعاد سيطرته على نفسه مرة أخرى ، فقال فى صوت رائق هادىء ، وفى لهجتـه رنة عتاب :

« لكن أنت نسيتنا ياعبد الموجود ! »

وأحس عبد الموجود أنه وقع ، ولم يكن أمامه سوى سبيل واحد للفرار ، فأشاح بوجهه بعيداً عن المعلم محمد ، وشوح بذراعه فى استهانة ، وقال كمن ضاق بالأمر كلـه :

« ماحدش بيحوش رزق حـد ! »

كان من الممكن أن يمر الأمر بسلام ، وأن ينتهى أية نهاية لو لم يفعل عبد الموجود ذلك ، غير أنه كان يعلم أن فعلة كهذه لايمكن أن تمر ، وكان له ما

أراد ، فما كاد يفعل ذلك حتى استشاط البلطية غضباً ، ونهض محمود من مقعده ثائراً وهو يصيح فى انفعـال :

« عيب عليك تشوح فى وش المعلم محمد البلطى ياعبد الموجـود ! »

ونهض حنفى هو الآخر متحفزاً ، وتوتر الجو وتكهرب ، وران الصمت فترة ، انفجرت بعدها ضوضاء الرجال وهم يتحفزون لأمر خطير . . . وكما فعل عبد الموجود فعلته وهو واثق من نتيجتها ، راح يتلقى الثورة بالأسلوب الـوحيد الـذى كان يعلم أنه كالماء البارد ، يقلل من حرارتها أن لم يستطع اطفاءها . . . قال فى صوت خافت وهو يخفض رأسه الى الأرض :

« مقصديش يا ابنى وحياة النبـى !»

وعاد محمود الى الصياح مرة أخرى :

« أنا مش ابنك ، أنا ابن محمد البلطى ! »

كان واضحا أن محمود فقد أعصابه ، ولم يكن باستطاعة أحد أن يتدخل سوى المعلم محمد نفسه ، لكنه ظل صامتاً يرقب المعركة بعين الخبير ، وراح عبد الموجود يسيرُ فى نفس الطريق بلا يأس ، فقال فى صوت ناعم :

« عيب يامحمود ، دانا مربيك وشايلك على كتفى ! »

وزمجر محمود غضبا ، وخطا نحوه خطوة وهو يقول فى تحـد :

« وأبويا رباك وخلاك صياد وبنى آدم ! »

أيقن المعلم محمد أن عبد الموجود أفلح فى الهرب كما أيقن أن ولده أسلمه ـ مرة أخـرى ـ قيادة المعـركة بتهوره واسترساله فى الغضب ، فصاح محاولاً الامساك بطرف الحديث من جديد :

« أقعد ياواد بلاش كلام فاضى ! »

لكن عبد الموجود لم يكن من الغفلة بحيث يفلت من يده خيط المبادرة ،

فالبرغم من جلوس محمود ، الا أنه أبى أن يُفلت تلك الفرصة الذهبية ال
سلمها له ، فنهض من مكانه وهو يعدل من وضع شاله الحريرى الفاخر حـ
عنقه ، وتظاهر بالغضب وهو يقول محدثاً المعلم محمد :

« آنى انشتمت فى مقامك يامعلمى ، معلش ، برضه محمود زى أخو
الصغير . . . . سلام عليكـم ! »

واندفع يشق طريقة نحو الباب غير آبه بالصيحات التى راحت تطلب مـ
الجلوس ، ومـا أن استقبـل الهـواء البارد فى الخـارج ، حتى ابتسم ابتسام
واسعـة ، وارتـاحت ملامحـة فوق صفحـة وجهـه وكـأنه تخلص من عب
ثقيل . . . بينما كان جو المقهى مشحونا متوترا ، والرجال صامتين واجمين
وأخـذ الصمت الكئيب يضغط على أعصـابهم لحظة بعد أخرى ، والكل
مطرق ساهم ، حتى صاح أحدهم فى صوت كالعويـل :

« عليـه العوض ومنه العوض ! »

ورفع المعلم عينيه الى ولده فى حسرة ، كان يحسب حساب هروب عبد
الموجود ، وكان يستطيع لو أراد أن يلقنه درساً لاينساه ، وقد حمد لولده أن
حاجاه فى البداية محاجاة رجل لرجل ، كلمة تغنى عن عشرة ، واللين أفضل
من القسوة ، لكنه فقد أعصابه ، وأعطاه الفرصة للهرب . . . طلب العجوز
شايا ، ثم أشعـل سيجـارة وراح يفكـر وقد أعياه الأمر . . . ثم انتبه من
استغراقه عندما قال المعلم صـادق :

« العمل ايه يارجالـة ؟! »

فرد أحدهم فى نبـرات يائسـة :

« العمل ؟! . . . العمل عمل الله يامعلمـى ! »

وعاد الصمت يلف المكان مع يأس عميق تسلل الى نفوس الرجال ، كانو

كمن وقعوا فى مصيدة لايجدون منها مفراً ، فراحوا يتخبطون على غير هدى ،
لذلك كانت أفكارهم تتخبط فى كل اتجاه ، تشرق وتغرب وتضرب أخماساً
فى أسداس ، ثم ترتد فى عجز وحيرة . . . وأخيراً قال واحد منهـم :

« ماهو لازم . . . لازم تشوفوا حل يارجالة ! »

ابتسم آخر فى مرارة وهو يتساءل :

« عندك أنت حـل ؟! »

وصاح محمود البلطى على غير انتظـار :

« أنا عندى حل . . . نشترك . . . »

ثم توقف عن الحديث عندما استدارت نحوه كل الرءوس ، ومال البعض
الى الأمـام ، والبعض الى الخلف وراحـوا يحملقـون فيه ، وانصبت عليه
نظرات والده الغاضبة ، وأحس بنظرات حنفى تلهب صدغه ، فتلجلج ،
لكنه قاوم ارتباكه وقال فى اندفـاع :

« نشـترك كلنا ونجيبوا مركب !! »

انغرست نظرات الرجال فى صدره كالنصال ، لمح على وجوههم خيبة أمل
واستهانة أدمت فؤاده ، وقال أبوه فى سـخرية :

« عارف المركب ثمنها كام يا معلم محمود يا بلطى ؟! »

ونكس محمود راسه ، بينما استطرد أبوه فى سخريته اللاذعـة :

« حداك عشر ألوف تشترى بيهم مركب ؟! »

تمنى محمود لو انشقت الأرض وابتلعته ، هوت كلمات والده الباردة على
دمـائـه السـاخنـة فجمدتها ، أحس بالمرارة تندلع فى حلقة ، وضاق بكل
شىء ، وخطرت بباله كايداهم فارتجف ، وتحدث حنفى لأول مرة منذ بدأ
الحـديث ، فجـاء كلامه بردا على قلبه ، ولكن . . . أتشفى كلماته الجرح
العميق ، انه لا يصلح ، لايصلح أن يكون صيادا . . . أبدا ، لا يصلـح .

قال حنفى فى هـدوء شـديد :

« محمود معاه حق يابا محمد ، يعنى الحكاية مش حاتيجى بين يوم وليلة برضـه !! »

كاد المعلم أن يفقـد أعصـابـه وينهـال علىٰ ابن أخيه بالشتم عندما لمح السخـرية فى عيون الرجال ، لكنه استطاع أن يكتم ثورته ، فقد تعود فى حديث حنفى منطقاً سليماً ، وعندما رفع حاجبيه دهشة ، كان حنفى يستطرد وهو يواجه نظرات الرجال فى جسارة وإيمـان :

« قصـدى نقـول أن قدام عبـد المـوجـود بالقليلة سنـة على ما تيجى المركب . . . وفى السنة دى يحلها ألف حـلال » .

ابتلعت عيون الرجال ما فيها من سخرية ، ثم أطلت منها حيرة ارتسمت على تقاطيع وجوههم . . . وقال رجـل :

« قصدك ايه ياحنفـى ؟! »

« قصدى أن عبد الموجود كان صياد زينا بالقارب والمجـداف » .

وصاح حمودة كأنه غريق يطلب النجـدة :

« بس عبد الموجود معاه ألوف ياحنفى ، ألوف عملها فى خمستاشر سنة ، وعملها من كل باب ، من كل حتة تجلب القرش ! »

ورد حنفى وهو يميل نحو خالـه :

« عملها فى خمستاشر سنة ياخالى وكان بذراعه ، واحنا كتير ، احنا أكثر من ستين راجل وأربعين قارب ، لو كانت قلوبنا على بعضها نعلموا حاجة ! »

« زى ايه . . . حاجة ايه ياحنفى ! »

قالها الريس محمد وقد عادت اليه الطمأنينة ، فاستدار حنفى نحو عمه وقال وهو يلوك الأمر فى ذهنـه :

« يابا الرجالة موجودين ، وايد لوحدها ماتصفقش ، فكروا فى حل يابا ، لازم كل واحـد يقـول كلمتـه . . . وبعد يوم ، واتنين ، وثلاث أيام لازم نوصلوا لبر ، ونرسى لنا على شط . . . والا ايه يارجالـة ؟! »

كانت كلمات حنفى كالسحر ، أحس كل رجل أن أمامه فرصة ، ومدت كلمات حنفى أمامهم بساطا يستطيعون السير فوقه ، وعلى مهل . . . لذلك ، فسرعان ماعلت أصواتهم وتشابكت ، وما أن مرت دقائق ، حتى حميت المناقشة ، وعاد النشاط يدب فى أذهانهم ، وعاد عليوه ينادى على طلباتهم ، وسرى فى الجو دفء وحماس . . . بينما غرق حنفى فى التفكير . . .

* * *

كان يعلم تماماً أن الحل ليس بالأمر اليسير ، لم يكن فى ذهنه فكرة محددة عما يريد ، أيقظت كلمات محمود فى صدره إحساساً بالحب دفعه لأن يدافع عنها . هل كان على حق فيما قال ؟ . . . سيقضى الرجال صباحهم ، وربما امتدت جلستهم الى المساء ، وهم يتناقشون ويثرثرون . . . فى قلبه غصه ، فهو يعرفهم جيداً ، تجمعهم يدفع بالطمأنينة الى قلوبهم ، وبعد ساعات سينسون الأمر كله !! . . . ويسلمون أمرهم لله .

لو كان أبوه حيا لوجد الحل فى كلمة ، هكذا يقولون دائماً ، لم تقف أمامه عقبة ، ولم تحيره مشكلة . . . غير أنه يفكر ويفكر دون أن يعثر على حل ، أصبح كل شىء معقداً وكأن جدراً أقيم أمامه فسد عليه كل مخرج ، ثمة شىء فى أعماقه يصيح به أن لابد من حل ، وكل مشكلة ولها حلال ، ولكن مشكلته ليس لها شاطىء ترسو عليه . . . تقسيم الشاطىء أمر ساذج ، وشراء سفينة أبعد من نجوم السماء فكلهم فقراء على باب الله ، فكيف قال ما قال . . . ضحكوا من محمود عندما القى اليهم باقتراحه ، لكنهم لم يضحكوا منه عندما ردد نفس الكلام . . . عيب محمود أنه يفكر بقلبه

لابعقله ، يمسك الحقيقة بيديه ولا يعرف ماذا يصنع بها ، وانما يعرف كيف يغنيها . . . وعائشة فى البيت تنتظره بحديثها اللاذع ، وكرامته تتمرغ على الأرض دون أن يستطيع أن ينفض عنها التراب ، هل يحدث المعلم صادق ؟ . . . وماذا يقول عنه الرجال لوفعل ؟ . . . . يترك المصائب لهم ويبحث عن عروس ؟! . . . ماذا جرى لعقله ، لماذا يشعر وكأنه مسئول عن مشاكل الدنيا كلها . . . الرجال يثرثرون ويتناقشون ولا مخرج . . . ما الذى كتب عليه ؟! . . . لو حقق عبد الموجود مأربه لتشردوا جميعاً ، لما وجدوا من يشترى سمكاتهم . . . ستقلع سفينته وتعود محملة بصيد لم تره عيونهم ، سيضيع صيدهم فى طوفان الرزق الذى سيغرق به عبد الموجود البلاد . . . هل كان على حق فيما قال ؟!

أثارهم وأثار جدالهم ووقع هو فى الحيرة ، يحس أنه كالأعمى الذى يتخبط فى طريق مزدحم ، ماذا كتب عليهم جميعاً ؟ . . . حالهم ينحدر من سيىء الى أسوأ . . . ورجل منهم يضع كفه فى كف الغريب ليقتلهم . . . لابد من حل ! . . . لابد من مخرج . . . ولكن أين ؟!

هل يذهب الى الصخرة ، ويصرخ منادياً أباه ؟

— ١٧ —

همست زوجة أحد الصيادين فى أذن جاراتها :

« سمعتى ياختى اللى بيقولوه ؟! »

ظهر الاهتمام الشديد فى عينى الجارة وهى تزيح طفلها الحابى عن حجرها ، وقالت فى لهفة :

« خير يا أم على حصل ايه ؟! »

مالت أم على حتى كادت شفتاها تلاصقان أذن صاحبتها وهى تهمس :

« آل ياختى شافوا حنفى البلطى وهو طالع من الميه بعد نصف الليل ومعاه جنيه !! »

خبطت الجارة صدرها بكفيها ، وبرقت عيناها وهى تقول فى جزع :

« ياهوى ، ماهو أبوه عمل كده ، وكانت آخرته معاها تحت الميه ! »

ولثلاثة أسابيع بطولها ، لم يكن لرجال الشاطىء أو نسائه من حديث سوى حكاية حنفى . . . كان الحديث عن السفينة قد بدأ يفتر ، وكلما مر يوم أحس الرجال أن أعناقهم محاطة بأطواق من حديد تجذبهم نحو هاوية لاقرار لها ،

واستولى اليأس على أغلبهم ، واسودت الدنيا فى وجوههم .. فرغم مناقشاتهم العديدة فى المقاهى والبيوت وحتى فى الغرز ، الا أنهم لم يستطيعوا أن يجدوا حلاً للمشكلة .

كان عبد الموجود حمدان قد اختفى تماماً من الشاطىء ، وأعلن رجاله عن رغبته فى بيع قواربه ، وراحوا يقضون أيامهم متسكعين فوق الرصيف وعلى المقاهى وفى الغرز ينشرون الحديث عن السفينة وعما ستجلبه لهم من خير . . . وعن أجورهم التى يقبضونها رغم أنهم لا يؤدون عملاً . . وتمادى بعضهم – بايعاز من عبد الموجود – فتحدثوا عن الخطابات التى يرسلها الخواجة الانجليزى الى المعلم عبد الموجود ، وعن توصيته له بأن يدفع أجور الرجال دون انقطاع ، بل وأن يبحث عن رجال جدد ينضمون إلى طاقم السفينة .

وفجأة . . . انقطع الحديث عن عبد الموجود وسفينته ، انقطع عندما همس أحدهم فى أذن صديق له بخبر حنفى والجنية ، ولم يستطع الصديق أن يحمل الخبر وحده ، فنقله الى آخر . . . وما إن غربت شمس ذلك اليوم ، حتى أصبح الخبر محور كل كلمة تقال ، وكل حديث يتصل بين الرجال .

حتى رجال عبد الموجود راحوا يشاركون فى الحديث برهبة وخوف ، ويسألون صاحب الخبر عما رآه . . . وكلما تحدث الرجل ، كلما انبهر الباقون . . . وعلى غير انتظار ، انفتحت أمام الجميع طاقة الأمل ، فتعلقوا بها وكأنهم فى حلم .

* * *

حدث الأمر عندما أرسل الرجل ولده ليشترى طعاماً بعد عودته من سهرة قضاها مع الصحاب ، وكان يقطن بيتاً قريباً من الشاطىء المهجور بالقرب

ن صخرة رأس التين . . . وما كاد الطفل يغادر حارة السعداوى ويستقبل الشاطىء ، حتى لمح شبحاً يطفو فوق سطح المياه ، فظنه فى البداية أحد تلك الصناديق التى يقذفها الموج بين الحين والحين اثر عاصفة هبت فابتلعت أمواجها احدى السفن ، كانت هذه الصناديق عادة ما تكون محملة بالبضائع التى يجد رجال الساحل فيها ما يدخل على حياتهم البهجة لأيام قد تطول أو تقصر حسب قيمة مافيها . . . اندفع الطفل نحو الشاطىء تخب قدماه فى الرمال الممتدة على طول الساحل وهو يمنى نفسه بصيد ثمين ، وأخذ يقترب حتى لاح له الشبح عن قرب ، فرآه على هيئة إنسان ، وجف فى البداية وانتابه الذعر ظناً منه أنه لابد وأن يكون أحد ملوك الجان الذين يسكنون قاع البحر ، لكنه سرعان ما استطاع أن يميز – فى ضوء القمر – وجه حنفى وهو يغادر المياه ، فتوقف مصعوقاً للحظة ، واستولى عليه الذعر ، وتذكر كل ماحكى له عن آل البلطى وسرهم الذى يكتمونه فى صدورهم ، ويوقفونه على أفراد عائلتهم . . . فاستدار فى حذر كالمخدر وهو يقتلع قدميه من الرمال فى صعوبة ، وأخذ يجرجر ساقيه وجسده يرتجف ارتجافاً شديداً متصلاً ، وشبح حنفى عند الشاطىء يملأ صدره بالذعر . . . وما ان ابتعد قليلاً حتى أطلق ساقيه للريح ، وظل يجرى بكل قواه حابساً فى صدره صرخة هائلة أطلقها عندما خطا الخطوة الأولى داخل الحارة ، ثم تبعها بصرخات متلاحقة سمعها أبوه ، فاندفع الرجل الى الخارج متلقياً بين ذراعيه جسد ولده المتهاوى ، وعبثاً حاول فى البداية أن يفهم منه شيئاً ، كان الطفل يرتجف ويرتجف وقد غاض لونه وابيضت عيناه من فرط الرعب ، على أنه استطاع بعد لحظات أن ينطق اسم حنفى البلطى ، ثم الجنية ، ثم الشاطىء . . . وراح يرتجف من جديد .

وكان هذا كافياً لبعث الأوهام فى ذهن الأب ، فسرعان ما حمل ولده الى

الداخل ، ونهر زوجته الباكية المولولة ، وانطلق الى الشاطىء وصدره يفور بـ
فيه من أحاسيس .

كان حديث الجن ــ حتى ذلك الحين ــ بالنسبة اليه غامضاً ومثيراً فى ذات الوقت ، لايخوض فيه الا بمقدار ، ولايتحدث عنه إلا بكلمات لاتغنى ولاتفصح عن رأى . . . لكنه ما كاد يستقبل الشاطىء فى تلك الليلة ، حتى لمح شبح حنفى منتصباً وسط الرياح الباردة ، عارياً كما ولدته أمه ، تتساقط المياة من جسده المبتل ، وجهته البحر العريض ، وظهره الى الشاطىء . . . كان حنفى جامداً لايتحرك وكأنه مشدود الى المياه بقوة سحرية ، وبدا للرجل طويلاً أكثر من المعتاد ، عريض الكتفين كأنه عشرة رجال ، شامخ الرأس كإله قوى قادر على اخضاع ذلك الموج العاتى لذارعيه الهائلتين !

راح الرجل يتحسس طريقه وسط هياكل القوارب القديمة الملقاة على طول الشاطىء حتى أصبح بينه وبين حنفى خطوات معدودة ، وهبت موجة عاتية وزحفت مياهها فوق الرمال حتى لامست قدمى حنفى الثابتين وغطتهما دون أن يتحرك هذا أو يظهر عليه أنه شعر بها . . . كان يحملق فى الظلام البعيد كأنه يرقب أحداً لايزال هناك . . . وسرى الخوف والذعر فملأ قلب الرجل ، وظل مكانه جامداً لايتحرك حتى ارتدى حنفى ملابسه على مهل ، ولف رأسه الكبير بلاسته ، ثم استدار ومضى فى طريقه الى المدينة . . . وظل شبحه العملاق منتصباً أمام عينى الرجل حتى اختفى . . . ووقتها فقط ، استطاع صاحبنا أن يتحرك من مكانه ، وأن يمضى الى بيته .

***

ووصل الخبر الى كل أذن . . . وازداد الهمس بين الرجال وهم يكتمون الأمر عن أفراد البلطى ، وراحت مخيلاتهم تنسج وتبنى وتشيد ، حتى استقر اليقين فى اذهان الجميع أن حنفى لابد سيصنع شيئاً . . . لابد أن يحرض

زوجته وأولاده الساكنين فى قاع البحر على اغراق السفينة قبل وصولها ، أو يطلب منهم أن يثيروا عاصفة هوجاء تودى بالسفينة ومن فيها . . . وساعة بعد ساعة ، ويوماً بعد يوم ، أخذ الحديث يتشعب وتتولد له اطراف جديدة . . . ومن رجل إلى رجل كانت الحادثة تزداد غموضاً ، وتضاف اليها أحداث !!

تذكر أحدهم أن حنفى صرخ فى ذلك اليوم الذى هرب فيه عبد الموجود من المقهى الزجاجى أن هناك حلاً ، وعندما سأله الرجال عن الحل لم يفصح . . ثم تذكروا جميعاً ما حدث بعد ذلك ، فقد نهض حنفى بصحبه محمود واختفيا طيلة النهار حتى ظهرا فى صبيحة اليوم التالى . . . وقال أحدهم وهو يخبط ركبته بكفيه :

« أيوه آنى فاكر كويس ، محمود راح البوظة بعد نصف الليل ، وحنفى ماكانش موجود . . . يبقى كان فين يارجالة ؟! » .

ومضوا جميعاً فى الحديث متحمسين متشبثين بذلك الأمل الذى بدأ لهم وسط كتل اليأس كمصباح باهر فى ليلة حالكة السواد .

واجتاحت الشاطىء موجة من الأمل أغرقت النفوس ، فبات الرجال ــ مؤمنين بظنهم أشد الايمان ــ ينتظرون حلول الفرج بين يوم وآخر ، وقد ران على نفوسهم رضا لم يعهدوه فيها منذ أيام طويلة .

وأصيبوا بعد ذلك باستسلام شديد ، وتبدل حالهم من اليأس الى الأمل ، وزحفت الابتسامات على وجوههم من جديد ، وتغيرت نظراتهم لآل البلطى . . حتى تحياتهم لحنفى ولرجال الزقاق راحوا يلقونها عليهم باحترام شديد ، ويقابلون عجب حنفى ودهشته ، بنظرة من يعلم بواطن الامور ، ويقولون لبعضهم فى همس : « ماهو مش عاوز حد يعرف أحسن تأذيه زى ماأذت أبوه ! » . . . حتى عندما صاح حنفى فى بعض الرجال ذات مساء :

« أنتم نايمين يارجالة ؟! . . . ايش قولكم فى اللى حاصل ده ، الأيام بتجرى وانتم ولا هنا ، آنى سمعت أن عبد الموجود قال إن المركب واصل بعد شهر !» .

يومها صاح فيه أحدهم :

«البركة فيك يامعلم حنفى !»

وكانت هذه المرة الأولى التى يقرن اسمه بلقب معلم من رجل فى مثل سنه أو يزيد ، وقد بهت حنفى وأخذ يحملق فى الرجل مغيظا ، ثم صاح فى ضيــق :

« قصدك ايه يابن أبويا ، ايد لوحدها ما تصقفش ، لازم تتفقوا على حاجة ! »

وصاح آخر فى مرح وحمـــاس :

« كلنا رجالتك يابو الأحنـاف ! »

ونفـد صبر حنفى ، وكست ملامحه سحابة يأس شديد ، فأشاح عنهم وانتحى جانباً وقد غرق فى الهم . وعاد الرجال ـ مطمئنين ـ الى ما كانوا فيه وقد ازداد استعذابهم لالقاء المسئولية على كتفى حنفى ، بل على غيب كانوا يقاسونه . . .

حتى رجـال الـزقاق سرت اليهم العدوى ، وأصبحوا وكأنهم نسوا كل شىء ، وعادت الحياة تسير سيرتها الأولى وكأن شيئا لن يحـدث .

وكلما بدا حنفى مطرقاً صامتاً قليل الكلام ، كلما أيقنوا أنه لابد يدبر الأمر أو ينتـظر التنفيذ ، وأنهم سيصبحـون ذات يوم ليجـدوا المشكلة قد حلت وكأنهم كانوا يحلمون لا أكثر . . . كيف لا ، ومحمود البلطى عاد سيرته الاولى

ولم يعد يزور الشاطىء الا لماماً ، ولم يعد يناقش كما كان يفعل فى البدايـة . . .

ثم حدث أن أقترب أحد الرجال من حنفى وسأله باسـما :

« مالك ياحنفى كفى اللى الشر ؟! »

ويقسم الذين حضروا تلك الواقعة ، أن حنفى لم يفعل شيئاً سوى أنه رفع عينه الى الرجل ، ثم انطلق منهما ضوء باهـر !

ولم يذكروا ، بل لم يتذكروا أن حنفى نهض صارخاً :

« ملعون أبوكم ، انتو عاوزين تاكلوها بالساهل ؟! »

وان الـرجـل لم يشر لثورة حنفى ، بل ضحك وهو يتغامز مع أصحابه غمزات من يعرف السر ويطلع على الغيب !

وقد ضاق حنفى يومها بكل هذا ، فنهض لاعنا ومضى فى سبيله ، وما كاد يبتعد خطوات ، حتى علت ضحكاتهم وصكت أذنيه ، فاتجه الى البوظة لايلوى على شىء !

— ١٨ —

رغم كل شىء ، كانت زوبه سعيدة ، فلم يعد هناك شك فى أن حنفى يحبها ، ومنذ تلك الليلة التى حملها فيها الى الحجرة الخالية ، والدنيا قد اكتست فى نظرها بأزهى أوانها ، وتعطرت بأجمل روائحها . . . أجمل أوقاتها تلك التى تختلس فيها اللحظات فى حجرتها الجديدة ، تتسلل اليها فى الليل أو النهار ، تقبع فيها وحيدة الا من خيالها المعربد الثائر . تعيش لحظات وهى نشوانه بذكرياتها ، تدفن رأسها بين كفيها ، وتقبل يديها وكأنها تقبل حنفى . تمتص أصابعها وتلوك لسانها وكأنها تستحلب ريقه العذب . . . تنسمت فى تلك الليلة انفاسه ، فلم تفارقها رائحته رغم مرور الأيام الطويلة ، راحت تتجول فى فراغ الحجرة بعينيها ، وترتب بخيالها أثاث بيتها الجديد ، وتحلم . . . وفى الحلم كانت تعيش أعذب أمانيها وأحلاها . . . انقشع الحجاب ، وهوى الحائط الذى كان يفصلها عنه . . . من فى الدنيا يفوقها سعادة ؟! . . . كيف يحزن الناس كل هذا الحزن من أجل سفينة صيد جديدة ؟! . . . لماذا يعيشون وكأنهم فى مأتم ؟! . . . لولا أنباء تلك السفينة

لتم زواجها . . . توقفت الحياة على الشاطئ ، وفى الزقاق وكأن الناس ينتظرون قيام الساعة ، ولو كان الأمر بيدها لقتلت عبد الموجود حمدان وأراحت الرجال منه ، ولو كان بيدها لقطعت لسان عائشة وارتاحت من غمزها ولمزها . . . ورغم كل ما حدث ، رغم كلمات حنفى ، ورغم أنها كشفت سرها وعرفت ما بينها وبين السيد أفندى ، فهى لم تكف ، تزحف كالأفعى متلصصة الى كل مكان توجد فيه ، وتنفث فى الهواء كلماتها كالسم ، وتلاحقها بالتلميح أينما ذهبت ، وترسل الخوف الرهيب الى قلبها بلا رحمة ، ولا تكف عن تعذيبها . . .

منذ أيام وقف حنفى ـ وكأنه أحس بعذابها ـ وسط الفناء وألقى عليها التحية بصوت رنان ثابت وكأنه يعلن حبه للجميع ، مد اليها يده مبتسماً ـ لكن ابتسامته كانت ما تزال منكسرة ! ـ والتقط يدها وراح ينظر فى عينيها . . . ومرت لحظة سقطت بعدها كلمات عائشة فوق رأسها كالمطارق . . . تسللت كعادتها الى الفناء ، ووقفت تنظر اليهما تبتسم فى خبث وهى قائلة :

« أنت لسه هنا يا أخويا . . . آنى بنحسبك اتوكلت ! »

وارتجفت هى ، حاولت الفرار . . . لكن حنفى تشبث بيدها ، ورفع عينيه نحو أخته ، وقال فى صوت باتر :

« فيه حاجة ياعيشه ؟! »

واندفعت عائشة نحو الحمام وهى تتعثر ، وغمغمت بكلمات لم يسمعها أحدهما . وابتسم حنفى فى انتصار ولا مبالاة ، وضغطت أصابعه على يدها فى قوة ، وتألمت ، لكنها استعذبت الألم فتأوهت مبتسمة وهى تقول فى دلال :

« ايدى ياسى حنفى ! »

خفف قبضتــه ثم قال :

« آنى مش ناسى يازوبه ، لما الحال يتعدل حانكلم أبويا صادق وربنا عالم اللى فى قلبى يابت خالتـى ! »

ابتسمت ولم ترد ، زغـردت الـدمـاء فى عروقهـا ، والتهبت وجنتـاها . فخفضت عينيها فى خجل حقيقى ، وعاد صوته يدغدغ أذنيها :

« ايش قولك يازويـه ؟ »

« القول قولك يابن خالتى ، آنى خدامتك »

جذبها نحوه فى جسارة وهو يقول مداعبـا :

« وبعدها معاكى يابت ؟! »

« وبعدها معاك انت . . . يـوه ! »

الغريب أنها هى التى جذبت يدها من يده ، وانها هى التى فرت وتركته . ولو طاوعت قلبها لعادت اليه وأعادت كفها الى كفه . . . لماذا نتدلل ونحن نعيش أجمل أوقات عمرنا ، ألا يضيّع دلالنا لحظات من الممكن أن نسعد بها ؟! . . . أكانت تدعوه عندما فرت الى حجرتها ؟!! . . . لاتدرى ، وأن كانت تدرى عن يقين أنه لن يتبعها . . . الحياة بين عينيه عمر لاتعرف النساء حلاوته . . . كيف تفكر وكيف تحسب وبم تشعر ؟! . . . توقف كل شىء حولها ، وأحست أنها تسبح فى الفضاء وقد انتشت روحها بالسعادة و . . . ولـذة عربيدة تسللت الى جسـدهـا . . . ومـا عاد يهمهـا أحـد ، حتى عائشة . . . فعندما قابلتها فى الفناء بعد ذلك واجهت عينيها فى جسارة . . . وانكسرت عينـا عائشـة فى ذلك اليوم . . . فلم تتركها ، بل لاحقتها بعد لحظات وسألتها بابتسامة عابثـة :

« مالك يا عيشة ، آنى شايفاكى اليومين دول ياختى زى اللى فى قلبك حاجة عاوزة تقوليهـا ؟! »

رفعت عائشة اليها عينين يطل منها غضب وثورة ، ورسمت على شفتيها ابتسامة صفراء ، وتقدمت منها خطوة ثم قالت متحديـة :

« ولا حاجة يابت خالتى . . . بس يعنى . . . »

« بس يعنى ايـه ؟! »

« يعنـــى . . . »

« عيشه . . . عيب عليك العمايل دى ! »

« ومش عيب عليك تخطفى أخويا منى ؟! »

ارتجف قلب زوبـه ، ثم هدأ . . . وصعدت من أعماقها ابتسامة هانئة ارتسمت على وجههـا . . . ليكن ، لتقـل ما تقـول ، لتـتركهـا لنارهـا تأكلهـا . . . ولكن ، لماذا تتركها ؟! . . . لماذا لاتنتقـم ؟!

الدنيا جميلة رغم أنفها وأنف عبد الموجود حمدان ، السيد البلطى سيصبح حماها عن قريب . . . كثيراً ما تساءلت ، كيف ينجب أعظم الرجال هذه الأفعـى ؟!

« هو آنى جريت وراه يا عيشة ، ابن خالتى وبيسلم على ، وانتى مالـك ؟ »

« أخـــويا ! »

« اسم الله ، آهو عندك ، حوشيه لو قدرت وابعدى عنى آنى ! »

من أين جاءت بكل هذه السخرية ، كيف نطقت هذه الكلمات ؟ ، بدا لها الأمـر غريبـا ، وان كان الأغرب هى تلك النشوة التى كانت تحسها ، شعـرت برغبة شديدة فى الضحك ، بل فى الغناء ، وفى الذهاب الى عبد الموجود حمدان ، وصفعه ، والبصق فى وجهه . . . تركتها عائشة دون كلمة ، ووقفت وحـدها وسط الفناء يرتجف جسدها بألف انفعال . . . ريثما وعى تبعث عائشة ، دلفت الى الحجرة وألقت التحية على خالتها وجلست بجوارها

وراحت تهز ساقيهـا وتبتسم فى استهـانة . . . ثم أخذت تحدث خالتها ، راحت تثرثر وتثرثر وتضحك وتتحدث . . . حتى سألتها عائشة :

« مالك مفرفشة النهاردة قوى كده يا زوبـه ؟! »

فردت فى جســـارة :

« يوه . . . ربنا يديم المعروف ياعيشـة ! »

« اللى واكل عقلـــك . . . »

« ينتهى به . . . ربنا يهنيه ويسعده ، اسم الله ! »

وضحكت خالتها وهى تقـــول :

« والله انتوا فايقين يا بنـــات »

ولا تدرى كيف مضى ذلـك اليوم ، مضى دون أن تنطفىء النار التى اشتعلت فجأة فى قلبها . . . ومرت أيام ، وازداد اضطرام النار وكأن أحداث الحياة لهيب يزيد من حرارة حبها ودمائها ! . . . هموم جاءت فوضعت فوق الهمـوم ، شح الصيد أسبوعـا ، وعاود حمودة المرض ، ولم يتغير فى الحياة شىء ، السيد أفندى يروح ويجىء ، يعود حموده وأم حنفى ويجالس الرجال ويسهر فى الزقاق ويتهامس مع عائشة ، فلماذا تقتل حبها ، وتحمل الهم وحـدها ؟ . . .

تلصصت ذات يوم لتسمع همس عائشة مع السيد أفندى فاصطدمت قدمها بكوز ملقى على الأرض ، فافترقا قبل أن تسمع شيئاً ، وجاءتها عائشة وفى عينيها غضب هائـــل :

« زوبه ، آنى بينى وبينك حاجة يابت خالتى ؟! »

كانت تصرخ كالمجنونه وكأنها فقدت وعيها . . . وقالت زوبه بصوت هادىء :

« ليه ياعيشة ، هو آنى عملت لك حاجة ياختى ؟! »

« لأما عملتيش ، الكوز هو اللى عمل . . . تكونيش فاكرة كل الناس زيك يا أم عين قارحـــة ؟! »

« عيشـــة ! »

« أسم الله عليكى ياختى ، مالك ، خوفتينى ! »

« عيشـــة ؟! »

نفـد صبرهـا ، وانـدلعت نار العـذاب فحرقت فؤادها ، وراحت تنظر لعـائشـة وهى تتأود وتصيح وتصب عليها غضبا كالطوفان ، كانت تصرخ وتسب وتلعن ، فلماذا تصمت ، وما الذى يسكتها ؟ . . . فلتسبها وتلعنها هى الأخـرى ، فمم تخاف ؟ . . . لابد اذن أن فى الأمر شيئا ، والا ، فما الذى أثار غضبها ؟ . . . لتهوى بكل غيظها على صدغ عائشة ، ولتتحمل صفعة كفها ، ولتشد شعرها ، ولتتحمل شد شعرها . . . نحيفة كالصرصار لكنها فى قوة غول . . . صراخها يعلوا فيملأ الزقاق . . . وللصراخ لذة ، وللدموع لذة ، وللعراك نشوة ! . . . انقلبت الدنيا ولفظت البيوت سكانها وامتلأ الفناء بالنساء ، عطيات وزغداته وحسنيه وأم محمود و . . . وكلهن كلهن تجمعن ، والدماء تسيل من أنفها كما تسيل من فم عائشة . . . أعذب أمـانيهـا أن تقبل الآن ابنة خالتها وتبكى على صدرها وتقول لها : « احنا لبعض يا أختى ! » ولكن . . . كيف تفعل وصرخات عائشة تدوى ، فلتدو صراخـاتهـا هى الأخـرى . . . يسألونها عن السبب ، فهل تقول ؟ . . . لتصرخ فيهم فما أعظم القوة وألـذها :

« أسألوها أم لسان طويل قليلة الأدب ! »

ويسألون عائشة ، فتبكى فى أستكانة وذلة وهى تقول :

« الله يسامحك يازوبه ، كده برضه ؟! »

وازداد اضطرام النار فى قلب زوبه ، كادت تجن وهى ترى الشرك الذى نصبته لها عائشة بذكائها ودهائها . . . قالت أحداهن :

« ليه كده يازوبه ! . . . دى عيشة حتى منكسرة ! »

وصرخت زوبه . . . صرخت ، صرخت ، صرخت :

« أسألوها . . . أسألوها . . . سيبونى فى حاااالى ! »

وعادت تصرخ ، وتبكى ، وتمزق شعرها ، وتلطم خديها . . . وتسمع خالتها وهى تقول بصوتها الثاقب :

« أنتى مجنونة يابت ، ايه اللى جرى لك ؟! »

وتصيح بكل صوتهـــا :

« آنى ياخالتى ، آنى مجنــونة ؟ »

«أمال ايه عمايلك دى . . . صوتـك طالع لآخر الزقاق ، والله عال ، الكبير والصغير بيتفرج النهارده على نسوان البلطية ، أصل الزقاق مابقاش فيه راجل يحكمه ويخزم نسوانه . . . لو كان السيد موجود مكانتش واحدة منكم قدرت تطلع صوتها ، انت فين ياسيد . . . أنت فين تيجى تشوووف . . . فينك يازين الرجاله ، ياحسرتى ! »

كان الصمت قد ساد عندما تحدثت العجوز ، وراح صوتها الرفيع يتموج فى جو الفنـاء ، وانهمـرت دموعها فجأة فغطت وجنتيها . . . ومصمصت النسوة ، وجمدت زوبه وهى تحملق فى العيون التى راحت تتهمها ، وقالت عطيات بصوت خفيض :

« مش عيب عليكم يابنات ، هوه احنا ناقصين ، كفاية اللى بيجرى على الشط ، كفايه ياولاد ما حصل فى الأيام السودة دى ! »

وقالت زغدانه وصوتها مختنق بالبكـاء :

« والنبى أبويا ما بيشوف النوم ، كل ما تيجى اخبارية أن المركب واصله ، يقعد والهم راكبه . . . ولا حد حاسس ، حتى الرجالة بقت حالتهم حال ولا كأنهم هنـا ! »

ولم تعد زوبه تطيق أكثر من ذلك ، جالت بعينيها الدامعتين فى الوجوه ، ثم صرخت فيهن فجأة وكأنها تصد عن نفسها شراً داهما :

« ماكلنا كده ياأخواتى ، اسألوها مالها ومالى . . . هو أنا اللى على الحق ؟! »

ثم سكتت فجأة . . . واندفعت نحو حجرتها وأغلقتها عليها .

لتنطبق السماء على الأرض ، ليُغرق البحر العالم بأمواجه ، لتصعد الجنيات والشياطين من أعماق المياه ليحرقوا كل حى ، ليحدث ما يحدث فما عادت تطيق ، أصواتهن تصل اليها وهى تعلم أنهن لن يصمتن حتى تغرب الشمس ويأتى الرجال ، وساعتها لن تستطيع احداهن أن تفتح فمها بكلمـة . . .

لمن تعيش ؟! . . . ولم تعيش ؟ . . . ومن سيحميها ؟!

طوال عمرها وهى تشعر أنها كالمنبوذة ، أب اذا جاءها فلكى يأكل وينام ، واذا غادرهـا فلكى يعمـل أو يجلس على المقهى ، وأم ماتت وهى طفلة ، وقلبها تعلق برجل ، ولا زال الطريق اليه طويلاً ! . . .

كم عانت وكم تعذبت . . . فهل شعر بها أحد ؟

طرقة على الباب . . . لماذا لايتركونها ؟

طرقـة أخـرى . . . هى تعلم ما سيحـدث ، سيدخلن عليها ويجذبنها لتصـالـح عائشـة . . . وسيتم الصلح ، وستقبل رأسها ، وستقبل عائشة

رأسها ، وستبكيان لدقائق ، ثم تبتسمان ، وستصفو نفسها لا محالة . . . فيكف يكره القلب الذى ذاق حلاوة الحب ؟ . . . والله ما كرهت فى حياتها شقيقة حنفى . . . طرقة ثالثة ونداء ملح . . . لتسلم أمرها الى الله .

« ميــــن ؟! »

— ١٩ —

كانت طيور النـورس البيضاء تملأ سماء الميناء مرفرفة صائحة فى ضجة ومرح ، وراح المعلم محمد البلطى يرقبها فى انقضاضها السريع على صفحة المياه ، وارتفاعها عنه ، وتجمعها حول صيد طاف على السطح الذى أخذ يتلاعب بعد سكون ، وافتراقها فى الهواء وهى تصفق بأجنحتها طربا . . . وما لبث العجوز أن استدار بوجهه نحو حنفى القابع عند مقدمه القارب ، وقال وهو يقبض على طرفى المجدافين :

« هو محمود سهر امبارح فى بوظة شـلوفة ؟ »

صمت حنفى ولم يرد ، وتشاغل بجذب حبال الشبكة ، وكأنما كان فى صمته الجواب الكافى ، فلم يهتم العجوز [illegible] الرد ، وعاد يسرح مرة أخرى مراقبا طيور النورس وهى تتزايد فى ضجة وصخبها . . . وما لبث أن قال :

« النورس هاجم قوى ، والنوة نازلة ياحنفى . . . حاتقعد لها بالقليلة أسبوع ! »

كان تجمع طائر النورس هو علامة هبوب الرياح ، ما إن يتكاثر عدده ، ويملأ صراخه الفضاء ، حتى يعرف أهل الشاطىء فيه نذيراً بعاصفة قوية . . . وكان حنفى يرقب الطيور فى صمت ، ولا يجد لديه ما يقوله لعمه . . . ذلك أن ذهنه كان مشغولا بما فيه من أفكار متلاطمة سوداء ، يشعر بأيامه تمر ثقيلة ، وبالرغم من تناثر الاشاعات فى الأيام السابقة عما حدث لعبد الموجود حمدان ، ورغم ازدياد سريانها بين الرجال الذين تلقفوها فى شوق وكأنها المعجزة . . . الا أنه ـ ولا يدرى السبب ـ لم يستطع تصديقها بل رفضها فى حيرة ، وكلما ظهر الاطمئنان على وجوه الرجال ، وكلما عادت حياتهم الى ما كانت فيه من طمأنينة كلما أحس بالقلق والتوتر . . . وازداد شعوره بالوحشة والوحدة ، وأضيف الى همومه هم جديد ، لماذا . . . لماذا يجد نفسه دائماً فى ناحية ، والرجال فى ناحية أخرى ؟

يقولون إن الإنجليزى الذى دفع له عبد الموجود نقوده لم يكن سوى نصاب ، فقد مرت الشهور دون أن يظهر للسفينة أثر ، بل إن عبد الموجود عاد يرسل رجاله بقواربه العديدة التى لم يجد لها مشتريا . . . قالوا هذا وصدقوه واطمأنوا اليه ، وراح حنفى يسألهم فى قلق : « هل حلت المشكلة بهذا ؟! » . . . كان يرى كل شىء كما هو ، لازالت الاسماك فى جوف الماء لاتصل اليها شباكهم ، ولا زال الرجال ـ رغم ما جمعهم يوما ـ متفرقين ، من يملك قرشا يضعه بين أسنانه فى حرص ويخفيه عن الناس ، ومن يملك الفقر لا يسأل ولا يبحث بل يستسلم لحياته فى وداعة ! . . .

ثمة خاطر خطر له ذات مرة وهو فى طريقه الى البيت ، ماذا لو جاءت السفينة فجأة ؟ . . . ماذا لو أصبح الصبح فوجدوها راسية على الرصيف شامخة كغول يهدد حياتهم وبيوتهم ؟ . . . كيف يصحون من الحـ

وقتها ؟ . . . واذا فرض وكانت الاشاعة حقيقية ، ماذا يحدث اذا أشرق فجر آخر ووجدوا رجلا آخر قد أشترى سفينة أخرى ؟!

قال ذلك للرجال بالأمس فقط ، قاله لهم وتحمل فى صمت وحزن ما انهال عليه من صيحات واستنكار صبوه من أفواههم بلا حساب ، وطلبوا منه بعد ذلك أن يوحد الله ويصلى على النبى . . . وأكدوا له أن الخبر صحيح ، ثم أخذوا يتغامزون فيما بينهم تلك الغمزات التى كانت تثيره . . . ماذا وراءها ؟ . . . عبثا ، عبثا حاول أن يعرف !

استدار نحو عمه ، وانتزع لسانه من مكمنه وهو يسأله :

« ايش قولك ياعمى فى حكاية عبد الموجود ؟ »

بوغت العجوز بسؤال ابن أخيه ، فنظر فى وجهه متفحصا ، كان تفكيره فى تلك اللحظة بعيداً كل البعد عما كان يدور فى ذهن حنفى ، لكنه سرعان ما تمالك وقال مبتسماً :

« ايش قولك انت يا حنفى ؟ »

قال حنفى فى قوة وصرامة :

« آنى مانيش مصدق ان الحكاية طلعت نصب ، هو ده معقول يابا ؟ . . . دى الحكاية فيها محامى وشهود وشهر عقارى ! »

« هم الانجليز يعرفوا ربنا ياحنفى . . . آهم بيقولوا . . . »

قاطعه حنفى فاقد الصبر :

« بيقولوا ايه ؟ . . . . »

« الواد رومه رجع يقول أن المركب واصل خلاص . حلف لى الصبح أنه شاف التلغراف بعينه ، لكنى آنى مش مصدق . . . ابن القديمة ده يعرف

يفك الخط عربى لما حايفكه انجليزى . . . ثم ان عبد الموجود نزل قواربه الميـه تانى ! »

« وروومه شاف عبد الموجود فيـن ؟ »

« آل امبارح قابله عند أبو العباس ، راح منادى عليه وقال له استعد يا رومه المركب خلاص واصل ! »

« آنى كنت عارف يابا . . . عارف وحياة النبى ! »

« انت بتصـــدق ؟! »

قالها المعلم محمد فى حماس جذب اليه عينى حنفى ، فضيق هذا ما بين حاجبيه فى غضب ، وقال متحمسا :

« ليه ما صدقش يابا محمـد ليه ؟ . . . مين الـلى قال ان المـركب مش حاتوصل ، دول كل يوم يطلعوا بحاجة جديدة لأجل ما يدوخونا فى دوامة ما تبطلش دوران ! »

ثم اعتدل فى جلسته وكأنه عثر على برهان وعاد يقـول :

« شوف يابـا . . . من مده عبد الموجود ساب الرجاله فى القهوة وجرى بعيد ، بعت رجالته يدللوا على اللى يشترى قواربه ، وهوب لقيناه كأنه فص ملح وداب ، بعـد شوية سمعنـا أن المـركب مش واصـل وأن الانجليزى نصاب ، واللى قالوا كدة رجالة عبد الموجود برضه ، وبعدين القوارب نزلت الميه . . . وبعدها عبد الموجود بلسانه قال لرومة أن المركب واصل . . . فين الحق يابا ، حد يعرف فى ده كله فين راسه من رجليه ، وحياة النبى ده مغرز لأجل ما يشحطط الرجالة يمين وشمال ، يوم كده ويوم كده علشان يتلهوا عنه ويسيبوه يدبر تدابيره . . . مش كده والا ايه ؟! . . . هيه ؟ »

« ما هم ياواد بيقولوا أن الـ . . . . »

« بيقولوا بيقولوا ، ما توحد الله يابويا ، هم مين اللى بيقولوا ؟! »

« جرى ايه ياواد . . . الرجاله ! »

« والرجاله ايش عرفهم ، عرفوا منين ، ماتصلوا على النبى أمال » .

« أما غريبة ، أنت جرى لعقلك حاجة ياواد ، هى المركب مخوفاك كده ؟! »

قال المعلم محمد ذلك وهو يبتسم فى اشفاق ، كان وجه حنفى قد اكتسى بلون الغضب الأحمر ، وراحت يداه تجذبان حبال الشبكة فى عصبية وتوتر ، ولكن الابتسامة لم تفعل شيئاً حيال ذلك الغضب الذى استولى على حنفى ، فعـاد يقول :

« آنى يابـا بنبص لقدام ، لبعيد يامعلمى لبعيد ، لو حصلت الحكاية دى ، لوجت المركـب ، حانعملوا ايه ؟، ايه اللى حانعملوه ؟! »

« فيـه رب اسمه الكريم ! »

« هى السما حاتشتى سمك يابويا ؟ »

« انت حاتكفر ياواد ، قول لا اله إلا الله ! »

« لا إله إلا الله محمد رسول الله ، بس كل شىء بالعقل ياناس . »

« قصـدك ايه ؟! »

ولم يرد حنفى . . . وسـاد الصمت بينهما ، وحلقت فوق رأسيهما طيور النورس الصارخة ، وهبت نسمة من الشمال ، فالتفتا دون وعى الى حيث كان الأفق ملبـدا بالسحب السوداء ، فاستدارا برأسيهما ، والتقت عيونهما للحظة خاطفة ، نهضا بعدها للعمل فى نشاط ودون توقف ، قبضت أكفهما على الحبال ، وراحا يجذبان الشبكة فى حنكة ودراية ، وذابت حرارة الحديث فى اهتمامهما بالصيد . . . بينما كان الرجال فى القوارب الأخرى المتناثرة فى

الميناء يفعلون نفس الشيء . . . وبدأت الصيحات تملأ الجو . .
« يامترلي ! » . . . « يابو العباس » ، وصاح المعلم محمد صيحته ، وصا
حنفي صيحته . . . وجذب كل منهما أفكاره بعيداً عن الآخر .

وما إن ظهرت الشباك على سطح المياه محملة بالاسماك ، حتى تكاثر ط
النورس ، وملأ الجو من حولها ضجيجاً وصياحاً ، وراحت أفراده تنقض عـ
الأسماك الصغيرة التى كانت تقفز من ثقوب الشبكة محاولة الفرار مـ
مصيرها . . .

كان ارتياح حنفي يعادل ضيقه لانقطاع الحديث ، ما إن سأله عمه ع
يقصده حتى وقع فى نفس الحيرة . . حقا ، ما الذى يقصده ؟ . . . وما الذى
يبغيه ؟ . . . الى أين يذهبون ؟ . . . وماذا يفعلون ؟ . . . ما
يفعلون ؟ . . . هل ينتهى بهم الأمر الى العمل عند عبد الموجـ
حمدان ؟ . . . أم ينتهى بهم الى النزوح من الشاطىء الذى عاصر أعظ
أيامهم ؟ . . . كيف ينتهى بهم الحال ؟ . . . أيذهبون الى رشيد ؟ . . .
يمضون فى طريقهم نحو الشرق وفى الشاطىء متسع للجميع ؟ . . . لـ
لكل بقعة ناسها وأهلها وصيادوها . . . والطرق جميعاً مسدودة ، عدا طر
واحداً ! . . . طريقا يظهر له خلال سحابات الظلام المتكثفة حول عقله
لكنه لايرى نهايته ، أو الى أين يؤدى ! . . . هل تستطيع قوارب الر
مجتمعة أن تقف فى وجه الطغيان الحديد ؟! . . .

أسراب القوارب تعود محملة برزقها ، لكنها غدا لن تجد سمكة فـ
شباكها . . . وأصوات الرجال تدوى بالغناء والمرح ، لكنها لن تعرف سـ
الصمت بعد أيام . . . لماذا فعل عبد الموجود ذلك ؟ . . . لماذا يقعون
دون سائر الصيادين تحت وطأة ذلك الغول المخيف ؟ . . . يقولون أن السفـ
تستطيع اغراق البر كله بالاسماك ، تستطيع أن تغطى البلاد كلها

أسوان ، والسفينة تجىء بسفينتين ، تماما كما يجلب القارب قاربين لو توفر الرزق وحنت المياه على الشباك .

ذراعاه تجدفان فى الطريق الى الرصيف ، وسحب العاصفة تتجمع وتزحف لتغرق الشاطئ بعد دقائق بالامطار ، ولتحيل سطح البحر الى جحيم . . . عمه يجلس فى استرخاء ورضاء وهو يدخن ، الرجال كلهم مطمئنون الا هو ! . . . فلماذا ؟!! . . . لماذا ؟! . . . .

« ايش قولك ياحنفى ؟ »
« خير يابا . »
« فى محمود . »
« ماله يابا ؟ »

« بنقول يعنى الواد مش حايفلح وينصلح حاله إلا لما نجوزوه ! »

وتوقفت يدا حنفى عن التجديف ، ونظر الى عمه غير مصدق ، الرجل يبتسم وكأن الدنيا خلت من الهموم . . . ما الذى حدث لعقولهم ؟
« ايش قولك يابن أخويا ؟ »
« القول قولك ياعمى ! »

ولو استطاع لصرخ فيه فيه : « انت مجنون ياعمى ؟ . . . احنا فى ايه والا فى ايه ؟ . . . » ، لكنه لا يستطيع ، لا يستطيع أن يقول ذلك لعمه ، ولا يستطيع أن يقنع الرجال بوجهه نظره ، ولا يستطيع أن يتزوج ! . . . و . . . ولا يستطيع شيئاً . . . محمود لن يوافق على الزواج ، كانت ليلة الأمس عرساً زف فيه محمود الى كايداهم ، رقص له الرجال وغنوا . . . لم ينقص سوى المأذون ليصبح كل شىء فى تمام أصوله ، طالما عجب لمحمود ولحبه . . . . قال له ابن عمه ذات مساء انه لم يقرب كايداهم ، وأنه لن يقربها ، كاد

يضحك منه ويتهمه بالجنون أو الخنوثة لولا كلماته الحزينة ، كلمات التصقت بقلبه ولم تفارقه حتى الآن . . . « ما اخبيش عليك ياحنفى ، الـولية وايلاتى . . . لكن نرجع ونقول ايه آخرتها ، حاناكل فى نفس الماعون اللى أكل فيه كل واحد ؟! »

« بنقول نجوزوه ونخلصوا يمكن يتكن فى حضن مراته ! »

« هو محمود ماله يابا ، ما هو زين فى وسط الرجاله . »

« وهو الجواز وحش ياواد ، طب والله العظيم لولا انى عارف أنك مستنى أختك لجوزتك من سنين ، دانا أبوك ياواد ! »

« كله بأمر الله يابا محمد . . . بكره تتعدل ! »

« تتعدل فوق . . . انها ابش قولك ؟ ماتشور على ياحنفي !! »

« والله يابـــا . . . . . . »

وصمت . . . وكان لابد أن يصمت . فماذا يقول ؟ . . . صرخات النورس تدوى فى أذنيه . . . وفكرة تضىء فى ذهنه ! تسطع بنورها الوهاج فيبتسم دون أن يعى . . . أيكون الأمر خاصا بعائشة ؟ . . . أيتزوج محمود عائشة ؟ . . ولم لا ؟ . . . بل لابد أن الأمر كذلك ، والا ، فلم يبتسم عمه ، ولم تحدث عن زواج عائشة ؟ . . . . قلبه ينبض فى مرح وكأنهم يزفونه الليلة الى زوبة ! . . . الرصيف يقترب ، والعرق يتصبب من جبينه رغم البرد القارس ، ودماؤه حارة تركض فى عروقه فى نشوة . . . لماذا فكر عبد الموجود فى شراء السفينة ؟ . . . ولماذا لايكون الأمر كما قال الرحال ؟! . . . نعم ، لابد أن الانجليز نصبوا على عبد الموجود وخطفوا منه نقوده . لماذا يحمل الهم وحده ، فيترك العنان لأجراس الفرح تدق فى قلبه كما تدق فى قلوب الكثيرين . . .

« بوجى ياحنفى . على ايدك . »

« على الله يابـــا . . . »

وصلا الى الرصيف ، قفز من مكانه خفيفا ، وحمل الاسماك فوق كتفه وكأن به قوة عشرة رجال . . . سيعود عمه للحديث وهما فى طريقهما الى الحلقة ، الوقت لايزال مبكراً فلن يذهب الى المقهى . . . . محمود يتزوج عائشة . ويتزوج هو زوبه . . . ولكن ، أيرضى محمود أن يتزك كايداهم ؟ . . . وهل يقبل هو أن يزوج أخته من رجل تعلق قلبه بامرأة فاحشة ؟ . . . أيلقى بشقيقته الى أحضان رجل يحلم بموسى ولو كان هذا الرجل هو محمود ؟! . . .

الطريق طويل ، وبشائر المطر راحت تتساقط رذاذاً يغسل وجه الدنيا من حوله . . . وعمه يسير بجواره مطرقاً ، ولو طلب عائشة فلن يستطيع أن يرفض ، لن يستطيع أن يقول لا . . . وسترحب أمه ، وتفرح أخته ، وربما يذعن محمود . . . ستلتقى عيونهما فماذا يقول وقتها ؟ . . . حتى الفرح لابد له من نغمة حزينة ؟!

«تعرف ياواد ياحنفى ، آنى خايف نموت قبل ما نفرح بيكم ونشوف ولادكم ! »

« ربنا يديك طولة العمر يابا . . . بكره تتعدل . »

« قلت فى عقل بالى نجوزوه قبل ما نموت . . . ومن يوم حكاية الغرق دى ياحنفى وآنى قلبى بياكلنى . . . الواد سارح على حل شعره ! »

« ماتوحد الله يابا أمـــال . . . »

« بنقول لك ياواد من يوم حكاية الغرق وآنى بنفكر فى الموضوع ، هو لولا ابن المتعوس عبد الموجود كنت جوزته من ايامها ، حكاية جت زى القضا ، لاكنا عارفين نعيش ولا ناكلو لقمة براحة . . . ماهو كارنا كده ياحنفى ، يوم

البحر يديلك ، وعشرة ياخذ منك . . . انت ياواد شغلاك حكاية المركب دى . . . لكن افرض انها جت ، حانعملوا ايه يعنى ، نموتوه ؟ . . . كلام فاضى ، نقعدوا على الرصيف ونعيطوا ؟ . . . نبقى نسوان ، كل واحد برزقه ياحنفى ، ومحدش بيموت من الجـوع ! »

« ده صحيح يابا ، انما لازم نشوفوا حل قبل ما تطبل على دماغنـا ! »

« نشوفوا حل ؟ . . . ربنا موجود ! ، ده هم فوق الهموم ياواد ، ولما تيجى المركب يبقى يحلها حلال . . . امبارح بالليل قلت فى عقل بالى ، ازاى نوقفوا عيشنا على حاجة فى علم الغيب ؟ . . . ويعنى لوجت المركب حايحصل ايه ؟ . . . كل ما فيها اننا نشدوا حيلنا حبتين ، سعر الرزق حاينزل فى السـوق ، ده صحيح ، بدال ماترمى طرحه ارمى اتنين . . . وبدال اتنين ارمى تلاته ! . . . كده والا لأ ؟! »

« لأ . . . . ماهو ده مش حـل ! »

« شفت يابن السيد ، دماغك ناشفة زى أبوك . . . وآهو الكلام سرح بينا ، وبدال ماتتكلموا فى الفرح ، تجرنا بت الأبالسه سيرة المركب دى للغم ، سيبها لربك يعدلها ، قلت ايه بقى فى جواز محمود ؟! »

« انت شورته يابـا ؟! »

« هو آنى أعمى يابن السيد ، ما آنى عارف حكاية الولية اللى مرافقهـا ! »

« وليـــة ؟! »

« وقفت ليه ؟ . . . مد بينا ، هو آنى نايم على عنيه ياواد ، آنى عارف كل حاجة من زمان ، قله آهو شاب زى بقية الشبان ، جدع زى بقية الجدعان ، وبعـد ما كنت نسيت حكاية الجواز ، قلت نصبر شوية لما تتعدل وينصلح حاله ، رجعت نفكر فيها تانى ! »

« برضـه لازمن تشـوره ! » .

« هو يقدر يقول لأ . . . دآنى . . . »

« وحد الله يابا ، ده جواز مش لعـب ! »

« ماهو ده اللى آنى ناعى همه ياحنفى ، خايف ندى له بت الناس يمرمط بيها الأرض . . . ده اللى آنى ناعى همه ! . . . »

وسـاد بينهـما الصمت من جديد . . . ولاحت لهما حلقـة الأسـماك من بعيد . . . كان الرجال متناثرين أمامها وحولها ، يرحون ويجيئون فى نشاط ، وأصـواتهم تصـل اليهـما صارخـة بالأسعار . . . وهطلت الأمطار فأغرقت ملابسهـما ، وأسرعـا فى سيرهما . . . حتى اذا اقتربا منها ، برز حمودة من الداخل يحمل شبكته على كتفه ، وقفص أسماكه الخالى فى يده . . . وما كادا يصلان اليه ، حتى همس فى أذن حنفى بلهجة سريعة حاسمة :

« عاوزك بعد ، ما تخلص ياحنفى ! »

— ٢٠ —

رفع حنفى السلال الفارغة تحت إبطه ، واستدار نحو الباب وقد بدت على وجهه علامات اهتمام شديد . . . كان حموده لايزال مكانه منذ تركه حنفى ، وما إن رأى ابن أخته مقبلا عليه حتى تنفس ملء صدره . . . وسرعان ما لحق بهما المعلم محمد وهو يدس النقود فى جيب صديريته ، وما إن حاذاهما حتى انطلق الجميع مغادرين الحلقة .

* * *

ساروا بحذاء الشاطىء متجهين الى الغرب فلاحت لهم مقهى سلومة من بعيد ، واشتد هبوب الرياح وزمجرتها ، وعادت السماء تمطر رذاذا خفيفاً بعدما توقف المطر . . . عن يمينهم كان البحر يلد أمواجاً عاتية ، كانت تزحف فى جبروت ، ثم ترتمى على الشاطىء الرملى وتذوب فيه . . . وما هى إلا لحظات حتى اقتربوا من المقهى ، فتوقف المعلم محمد عن السير ، واستدار نحوهما وهو يقـــول :

« على فين . . . مش رايحين القهـوه ؟! »
فقال حموده على الفـــور :
« لا والله يابا محمد ، حانروح نشترى دوا من الميدان ! »
فقال المعلم محمد بصوت خفيض ، موجها حديثه الى حنفى :
« عاوز فلوس ياحنفى ؟! »
« لأ يابا . . . معـــايا »

« ما تاخدلك قرشين ياواد . . . »
« معايا كفايتى يابا ، لما نعوز نطلـب ! »
« ســلام عليـكم »

قالها المعلم محمد وهو يستدير ليعبر الطريق ، ومضى الرجلان فى طريقهما بلا كلمة . . . حتى قال حنفى فجـأة :
« خيـــر يا خالى ؟ »
« خير يا حنفى . . . خير ان شاء الله »

لاح لهما الشاطىء المهجور مريد السطح ثائر الامواج مصطخب المياه ، وعند نهايته كانت صخرة رأس التين بلونها الداكن ، تتلقى نهش الامواج فى صلابة وجبروت ، وسرعان ما غرق حنفى فيما كان يغرق فيه كلما لاح لنظره هذا الشاطىء، أحس فى قلبه برهبة لم يستطع تفسيرها ، خطف نظرة من وجه خاله الذى كان يسير بجواره منكس الرأس مستسلما لأفكاره ، وقد بانت على ملامحه علامات الهم . . . لاك حنفى فى ذهنه كل احتمال ، وتردى فى الحيرة كعـادتـه ، لكن عينيه سرعـان ما برقتا ، وتـوقفت كل أفكـاره عند ذلك الخاطر . . . ترى ، هل يبغى حموده الرحيـل ؟!

« على فين ياحنفـــى ؟! »
كان حنفى كعادته يجد فى السير نحو الصخرة الشامخة، لكنه انتبه على

سؤال خاله ، فابتسم فى وهن وتبع حموده الذى كان يعبر الطريق الى حا
السعداوى ، ومن ثم راحا يسيران من حارة الى زقاق ، ومن زقاق الى آخ
دون أن ينطق أحدهما بكلمة ، وكأنه يخشى الحديث . . . وراح حنفى
يتساءل وقد استحوذ عليه القلق ، سيثور الرجال فى الزقاق ، وستطو
المناقشات والأخذ والرد ، وليس هناك سوى حل واحد ، فالعقل يقول
لحموده ، ارحل ، ولكن القلب يتشبث به فى استماتة غير قادر على فراقه . . .
فأيهما يتبع ؟!

كانت المقهى التى دلفا اليها مكتظة بالرجال ، أغلقت أبوابها ونوافذها ،
فعبق الجو بالدخان وبخار الشاى والينسون ، وارتفعت طرقعات أوراق
اللعب وهى تصفع المناضد فى حماس مختلطة بصيحات استحسان ، أو
صرخات لاعنة ، وضحكات مرحة ونكات بذيئة !

اتجها الى أحد الأركان ، وألقى حنفى بسلاله الفارغة تحت قدميه ، بينما
دس حمودة سلته الوحيدة تحت المنضدة ، ثم أخرج صندوق سجائره ودس
احداها بين شفتيه . . . ونادى حنفى الجرسون ، وطلب الشاى ، ثم التفت
الى خاله وقال كأنه يزيح عبئا ثقيلا ناءت به كتفاه :

« خير يا خالى ، خير ان شاء الله ؟! »
« أيوه يا حنفى . . . كنت عاوز نقول . . . . »

وتوقف حموده عن الحديث وزفر فى ضيق وهو يخبط ركبته ببطن يده ،
وراحت عينا حنفى ترقبانه فى حنان ، فقد كان يعلم مقدار ما يعانيه خاله ،
ومقدار ما سيعانيه فى المستقبل ، على أنه أحس رغما عنه بالراحة تغمر كيانه
أن فكر حموده فى الرحيل ، وحتى تلك اللحظة لم يكن موقنا من الأمر ، لكنه
شىء كالالهام كان يلح عليه ، سيرحل حموده ولا شك ، سيرحل ويترك
الزقاق إلى مكان جاف الهواء يشفى علته . . . وتشاغل حمودة بسيجارته بينما

غاص حنفى فى تفكيره متسائلا : لماذا يتردد حمودة فى الإفصاح عما
يريد ؟ . . . سيقف الجميع فى وجهه ، وسينصره هو . . . سيهبون صارخين
لاعنين ، فيكف يفارق فرد من عائلة البلطى زقاقها ؟! . . . ووجد نفسه
يبتسم فى سخرية . . . فما جدوى الحياة والموت يتهددها بين لحظة
وأخرى ؟!

لماذا لايفتح الطريق أمام خاله . . . مسكين حموده . . .
« كنت عاوز نقول ياحنفى ، ايش قولك فى حالى ؟ »

أفصح يا خال فما عاد هناك وقت للتردد ، أقدم ياخال فما عاد فى صدرك
متسع للتراجع ، أتسألنى عن حالك ؟! . . . وجهك أصفر ، وعيناك
غائرتان ، وصدغاك شاحبان ، ورقبتك نحيلة . . . لماذا تسألنى وحشرجة
صدرك يسمعها جيراننا فى الزقاق المجاور ؟!

« ايش قولك ياحنفى ؟ . . . سكت ليه ؟ »
« حانقول ايه ياخالى ، حانقول ايه بس »
« ايش قولك فى حالى ؟! »

« حالك ؟ . . . اسأل صدرك يا خالى ، اسأل السيد أفندى ، اسأل
الحكيم وأنت تعرف حالك ! »

تهلل وجه حمودة وبرقت عيناه ، وأخذ يحملق فى وجه حنفى كأنه يراه لأول
مرة ، رفع كوب الشاى الى شفتيه ورشف منه فى تلذذ . . . إلى أى مدى يشبه
حنفى أباه ؟ . . . إلى أى حد يذهل ؟! . . . نفس الوجه ، نفس العينين
الشاقبتين ، نفس الأنف الكبير ذى الطاقتين الواسعتين ، نفس الشفتين
الغليظتين والشارب الكث ، حتى الذقن العريضة المستوية فى أسفل الوجه
وكأنها قاعدة بناء شامخ ! . . . ليس حنفى أكبر الرجال عمرا ، ولا أرفعهم

مقاماً ، لكنه أقرب الجميع الى قلوب الجميع . . . انه صامت فى حنان ينتظر حديثه ، وسيلقى بين يديه بما فى نفسه ، يكاد يوقن أن السيد ترك فى ولده سرا لايعرفه أحد . . . ترى، هل حدس حنفى ما يجول بخاطـره ؟ .

« ما هو علشـان كده يا حنفى كنت بتقول . . . »

« عاوز ترحـل يا خالى ؟! »

كأنه أزاح عن صدره عبئاً ثقيلاً ، ليتنفس فى حرية اذن ، وليجذب نفسا من السيجارة ، وليرشف رشفة من الشاى ، فقد اجتاز الخطر .

« ايوه ياحنفى ، العيال يا ابن أختى ، خلاص آنى مانيش قادر ! »

« والزقـــاق ؟! »

« صحتى ضاعت ياحنفى ، كل يوم والتانى أروح فى ايديكم ، ايش قولـك ؟ »

« على بركة الله ياخالى ! »

« يعنى أنت معايـا ؟ . . . »

« ما باليد حيلـة . . . بس . . . »

« بس ايه ياحنفى ، العين بصيرة واليد قصيرة ، آخر مرة جانى فيها الدور السيد أفندى اشترى الدوا من جيبه ، حرام ياناس دانى ما بننزلش الميه إلا بالعافيه ، القرشين اللى حيلتى خلاص ، راحو على الدوا ، هو آنى غريب على الزقاق ياحنفى ؟ دانى جيته وآنى ابن تسع سنين ، والمرحوم أبوك كان هو أبويا وأخويا ، وانت عارف ازاى جه الزقاق وازاى عمل العيله ، عشنا كلنا فى حجاه ، ولحم أكتافنا من خيره ، وسيرته لازم نحفظها ونصونها أى نعم ، لكن العمل ايه ؟ . . . هيه ؟ . . . العمل ايه ياحنفى ؟ »

كان حموده يتحدث ويتحدث وهو يرتجف من الانفعال ، راح يصب بين

يدى حنفى كل مايريد قوله ، واختنق صوته وغص حلقه ولم يكف عن الحديث :

« العمل ايه دلوقت ؟ . . . أبص للعيال وهم مهزولين قلبى ينقبض ، مش قادر يابن أختى نستنى ، ما يهونش على نموت ونسيبهم ، لازم نرحل ، لازم يا حنفـــى ! »

كانت ملامح حنفى تنطق بالألم الدفين ، اغرورقت عينا خاله بالدموع فانتفض قلبه بالأسى ، رسم على شفتيه ابتسامة وقال فى هـدوء :

« ونويت على فين إن شاء الله ؟ »

« حانتزل مشوار مصر ، ونجس النبض هناك ، ندور وربك يعدلها ! »

« حاتشتغل ايه فى مصر ، هو فيه صيد هنـاك ؟ »

« فى النيل ياحنفى ، لكن آنى مش حانشتغل صيـاد ! »

تقلصت ملامح حنفى فجأة ، واعتدل فى مكانه ، وراح يحملق فى خالـه :

« أمال حاتعمل ايه ياخالـى ؟! »

« آنى فكرت كتير يا حنفى ، ورسيت لى على بر »

« خيــر . . . »

« حانفتح دكانة سـمك ، نشتغل سمـاك ! »

« ســماك ؟! »

قالها حنفى وذهنه ينتفض بالانفعال . . . وعاد حمودة يقـول :

« أيوه ياابن أختى ، بقى صلى بينا على النبى ' »

ولأول مرة منذ زمن طويل كان حنفى يصغى لحديث ما بكل جوارحه ، كان قلبـه يضطرب اضطراباً شديداً ، لاح له الفرج عن بعد وكأنه طريق

الخلاص ، خاله يتحدث ويشرح ويحكى . . . هذا هو الحل ! . . . كيف لم يفكر فيه ؟ . . . بل كيف لم يعثر عليه ؟ . . . اذا باع حمودة قاربه وشبكته وافتتح محلا للاسماك لن يجوعوا . . . يصيدون صيدهم ، ويحملونه الى القطار بدلا من الحلقة يبيع خاله فى القاهرة رزقهم فيرُزقون ويرزقونه . . . ليفعل عبد الموجود ما بداله ، ليأتى بسفينتين أو ثلاث فلسوف يفعلون ذلك مهما طال الزمن ، ولو تجمع الرجال بقواربهم وشباكهم واتفقوا لاستطاع حمودة بيع أسماكهم بأسعار معتدلة . . . خاله يتحدث عن ثلاجة كبيرة معروضة للبيع ، ما أحلى حديثك ياخال ، لولا الملامة لقبلتك ورقصت وطربت . سيزداد الرزق ولن تتحكم فينا سوق الحلقة ولا أسعار تجارها . . . حقيقة هذه أم حلم ؟! . . . هذا . . . هذا وحده هو الحل .

« معايا يا حنفى ؟! »

« معاك ياخالى . . . معاك ، قول ، معاك قوى ! »

« دكانه زى ما قلت لك على قد الحال ، فى حتة لاهى كده ولا هى كده . يعنى بين البينين ، نحط فيها التلاجه ، وتبعتوا لى السمك أول بأول ، يوم بيوم ، وبدال ما نشترى من الغريب ، أنتو أهلى ، والعيشة تبقى معدن ! »

كيف حملت كل هذا فى صدرك دون أن تبوح به ، انه ياخال ماكنت أبحث عنه طوال الشهور الماضية ، ولكن اسمع فقد تفتحت لعينى طاقة الحياة :

« عاوز نقول كلمة ياخالى ! »

« خير يا حنفى ! »

« عبد الموجود مش حايقدر يأذينا بعد كده ، الرزق يوصل لك فى نفس اليوم ، نشوفوا مواعيد القطارات ، ونرتب أمورنا أول بأول ، ولو وافق الرجاله على كده ، قصدى الرجاله كلهم ياخالى ، تبقى انحلت ، يبيع عبد

الموجود مطرح ما هو عايز ، فى مصر مش حايقدر يضعف ، المركب بتغيب بدل اليوم عشرة فى عرض البحر ، والقارب على الله ساعة بساعة ، اليوم بيومه . . . فاهمنى يا خالى ؟! »

« قصدك ايه ياحنفى ؟ »

« يقى صلى بينا على النبى ! »

« ألف صلا على الحبيب !! »

— ٢١ —

فتح محمود عينيه ، وأجال بصره فى الحجرة ، فارتد إليه وعيه على الفور ، ونهض متثاقلاً وهو يتثاءب ويتمطى .

كان الظلام يسود الحجرة ، رغم تسرب بصيص من ضوء النهار من فرجة النافذة المواجهة للفراش ، التفت إلى يسارها فرأى مكان كايداهم شاغرا ، أجال بصره فى الحجرة ولمح على الكنبة بقايا سهرة الأمس . . . صندوق سجائر ، قطع ملونة من الورق لابد أنها لاتزال تحمل رائحة المخدر ، الجوزة قائمة عند قاعدة الشباك ، المجمرة متربعة وسط الحجرة وقد خمدت نارها ، لاسته ملقاة فى اهمال ، وحذاؤه عند الدولاب . . . و . . . وراح ذهنه يسترجع أحداث الليلة الماضية ، فلاحت له من خلال بقايا ضباب أزرق لازال عالقا بحواسه شاحبة مختلطة ، أحس بدوار ، وسعل . . . ثم ارتكن الى الوسادة وأغمض عينيه من جديد .

ترى . . . أين ينتهى به المطاف ؟!

تقلب فى مكانه ودثر نفسه بالغطاء ، ثم دفن رأسه فى الوسادة وهو يتثاءب ، انتظر أن تدلف كايداهم من الباب ، لكن اللحظات مرت وهو وحيد ، سمع همسا فى الخارج ، لكنه لم يفسره ، ولم يبال . . . طال انتظاره فنهض مائلا بجسده نحو الكنبة والتقط صندوق السجائر . . . أشعل سيجارة ونفث دخانها ، وسعل . تنبه وقتها أنه لم يخرج للصيد ، وهز كتفيه فى استهانة ، لابد أن يغضب أبوه . . . تصاعدت من فمه وأنفه سحب الدخان فعاد يلقى برأسه الى الوسادة .

ماذا بعد . . . ماذا بعد ياكايداهم ؟!

* * *

أذاقته بالأمس من فنون الحب ما لم يحلم به ، قدمت له جسدها وروحها وعبثت وضحكت ورقصت وبكت وتمرغت على صدره وسقته من خمر لم يذق ألذ منها . طلع عليه النهار حنوناً كحنو قبلاتها فى آخر الليل . . . هل يصدق ؟! . . . هل تملك المرأة مثل هذه الكنوز ؟ . . . ماذا قالت له ، وماذا قال لها ؟! . . . زفوهما بالأمس فى البوظة وغنوا ورقصوا ورقصت هى له وحده ، غنى وغنى ولم يكف عن الغناء حتى دفعوه الى صدرها . . . كيف بدأ الأمر ، وكيف انتهى ؟ . . . فقد المعلم جمعة بالأمس وقاره ، بكى وهو يغنى ودمعت عيناه وقال والدموع تنزلق على وجنتيه :

« نفسى نفرح بيك يامحمود ! »

كأنه والد يناجى ولده ، سمع ذات يوم أن للمعلم جمعه ابنا قتله الانجليز فى هوجة سعد ، أذهله بكاء الرجل كما أذهل الجميع ولم يستطع احد أن يسأل عن السبب . . . تركوه يرقص ويصفق ويغنى ويعب من البوظة أكوازاً وراء أكواز . . . تحول المكان إلى جمرة ملتهبة من الحياة والسعادة ، امتلأت البوظة بالرجال واختنق جوها بالدخان ، قلبه يحن إلى كايداهم وهو غارق فى

أحضانها ، لماذا تأخرت وماذا تفعل فى الخارج ؟ . . . ما الذى قاله من أ
بالأمس ؟ . . . لايذكر ، وان كان موقناً أن المعلم جمعة سيردد شعره
لتحيته . . . فجأة صاحوا فى الطبال والزمار أن يعزفا لحن الزفاف ، ضحـ
كايداهم حتى كادت تسقط من الضحك ، ثم أطلقت زغرودة ألهبت المشـ
وأدارت الرءوس .

صاح رجـــل :
« عاوزين عريـــس ! »
وصـــرخ آخر :
« آنى نفسى تتجــوز ! »
رد عليـــه ثالث :
« تتجوز مين يابن القديمـة ؟ »
فقال الرجل وهو يتمايل مترنحاً :
« أمك يابن أم جلمبـــو !! »
وضج المكـــان بالضحك . . .

انتهت السيجـارة ، فليشعل غيرها . . . أخذت الذكريات تتسلل من ظلام ذهنه فى تسلسل . . . نفسه تصفو وتشف حتى ليكاد يمسك بأصابع حبه الكامن فى صدره ، الحياة حلوة ، أجمل لحظاتها تلك التى نلقى فيها بأنفسنا فى خصم صخبها وضجيجها ونارها لتلهبنا وتصقل مشاعرنا فنقول الشعر ، عندما زغردت كايداهم مرة أخرى ، جذبه المعلم جمعة من يده وألقى به على صدرها ، احتضنته وهى تقول بحنـان :
« اســم الله عليـك ! »

كاد يتشبث بها ، ويدفن رأسه بين نهديها ، ويبكى ! . . . لولا أن غنى الرجال مع اللحن المعزوف : « اتمخطرى ياحلوة يازينة ! » ، ضجة وصراخ

وغناء ، لهيب تندلع ألسنته فى النفوس فتحيل الحياة فى نظر السعداء الى جنة حمراء ، لأول مرة يرى الرجـال وجـه كايداهم وقـد كسته طبقة كثيفة من الحزن ، نظر اليها من خلال أبخرة البوظة التى كانت تغلى فى جوفه ، رآها كالدامعة . . . همس فى أذنها فجاء صوته وكأنه آت من أعماق المحيط :
« مالك ياكيـــداهم ؟! »

قبضت بأصابعها على ذراعه ، وأنشبت أظافرها فى صديريته ، وعضت على شفتها السفلى ، وتقلص وجهها ، فهمس فى حنـان :
« مالك ياكايـــداهم ؟! »
« ولا حاجه يامحمود ، ولا حاجه . . . روّحنى ! »

اعتصر الحنان قلبه ، تطلب منه أن يذهب بها الى البيت ، ليس غريبا أن يذهـب معهـا ، لكن الغـريب أن يذهب بها وهى التى تذهب بكـل الرجال . . . ريح الطريق قوية باردة ، والأصوات تصل اليهما من البوظة صاخبة . . . وهما وحيدان كل منهما متشبث بالآخر ، يعبران شارع السبع بنات ، وتغوص أقدامهما فى طين الزقاق الصاعد الى حيث يربض حى النساء ، السكون يشمل الكون ، تمزقه بين الحين والحين ضحكة فاجرة ، أو صوت فاحش . . . رجل يترنح ويلقى بنفسه فى طريقهما فيزيحه بذراعه ، ويمضيان صامتين فى الظلام يسود الحجرة والبرودة جمدت كل شىء فيها ، ونور المصباح الذى أضاءته كايداهم شاحب كوجهها .

« مالك يا كـــايداهم ؟! »
جلست أمامه فوق الكنبة ، ونظرت اليه طويلا ثم ابتسمت قائلة :
« معاك ســيجارة ؟ »

مد لها يده بالسيجارة فأشعلتها ، ثم سهمت ببصرها ، وعادت تنظر اليه متفحصة ، وكأنها تبحث فى وجهه عن شــىء . . .

« تحشش يا محمود ؟ »

صمت ولم يرد . . . نهضت وسارت إلى الدولاب ، وراحت وجاءت وهي تعد الجوزة والمجمرة وتنفخ في النار وهو ساهم ينتظر عودتها ، لم يكن يفكر في شيء بعينه ، ولم يكن يعرف كيف يفكر . . . كان يعلم أن الليلة ستنتهي ككل ليلة ، سيلقى كل منهما بجسده بجوار الآخر ، ستقبل يده ويقبل وجنتيها . ستدفن رأسها في صدره ثم ينامان ! . . . يظن الرجال أنه نالها كما نالوها واحدا بعد الآخر ، لايدرى السبب فيما ينتابه من ضيق كلما فكر في هذا الموضوع ، لو أرادها لما رفضت ، هو موقن من ذلك ، لكنه حرمها على نفسه كمعبود مقدس منذ تلك الليلة . . . لماذا وهي عمله متداولة في كل يد ؟ . . . شعرها تهدل على كتفيها ، ودماؤها صعدت لتصبغ وجنتيها ، والنار ملتهبة تحت أقدامها . . . راح يحملق فيها وهو يتساءل في دهشة : « أهذه هي كايداهم ؟! » . . . جرت عيناه فوق بشرتها ثم استقرتا فوق أنفها ، فوجده دقيقا مستويا ذا فتحتين رشيقتين ، العجيب أنه أكتشف جهله بملامحها ! . . . شفتاها مكتنزتان مستويتان في امتلاء ، منطبقتان في ليونة ، أراحت كل شفة نفسها على صدر الاخرى في تعب . . . حول عينيها سواد يعطيها جلالا أخاذا ، ذقنها مدببه أنيقة صغيرة ، رقبتها مستديرة ممتلئة ، وشعرها فاحم كسواد الليل ، يحيط بوجهها كاطار يحيط بصورة رائعة الحسن . . . اذن ، اذن فهذه هي كايداهم ؟ . . . حبيبة القلب ، وملهمته ، وباعثة الحياة في حياته !

أصابعها تعد الجوزة في حنكة ، أصابع مستطيلة مكسوة بطبقة من اللحم كأنها الندى في رقته ، وذراعاها كقالبي السكر في استدارتها وحلاوتها ، وصدرها ممتلىء متهدل بعض الشيء وبطنها عالية ، يتموج فوقها الفستان اللامع تحت ضوء المصباح فيأخذ بصره ، أصابع قدميها طويلة الأظافر

تخضبها الحناء . . . لماذا لاتحنى كايداهم يديها . . . لايدرى ، ولا يهمه أن يدرى !

اذن . . . فهذه هي كايداهم ؟

هل هو سكران ؟!

« بتفكر في ايه يا محمود ؟! »

أفاق على تغريدها وهي تمد له يدها بالجوزة ، نظر إليها ثم قال :

« كان مالك الليلة ياكيداهم ؟ »

قدمت له طرف الغاب قدسه بين شفتيه وراح يجذب أنفاسا شرهة ، ثم نفث سحابات الدخان فغطت وجهها ، دست طرف الغاب بين شفتيها ، فتساءل في مرح: « أليست الجوزة أسعد منه حالا ؟! » . وابتسم ، ثم ضحك .

« بتضحك ليه يامحمود ؟ »

امتدت ضحكته من أعماقه كأنها حبل طويل اختزنه طويلا ، حاول أن يتوقف فلم يستطع ، رآها تحملق فيه فازداد ضحكه حتى استلقى على ظهره ودمعت عيناه ، ما الذى حدث له ، لكنه تمالك نفسه بصعوبه ، ومسح دموعه وهو يقول :

« مش عاوزة تقولى لى كان مالك الليلة ياكيداهم ؟ . . . »

نظرت إليه بكل عينيها ، ثم قالت متعثرة ، كأنها عذراء :

« ما سألتنيش ليه يامحمود ؟ »

« على ايه ؟ . . . . »

« الرجاله فاكرين أنك رفيقى ! »

« عارف . . . . »

قالها فى اقتضاب ومرارة ، وأحس كأنه جرح ، وكأن كبرياءه أهينت . . . قد نؤمن فى قرارة أنفسنا بقيم نخجل من التصريح بها حتى أمام أحب الناس الينا ، رضى بنصيبه منها ولم يحاول أن يتعداه ، لكن عذابه كان كبيرا ، ونظرات الرجال من حوله تلقى به فى أتون ملتهب بالضيق والحيرة والعذاب . . . ترى ماذا يقولون لوعرفوا الحقيقة ؟ . . . وهل سيعرفونها ذات يوم ؟ . . .

« فاكر يامحمود أول ليلة جتها هنا ؟ »

سؤال غريب . . . هل نسيتها هى ؟ ، هل نسيت حرفا مما قالاه فى تلك الليلة . . . أيكون شاذا بين الرجال دون أن يدرى ، هل لعب المخدر برأسه كلا ، ولكن . . . لكنه يخجل من الاعتراف أمامها بما صبر عليه طوال تلك الايام .

« فاكره . . . عاوزه تقولى ايه ؟ »

« عارف آنى حرمت نفسى عليك ليه ؟ »

وضعت يدها ـ بقسوة ـ فوق موطن الجرح فكاد يصرخ من الألم رغم ايمانه العميق أن ما تقوله هو الحق ، الا أن الغضب يثور فى صدره كالبركان ، لقد رضى أن تحرم عليه نفسها ، لكنه حرم عليها نفسه هو الآخر ! . . . أليس هذا صحيحا ؟ . . . أم هى بلاهة محب يشمخ برأسه ؟! . . . قال بنبرات صارمة :

« عاوزه تقولى ايه ؟! »

« زعلت يامحمود ؟! »

« اتكلمى !! »

« مالك يا صاحبى ؟! »

هل هو يحبها حقاً ؟ . . . أم هو وهم يعيش فيه ؟ . . . وهل هى تحبه ؟ . . . واذا كان كل هذا صحيحاً ، ليذهب الحب الى الجحيم ، فكيف يسمح لعاهرة أن تُحرِّم نفسها عليه ؟ . . . لا كان الحب ولا كانت الدنيا لو صبر على ذلك ساعة أخرى .

« اسمعى يابت ، آنى لوحبيت حاجة حاناخدها بمزاجى ، وكل ده كان بكيفى ، آنى اللى عاوز كده ، فاهمة ؟! »

« محمود . . . »

« حافظى على ملافظك ، حرمتى نفسك على راجل ياكيداهم ، كل شىء كان برضاى ، آه ، برضاى ومزاجى ! »

منظر الخوف على وجهها يمزق قلبه ، لكن رجولته فى الميزان ، فلسيتمر . . .

« محمود ، انت سكران والا مسطول ؟ . . . وهو آنى نحوش عنك حاجة ؟ »

« أوعى تفتكرى كده ! »

أشارت الى الفحم المتوهج فى الموقد وقالت بصوت مختنق :

« ينحرق عضمى زى الفحمة دى ما كان قصدى ، حتى أنت يا محمود ! »

دموعها تريح أعصابه وترطب قلبه ، كيف قال ما قال ؟ . . . لماذا يجرحها وكان قد أتى ليمسح الحزن عن نفسها ؟ . . . لماذا يفضل الرجل رجولته على حياته ؟ . . .

« كفاية عياط بقى ! »

« حتى أنت يامحمود ؟ »

« عينيك دمعت ليـه فى البوظـه ؟ »
« صعبت على نفســى ! »
« ازاى !؟ »

لو كان للألم معنى لكان ما ارتسم على وجه كايداهم فى تلك اللحظة . حديثه باتر وكلماتـه مقتضبة وكأنه إله يحدث عبداً من عبيده ، خير لقلبه المضطرب أن يلقى عن لسانه ذلك الجفاف وأن يمد اليها ذراعيه ويضمها الى صدره ، رغبة حارقة تدفعه لأن يحطم ضلوعها فوق ضلوعه ، لهيب يندفع من أعماقه فيحرق شفتيه بلوعة ضـارية .

« دول كانوا بيزفونـا يا محمـود ! »

« ودى فيها ايــه ؟! . . . »
« وهى اللى زيى لها الزفة يابن الناس ؟! »

رغم رغبته الحارقة فى اجترار ذكراه ، إلا أن الاحداث اختفت فى طوفان السعادة التى أغرقت قلبه ، بكاؤها بالأمس لن ينساه ، وضحكها بعد ذلك لن يسلوه ، أبـدا ، وسيطلب منها كل يوم أن تضحك كما ضحكت ، أن تتحـدث كما كانت تتحـدث ، أن تهمس فى أذنـه لتـداعب أنفـاسهـا صدغه . . . لكنه يعرف كيف بدأ الامر ، وكيف لان صوته ، ورطب الحنان جفاف كلماته . . . قال لها بنفس لهجته الجافة وكأنه يدافع عن شىء عزيز :

« وانتى مالك يابت ، بيكى ايه ؟ . . . ألف راجل يتمنى ضفرك ! »
« يسلم لسـانك يامحمـود . . . لكن . . . »

وصمتت ، واشرأبت بعنقهـا نحـو النـافذة ، وأخذت تحملق فى ظلام الطريق خلال فرجة بين دلفتيها ، ثم قالت دون أن ترفع اليه وجههـا :
« شـايف آنى ساكنه فين يامحمـود ؟ . . . . »

« مانتى اللى عايز كــده ! »
« بتحبنى زى مابنحبـك ؟! »
فاجأه سؤالها ، فانتفض ، وزاغت نظراته .
« ليه بتسأليني السؤال ده ياكيداهم ؟ »
« من نفســى ! »
« وحياة من ملا البحر بالرزق بنحبك ، انت يابت مش عارفه كـده ؟ »

« عارفــه ! »
« طب اضحكــى ! »
وضحكــت . . .
« اضحكى كمـــان ! »

وضحكت أكثر . . . ثم أكثر ، ثم قدمت له الجوزة ، وبعدها رقصت ، وأبدعت ، مالت عليه ، وقبلته فى شفتيه ، واهتز جسدها وارتجف كأن به الف جنى يبعثون الرعشة فى أوصاله . . . ثم توقفت فجأة وصوبت اليه عينيها فى جسـارة ، وقالـت :

« عارف ليه بأه آنى حرمتك على نفسى ؟! »
لم يغضب ، ولم يثر . . . بل سألها مبتسما عن السبب :
« ليـه ياكيـداهم ؟! »
« علشان تفضل تحبنـى ! »

وضحك وضحكت . . . ثم ضحكا وضحكا حتى تقطعت أنفاسهما من الضحك . . . وعندما هدأ ، قال لها وكأنه يفيق من حلـم :
« بقى كده ياكيداهم ، ده اسمه كلام يابت ؟! »

« معلوم اسمه كلام . . . الواحدة مننا يامحمود مالهاش العشق ، والحب

فى حياتنا حرام . . . زى الحشيش اللى بتمنعه الحكومة . . . الولية اللى زيى لو عشقت تبيع اللى وراها واللى قدامها ، وآخرتها حاترجع للسكة تانى . . . الواحدة منا لازم تحرم على قلبها النومة المرتاحة ، لو داقتها مرة مش حاتسلاها طول العمر . . . تعمل ايه بعد كده وكل يوم فيه ألف نومه . . . تبيع نفسها لمين وكل من يشترى حاتقابله بوش كشر . . . الراجل من دول بتبقى ريحته منتنه ، ولازم ندفن جتتنا فيه ، ونقول له يا حبيبى . . . النطع من دول يبقى جوفه زى المزبله ، وأحلى ما فينا ينباع بقرش ! . . . سألت نفسى فى يوم ، إذا دقتك ، اذا حبيتك ، حاسلاك إزاى ، أنساك إزاى ؟ »

لم يعد يطيق ، كان جسده يرتجف بانفعال لم يستطع مقاومته ، مد اليها يده وجذبها الى صدره فاستكانت ـ بلا كلمة ـ بين ذراعيه ، راح يعبث فى شعرها حينا ، ثم رفعت اليه عينين ساهمتين ، وشفتين مرتجفتين . . . وصعدت أنفاسها ملتهبة حارة ، وتلاقت الشفاه فى قبله . . . وكانت ليلة .

* * *

ألقى محمود بسيجارته الثالثة الى الأرض ، وتمنى أن يرى كايداهم ، كانت رغبته فى تقبيلها تفوق كل رغبة أحس بها عنفا ، راح يرقب دخان السيجارة المتصاعد وقد ثبت بصره على الباب فى وجوم وقلق . . . . لماذا خرجت ؟ . . . وأين ذهبت ؟ . . . خدر لذيذ يسرى فى أوصاله . . . وكأنه عطشان لم يذق للمياه طعما منذ سنوات ، كان يتحرق لرؤيتها . . . همَّ جالسا فى الفراش عندما وصل صوتها الى أذنيه ، كانت تهمس فى الخارج ، لكن همسها كان يعلو لحظة بعد أخرى . . . كانت تتوسل ، وترد على صوت مزمجر غاضب ، ثم تحول التوسل الى تنمر . . . وصوت رجل يصيح :

« أنت يابت بتقولى لأ . . . . »

وسمعها تقول فى صوت باتر :

« قلت لك عندى زبون جوه ! »

وانقبض قلب محمود ، لكنه لم يفكر فى الأمر ، قال رجل فى صوت حاد :

« يطلع ! »

« دا غريب يابو صباع ! »

وهمس محمود فى فحيح : « أبو صباع ؟! » ، عاد الرجل يقول :

« برضه يطلع ، آنى قلت يطلع ! »

« يوه ، وبعدها وياك ، قلنا تعالى كمان شوية ! »

« انت بتشخطى فيه يامره ؟! »

وعلا صوت امرأه أخرى :

« تعالى عندى آنى يابو صباع ، معلش تعالى عندى آنى ! »

وصرخ الرجل فى صوت متعثر :

« اوعى من شكتى يامره ، أوعى من السكة لما نشوف النطع اللى جوه ده يطلع مين ! »

« ابو صباع ، عيب ، انت سكران ، فتح شوف انت بتكلم مين ياجدع ؟! »

« يابت الأبالسة ، أنت بتردى على كمان ، وبتخوفينى . . . طب خدى ! »

وانطلقت صرخة ثاقبة . . . صرخة اندبت فى قلب محمود كخنجر مرهف النصل . . . فألقى بالغطاء وقفز الى الأرض ، واندفع الى الباب . . . ودوت صرخة أخرى ، وثالثة . . . وهجم على الباب ففتحه . . . وجد فى مكانه

كانت كايداهم ملقاة فوق الأرض ، وأمامه رأى أبو صباع الهائل الجثة ، الأسود اللون ، الأشعث الشعر . . . فى يده سكين يقطر منه الدم !

« الحقنى يامحمود ! »

وألقى بجسده على الرجل ، كالمجنون . . . فرفع هذا سكينه فى الهواء ، وتلقى محمود ذراعه بكفه ، ثم هوى ـ فى لمحة ـ برأسه فوق وجهه ، وأنبثق الـدم من أنف الـرجـل ، وارتفعت رأس محمـود مرة أخـرى ، وهـوت كالصخـرة ، وأنبثق الـدم من فم الـرجـل ، وخـارت يده ، وسقـطت السكين . . . وأمتلأ المكان بالصراخ . . . ومحمود كالنائم ، يضرب ويضرب دون توقف ، وسقط الـرجـل على ركبتيه ، وسقـطت رأسـه فوق صدره ، واندفعت ركبة محمود فى سرعة لتصدم الفك المتهاوى ، وتكوم الرجل فوق الأرض وهـو يخور كثور ذبيح ، والدماء تتفجر من أنفه وفمه بغزارة . . . والنســاء يتجمعن ، نسـاء كثيرات ، صارخـات ، مولـولات ، ورجـال مذعـورون ، رجـال عرايا ، وآخـرون بنصف ملابسهم . . . والـزحـام يشتد . . . وكايداهم تشهق .

« كايداهـم ! »

وكأنه يلفظ قلبه ، عنقها ممزق ، دماؤها ساخنة غزيرة أغرقت كفيه وهو يحاول رفعها الى صـدره .

« الحقنى يا . . . محـ . . . مو . . . د . . . »

« كايداهـم ! »

ارتفع جفناها عن عينين ذهب سوادهما ، وتعلقت عيناها بعينيه لبرهه ، ثم شهقت شهقة أخيرة . . . وسقط رأسها المذبوح !

— ٢٢ —

انتشر الخبر وذاع ، تجمع الناس حوله وحول البيت ، شعر بالبرودة تنفذ الى عظامه ، كأن يدا قاسية حملته وطوحته فى الهواء ثم تركته معلقاً . . . لابد أن يكون حلما ، حلماً مزعجاً سيصحو منه ليعود الى كايداهم من جديد . انهم لايتحدثون عنها وليست هى الراقدة فى سكون بين ذراعيه ، انها امرأة أخرى . . . ظل جالسا وهو يحملق فيها حتى جروه جرا الى « الكركون » ، فانصاع لقبضاتهم الخشنة وأذعن لصرخاتهم الغليظة وأوامرهم الباترة . . . لم يعـد فى الـدنيا شىء فلماذا يهتم بشىء . . . ذهبت كايداهم دون سابق انذار ، انقض عليها القضاء بلا رحمة فمزق عنقها وصدرها وأسال دماءها ، أيمكن أن تكـون هى حقـا ؟ . . . تمضى الـدقيقـة كأنها ساعة ، وتمضى الساعات فلا يشعر بمرورها ، أين هو ؟ ،ولماذا جاءوا به الى الكركون؟ . . . جاء حنفى مهرولا مكفهر الوجه شاحبه ، يقف من بعيد وينادى عليه ويسأله أن كان فى حاجة الى شىء . . . لابد أنه جن ، فماذا يريد ؟ . . . أدار عنه وجهه دون رد فماذا يطلب ؟ . . . يسأله عن حاله بالحاح فماذا يقول ؟ . . .

يسألونه عما حدث وكيف حدث ولماذا ذهب وأين قضى ليلته ، أجابهم كالمذهول وكأنه ببغاء يردد ما توحى به نفس ضائعة ، الضابط ينظر اليه ويسأله إن كان مريضاً ، فيهز رأسه نفيا ، فما هو المرض ؟ ولماذا يمرض ؟ . . . ماتت كايداهم وذهبت من حياته بعد أن عمرتها ليلة ! . . . شهر ؟ . . . طول العمر ؟ . . . ليكن أى شىء ، فما الفرق بين وجوده الآن وبين يوم مولده ؟ . . . انقضى كل شىء ولم يعد له وجود ، يسأله الضابط متى ذهب اليها . . . ألا تعلم ياسيدى الضابط ذا النجوم اللامعه ؟ . . . كانت كايداهم حبيبتى ، كانت عشيقتى ، كانت أمى ، كانت أبى . . . نعم نعم ، قضيت ليلتى معها ، بل فى أحضانها ، لماذا تدهش ؟ . . . وما وجه العجب فيما أقول ؟! . . . لا لا ، لم أر شيئاً ، سمعت صراخاً وخرجت لأجد السكين فى يده . . . نعم ضربته ، رفع السكين فى وجهى فهجمت عليه ، ليتنى قتلته ياسيدى ، لا أدرى ماذا حدث ، ليته مات ، لو أنى قتلته لشفى غليلى وزغردت دمائى الباردة فى عروقى بالفرح !

ظل هناك حتى هبط الظلام ، أحاديث وأقوال وجنود وبصمات وأسئلة وأجوبة ، وهو غارق . . . فيم يفكر ؟ . . . يتمنى لو يستطيع أن يعى ولو لحظة ، أن يدرك حقيقة الأمر . . . تنهد ودخن وحاول الحديث مع حنفى ، لكنه كان كالمخدر بأطنان من البوظة ، غارق غارق يهوى إلى قرار سحيق ، ليته يصل إلى القرار ، لو أن هذا حدث لعرف له أرضاً يقف عليها . . . ولإنتهى عذابه ؟ . . . عذابه الأكبر أنه لايدرى شيئاً ، لايحس بشىء ، لايريد شيئاً . قبض الريح . . . عدم !

صرفوه فى النهاية فمضى كالمنوم الى الخارج ، تجمع حوله الرجال وأمسك حنفى بذراعيه كأنه يحميه ، كيف حالى ؟! ماذا حدث ؟، لماذا لا أرد ؟ . . . ليتكم تصمتون لحظة ، جمعه وشلوفه والشاطر الطبال وزين الزمار وجمع من

الرجال وكأنهم يشيعون جنازة . . . وبالأمس كانوا يحيون فرحا ! . . . الناس فى الطريق يحملقون فيه ، واحدة من النساء تقول بصوت مسموع :

« اسم النبى حارسه ، هو ده اللى مسكه وفضل يضرب فيه لحد ما كومه على الأرض . . . ربنا يحميه لشبابه ! »

شباب ؟ . . . أى شباب ياامرأه ؟ . . . ذهب شبابه ودفنت طفولته وتبددت حياته وبرد قلبه كحجارة الرصيف . . . قدماه حافيتان فأين مداسه ؟! . . . جسده يرتجف ، حنفى لايزال متعلقا بذراعه ، يد تمتد اليه بسيجارة . . . أكان يحب كايداهم حقاً . . . جواب يأتيه من أعماقه . . . نعم ، اذن ، فلماذا لايبكى ؟ .

أهذا هو الحزن ؟ . . . كلا ، قطعا لا . . . لقد جرب الحزن من قبل يوم أن غرق أبوه فى الميناء . . . كان الحزن وقتها كألف سكين تنغرس فى صدره وقدميه ، لكنه الآن لا يشعر بشىء ، من هذا ، لا يشعر بشىء إطلاقا . . . البوظة تظهر من بعيد ، فهل هى البوظة التى عرف فيها كايداهم ؟ .

أنها اليوم كئيبة ، الكيزان تدور عليهم فيجرع الرجال منها فى صمت ، لاغناء ولا صياح ولا طبل ولا زمر ، رفع الكوز الى شفتيه فوقعت عيناه على مقعدها الكبير ، كانت تجلس هنا دائماً . . . حولها الشاطر وزين ، الطبلة والمزمار ! . . . وعما قليل سيمتلىء المكان بالوافدين ، سيبحث الرجال عن معشوقة القلوب ، وسيسألون عنها ، وسيقولون لهم : ماتت !!

ماتـــــت ؟!
هل ماتت حقـــاً ؟!
لاحول ولا قوة إلا بالله ، كيـف ؟!
ماتت . ماتت . كايداهم ماتت .

خير له أن يكبت دمعه أمام الرجال ، ليبك عندما ينفرد بآلامه ، كف يادمع عن الفوران . . . لتطفئك البوظة أو تزيد نارك اشتعالا . . . ماتت ؟! حنفى ينظر اليه بحنان ، حتى حنفى ذو القلب الصخرى ياكيداهم تحرك قلبه من أجلك وفاض مثل هذا الحنان ، حتى أنت ياحنفى ؟

« محمـــود ؟! . . . »

« كايداهم ماتت ياحنفى . . . ماتت بصحيح ! »

« محمـــود . . . »

انطلقى ياصرخة فانك تمزقين صدرى وعنقى .

« آه . . . آاااه . . . ماتت يارجالـه ! »

لماذا يبكى ؟ . . . هل ستعود ، أبدا ، ذهبت ولن تعود ، قلبه لايصدق ولكن ما الفائدة ؟ . . . أمره الى الله ، ما حدث قد حدث . . . مزق المجرم عنقهـا !

« دبحها ياحنفى ، دبحهـا يارجالـه ! »

كيف يتحدث النـاس عن الصقيع وهم لم يجربـوا برودة القلب ؟ . . . الـدمـوع فى عيون الرجال كما هى فى عينيه ، أين أنت ياكايداهم ؟ . . . أتموتين بمثل هذه السهولة . . . أتركوه يارجال لحاله ، لابد أن يبكى ، دعوه يصرخ كطفل . . . الدنيا تبكى أمطارا غزيرة فى الخارج ، راحت كايداهم ولن تعـود . . . ليتـه يستـطيع أن يلطم خديه كالنسـاء ، ويرفص بقدميه كالأطفال ، ويصرخ بلوعة كالثكالى ، ويتمرغ فى التراب . . . فقد ذهبت كايداهم الى المشرحة ليمزقوها اربا اربا . . . تركته حبيبة الروح فى فراغ لا محدود ، فى ضياع . . . فى . . .

« ياحنفى . . . ياحنفى ! »

أتبكى أنت أيضاً ياابن العم ؟ . . . مرحى ! . . . هطلت الأمطار ، عم الرخاء ، فاضت القلوب بالحنان ، زغردت الألسنة بالصوات والنواح والبكاء .

كايداهم . . . اين أنت ياكيـداهم ؟!

— ٢٣ —

أنتاب الذين مروا ببوظة شلوفة فى ذلك المساء عجب شديد ، كان زين والشاطر جالسين فى غير مكانيهما ، والرجال مطرقين حول الموائد الخشبية فى صمت ووجوم ، لاغناء ، ولا مواويل ، ولا ضحكات ولا أحاديث . . . حتى حسين شلوفة ترك مكانه وجلس بجوار محمود ، وأكواز البوظة تدور حقا ، ولكن فى صمت . الدخان ينبعث من الأفواه ويسبح فى سماء المكان ، لكنه كان باردا كأنفاس الرجال . . . الرواد هم هم ، والوجوه هى هى ، ولكن هناك شىء ينقص الجميع .

* * *

وقد مضى الوقت ، مضى بدقائقه الثقيلة الممطوطة ، وثوانيه الرتيبة المملة ، وساعاته التى تشبهت بالدهور فأضحت فى مثل طولها .

شهق المعلم جمعة ، وارتفعت نحوه كل العيون وتعلقت بوجهه ذى الندوب والأخاديد ، ورأى الرجال فيما رأوا فى ذلك المساء ، دموعاً غزارا

سحتها عينا المعلم جمعه ، وسمع الرجال فيما سمعوا فى ذلك المساء ، نهنهات محمود ونشيجه المكتوم وشهقاته المتتالية .

حتى حنفى البلطى ، الرجل ذو الوجه الحجرى والملامح الجامدة ، الذى تبعث تقاطيعه الصارمة فى النفوس رهبة واحتراما عميقين . . . حتى حنفى البلطى فرت من عينيه الدموع .

وذكر اسم الله فى تلك الليلة على غير ما تعود الرجال أن يذكروه فى كل ليلة ، ترحم الرجال على كايداهم مرات ومرات ، وعشرات المرات ، وقرأوا الفاتحة بشفاه تنبعث من بينها رائحة الخمر . . . حتى إذا انتصف الليل ، سمع الرجال محمود وهو يحدث المعلم جمعة قائلاً :

« حانعملوا ايه فى الجنازة يامعلمى ؟! »
فقال جمعة وهو يهز رأسه هزات متتالية :
« جنازة كايداهم يامحمود ؟ ، عروستك اللى انزفت لك أمبارح ؟! »
وقال حنفى بنبرات حنون :
« وحد الله يامعلم جمعه ، وحد الله وشد حيلك ! »
وقال محمود :
« أيوه يامعلمى ، جنازة كايداهم يامعلمى ! »

وانفجر الشاطر فى نشيج غليظ ، ومال إلى الأمام وهو يدفن رأسه بين كفيه وينخرط فى نحيب متصل . . . وقال حسين شلوفة :

« يمين بالطلاق يارجاله لو كانت بنتى ماكنت نحزن عليها كده ! »
وهمس رجل فى طرف المكان فى أذن زميله :

« ياسلام على بنى آدم ، امبارح كانت كايداهم مجننه البوظة باللى

فيها ... البت دى كان فيها شىء لله ، مفيش راجل فى البوظة الا لما هو حزنان عليها » .

ورد عليه زميله وهو يرفع الكوز الى شفتيه :

« مش بيقولوا زانية ، انما يمين الله كانت زى بنات الأكابر ! »

وعاد محمود يقول فى الحاح :

« الجنازة يامعلم جمعة ، لازم تدفنوها دفنة كويسة ، ولازم تعملوا لها خرجة ما حصلتش قبل كده ! »

وقال حسين شلوفة :

« عهد الله ماحد فيكم دافع مليم ، رقبتى سداده ! »

نظر اليه جمعه فى توسل ، ثم قال والبكاء يخنق صوته :

« ياحسين ياخويا ، خلينى نجيب لها الكفن ، وابقى اشترى لى انت كفن لما تحصلها !! »

ومضى الحديث الحزين يخطو فى تثاقل فوق الدقائق ... حتى اندفع الى البوظة رجل كان يلهث ، وما كاد يهم بالكلام حتى صدمه الجو الغريب ، فتوقف محملقا فى الرجال بدهشة ، ثم سار فى بط نحو أحد المقاعد ، وجلس عليه وهو يجول ببصره فى الوجوه ... والتفت الى جاره ، وكان هذا مطرقاً كالآخرين صامتاً وكأنه فى غيبوبة ، فمال عليه وهمس فى تساؤل :

« خير يامعلم ، الرجال مالهم ... هو الخبر وصل ؟! »

رفع إليه الرجل ـ ولم يكن صيادا ، بل حمالا فى الميناء ـ وسأله فى لا مبالاه :

« خبر ايه ؟ »

« المركب ! »

وكأنما ضاق الرجل بغموض حديث الوافد الجديد ، فقال فى ضيق لينبهه الى حقيقة الموقف :

« كابداهم ، البقية فى حياتك ! »

« ياليله سوده ! »

ثم ساد الصمت مرة أخرى ، على أن الرجل كان يشعر وكأن صدره ينوء بما يحمل من أنباء ، فأخذ يجيل بصره فى الوجوه الحزينة ولبث فترة يغالب رغبته فى البوح بما جاء يلهث من أجله ... وما أن التقت عيناه بعينى حنفى ، حتى أومأ اليه ونهض متجها نحو الخارج يتبعه حنفى فى صمت !

وعندما عادا الى الداخل مرة أخرى ، كان وجه حنفى المتجهم قد اكتسى بطبقة صخرية من الهم ... وما أن وصل الى مكانه وهم بالجلوس ، حتى نظر الى محمود نظرة من يحمل فى صدره مالا قبل له به ، ثم قال بصوت متحشرج :

« يا الله بينا يامحمود ، سلام عليكم يارجالة ! »

وكأنما كان محمود بلا حول ولا طول فقد نهض مستسلماً ، والتفت نحو الرجال ، ثم دار بعينيه فى أرجاء المكان ، وانتابه فى هذه اللحظة طوفان متلاطم من المشاعر ، واقشعر بدنه ، وجاشت نفسه بأحزانها ... وعندما استدار وهو يرفع للرجال يده بالتحية ، تصاعد إلى رأسه سؤال :

ترى ... هل يعود إلى البوظة بعد الليلة ؟!

دلف حنفى ومحمود الى الزقاق ، وغاصت أقدامهما فى الوحل الذى صنعته أمطار الليلة ، وعندما بلغا منتصفه ، استدار حنفى نحو ابن عمه ، ومد اليه يده وشد على يده ، ثم قال فى همس :

« مفيش داعى حد من الزقاق يعرف عنك حاجه يامحمود ، شد حيلك قدام أبوك ، وبلاش تبقى صغير ! »

هز محمود رأسه موافقا ، وعاد حنفى يقول فى اقتضاب :

« المركب وصلت يابن عمـــى ! »

ارتفعت رأس محمود فى سرعة ، وسدد الى حنفى نظرات حادة ، بينما كانت عينا هذا تشعان بريقا غريبا فى ظلمة الزقاق . . . وما لبث محمود أن هز رأسه فى صمت وهو يعض على شفته كمن يعانى آلاماً مبرحة . . . ثم استدار كل منهما نحو باب بيته ، واختفى فيــه .

قالت عطيات ، وهى تمد يدها بكوب اللبن الى زوجهـا :

« ومستنى ايه ياسى حمودة ؟ . . . ماتقول لابويا محمد ونتوكل على الله . »

وأخـذ حمودة يفرك قدميه ببعضهما تحت الغطاء ، وهو يرفع الكوب الى شفتيه ويرشف منه على مهل ، بينما راحت عطيات تؤدى آخر أعمال يومها ، فدثـرت باب الحجـرة بجلباب كى تقى أولادها الممدين على الحشية فوق الأرض هواء الليل البـارد ، ثم راحت وجـاءت فى الحجـرة ناقلة شيئاً الى مكـانـه ، مرتبـة وضـع شىء آخر . . . لكنها ما لبثت أن تعجلت دورتها الليلة ، فاتجهت نحـو الفـراش وتسلقتـه كى تزحف الى مكانها منه بجوار الحائط ، ودست جسدها تحت الغطاء ، والتصقت بزوجها قائلــة :

« هيه . . . ايش قولك ياسى حمودة ؟ . . . ياخويا أنت مستنى ايه ؟ »

أعتدل حمودة فى جلسته ، وظهرت على وجه امارات التفكير وهو يقول فى حمـــاس :

« آنى بعد ما كلمت حنفى ، ربك والحق ، حسيت أن حمل انزاح من على قلبى ، قلت ياواد اتوكل على الله وقول لأبويا محمد بالمرة ، كده كويس ؟ »

« كويس . . . وايه اللى أخرك »

قالت عطيات ذلك وهى تدس كفها فى فتحة جلبابه ، استشعرت دفء الفـراش فحنت الى الانضـواء تحت جسـد زوجهـا ، وفـارت فى نفسهـا أحـاسيس جد عميقة ، كانت تستمع إليه بأذن ، وتستمع الى دقات قلبه بالأذن الأخرى . . . طالما تمنت فى أعماقها أن ترحل به بعيدا عن الشاطىء بالـرغم من ذلـك الخوف الذى كان ينتابها عندما تتصاعد الى أذنيها كلمة الغربة أو الوحدة ، وبالرغم من حنينها الشديد للزقاق وحبها العميق لأهله وأهلها ، إلا أن الدنيا بما فيها من غرائب كانت تسحرها . . . ظلت تجتر أحاسيسها هذه فى خوف حينا ، وفى اقبال حينا آخر ، حتى حدثها حمودة بما فى نفسه من رغبات ، فى تلك الليلة فقط ، ورغم الذعر الذى انتابها ، لم تستطع مقاومة تلك الفرحة الطفلية التى راحت تزغرد فى صدرها ، وانزاح القناع عن مشاعر كثيرا ما حيرتها وأتعبت ذهنها . . . ولم تعد تتساءل فيما بينها وبين نفسها ذلك السؤال الذى كان يخجلها أشد ما يكون الخجل . . . لماذا كان زوجهـا دون باقى رجـال البلطى مريضا ؟! . . . فى أحيان كثيرة كان ينتابها اليأس والقهر فتبكى فى صمت ، وتطلب فى حرارة وصدق من الله أن يمن عليه بالشفـاء . . . لكنها سرعان ما كانت تنهر نفسها ـ وكأنها انسانة أخـرى ـ وتـطرد أحـاسيسهـا لتغـوص فى أعماق وعيها ، وتندفن فى ظلام كثيف . . . وما أن لاحت لها بوادر الشفاء فى الرحيل . حتى فاضت نفسها بحيوية لم تدر لها سبباً ، فكانت تنساق اليها فى نشوة ، غير عابئة بما كان يخطر ببالها من أسئلة تدفع حمرة الخجل الى وجنتيها !

ناولها حمودة الكوب الفارغ ، ومسح شفتيه وشاربه بظهر كفه ، ثم تجشأ فمالت يدها بالكوب نحو قاعدة الشباك المجاور للفراش ووضعته عليها ، ثم عادت تدفن رأسها فى صدر زوجها . . . وامتدت ذراع حموده لتلتف حول كتفها ، وأشرأب بعنقه الى حيث كان أولاده يغطون فى النوم ، ثم أمتدت أصابع يمناه الى المصباح الغازى المعلق بجوار الفراش ، وخفض ضوءه حتى امتلأت الحجرة بظلال تكسوها ضياء شاحبة محببة الى نفسه . وعاد الى الحديث .

« وصلت قهوة سلامة لقيت الرجاله عمالين يتكلموا فى حكاية عبد الموجود . »

« الهى ربنا يرزقه بمصيبة تجيب قضـاه !! »

« يا شيخـة حرام عليكى . . المهم ، قعدت جنب أبويا محمد وطلبت كباية الشاى ، وقلت نستنى حبتين لما الجو يروق . . . وشوية وداخل عبد الموجود حمـدان ! »

ورفعت عطيات رأسها الى وجهه ، بينما راح هو يداعب شعرات شاربه فى صمت . . . وفـار صدر عطيات بما فيه من شوق ، فدست قدمها بين قدميه ، وعادت تضع رأسها فوق صدره ، فأغرقتها أنفاسه الدافئة . . . ثم قالت بصوت نائـم :

« وبعـدين ؟! »

« وبعـدين دخـل الـراجـل . . . سلام عليكم ، عليكم السـلام ، سلامات ، الله يسلمك . . . كلمة من هنا وكلمة من هنا ، والراجل بيقول انه عاوز مشترى للفلايك بتاعتـه ! »

« انتفضت عطيات ، ورفعت رأسها اليه ، ثم تساءلت فى قلق :

« تانى . . . الفلايك تانى ياسى حمـوده ؟! »

« أيوه ياستى . . . معنـدوش مانع يبيع الفلوكة بأربعين ، والشبكة ام تلاتين بعشرين . . . . »
« وبعـــدها ؟ . . . »

« ربك والحق ، آنى قلبى انقبض ، لما الفلوكة تنباع بأربعين والشبكة بعشرين . . . وأحنا عندنا شبكتين وفلوكة ، يعنى الحسبة كلها تبقى تمانين ، التلاجة اللى فى شارع الميدان جابت آخر ما جابت أربعين ، يفضل معانا أربعـين ، حاينفعـوا نقـلان مصر ، وايجار بيت ، ودكانه ، وتوضيب محل والذى منــه ؟! »

« وبعدين ياسى حمودة ، والعمل ايه فى الراجل ده . . . مفيش . . . »
وقاطعها حمودة مستمرا فى حديثـــه :

« طولى بالك على يابت الناس . . . أبويا محمد سمع الكلام ده وطب ساكت ، الرجالة قعدوا يبصوا له أنه يتكلم ، يقول حتى لا اله إلا الله ، ما اتكلمش . . . أنه يقول كلمة ، ماقالش . . . راح عبد الموجود موطى عليه وقال ايش قولك يامعلمى ، أبويا بص له بنص عين وراح مدور وشه الناحية التانية ، راح عبد الموجود منطور من مطرحه ، هم واقف وهو بيزعق يعلو حسه . . . المرة اللى فاتت شتمنى محمود اللى زى ابنى ، المرة دى مش عاوز ترد على يامعلمى ، هو آنى كفرت ؟ . . . »
« وأبويا محمد فضل ســاكت ؟ »

« ابـدا . . . رفـع له عينـه وقال له ، ياعبد الموجود انت خنت العيش والملح ، حكاية المركب دى عملتها خوانه فى الرجاله ، لوحدك ، من غير ما تشور أخواتك اللى عرفوك جربان وقبلوك فى وسطهم وقالوا لك يوم ما كنت غريب ، يامرحب . . . اذا جت المركب دى ياعبد الموجود الرجالة حايعملوا

ايه ، رزقهم يبيعـوه فين ؟ . . . تموت ولادهم من الجـوع ؟ . . . راح عبد الموجود صارخ فى وسط القهوة . . . شاهدين يارجاله ، آنى جربان ، المعلم محمد البلطى بيقول على جربان ، معلهش يازهر برضه معلمى ولحم كتافى من خيرك ، لكن آنى مش ندل نقطع عيش حد ، واللى عاوز يأكل عيش رقبتى سدادة ، خدام للصغـير قبل الكبير . . . راح أبويا محمد هايب من مطرحـه ، وهجم على عبـد الموجود ومسكه من طوقه ، الرجالة هاجت ، والدنيا وقفت على رجل . . . بصينا لقينا أبويا بيقول ، يمين بالطلاق اللى يحط ايده فى ايد عبد الموجود حمدان فى بيع قارب والا شرورة شبكة ، محرم عليه البلطية كبيرهم وصغيرهم ! »

وساد الصمت ، وترددت الانفاس فى جو الحجرة ، وبانت ظلال الاثاث طويلة فى استلقائها على الحائط والسقف ، وحاولت عطيات أن تكبت رغبتها احـترامـا لانفعـال زوجها بما كان يحكيه لها ، حاولت أن تقتلها . . . فلم تفلح . كان الدفء الذى تسرب الى جسدها أقوى من كل محنة ، والرحيل عن الزقاق وشفاء حموده أقوى من كل عقبة ، وكانت سعيدة . . . فمددت جسدها وهى تتمطى فى أحضان حمودة وقد اتقدت مشاعرها ، وما لبثت أن قالت بصوتها الناعم وهى تمد ذراعها متلصصة لتحيط به جسد حموده وتضمه الى صدرها :
« وبعدها ياسى حمـودة ؟! »

« وبعدها خرج عبد الموجود ، الرجاله هاجت ، كلمة من ده وكلمة من ده ، وحلفنا اليمين ما حد فينا يمد يده فى جنس معامله معاه ، شرا أو بيــع ! »
تسللت عطيات الى بغيتها فى حذر وهى تقــول :
« وقلت لأبويـا محمـــد ؟! »

كانت تعلم رده عن يقين ، لكنها أرادت انهاء الحديث ، وقال حمودة :

« ياولية أعقلى ، إذا كان القارب مرمى على الرصيف بأربعين والشبكة بعشرين ، نقول للناس ايه ؟ . . . آنى قلت نسكت حبتين ، يومين تلاته ، أسبوع . . . ومسيرها تنحل ، وقتها نبيع القارب زى الأصول ، وأقول لأبويا محمد ! »

« وحنفى عمل ايه ؟! »

« حنفى كان غطسان ما اعرفش فين ، زى مايكون فص ملح وداب ، الصباح رباح ! »

دست عطيات اصابعها فى شعر زوجها وأخذت تعبث فيه ، وأدار حموده وجه ناحيتها ، ونظر اليها خلسة ، وما أن رأى وجهها المستكين ، وعينيها المغمضتين ، حتى ابتسم فى سعادة . . . وقالت عطيات فى دلال :

« قدامنا كتير ياسى حمودة على كده ؟! »

ضغط جسدها الى جسده ، وقال وهو يستدير نحوها ويغرق شفتيه بين شفتيها :

« لا أبدا . . . أبدا ! »

وما لبث أن ساد الحجرة سكون عميق ، كانت تتخلله أنفاس لاهثة حارة !

— ٢٦ —

منذ خمسة وعشرين عاماً ، غادر عبد الموجود بلدته فى الصعيد متجها نحو الشمال ، يحمل فى صدره قلبا يعتصره الألم ، وفى عينيه دموعا أبى عليه كبرياؤه أن يذرفها . . . كان يوما أسود ذلك اليوم من أيام عام ١٩٠٧ ، دخل القرية فى صباحه مرابون من كل ملة ودين ، يحميهم جنود يحملون سياطا يلهبون بها ظهر كل من يقاوم أو يرفع رأسه . . . وخسر أهل القرية كل شىء ، وارتفع فى سمائها صراخ النسوة ونشيج الرجال وبكاء الأطفال ، حتى دورهم الطينية المتداعية ، طردوا منها بقسوة ودون رحمة . . . وكان عبد الموجود واحدا من الذين أفقدتهم أزمة القطن فى ذلك العام كل شىء . . . فمضى فى جوف الليل وحيداً إلا من أحلام كانت تخفف من قوة الصدمة . . . وراح ينتقل من بلدة الى بلدة ، ومن مدينة الى أخرى ، وكلما حط رحاله فى مكان ، رأى الجوع والفقر يلاحقان الناس . . . رأى فى المدينة التى اعتاد أن يقصدها كل موسم ، محلات أغلقت أبوابها ، ودكاكين لاتجد من يقربها ليشترى شيئا بقرش . . . وعندما وصل الى القاهرة ، وجد فيها

حالاً أسوأ . . . الناس لايبيعون ولا يشترون ، السوق هامدة لا حركة فيها ولا حياة ، بحث عن مأوى فلم يجد سوى الأرصفة والجوامع ، ولم يكن هناك بد من الرحيل ، فاتجه نحو الشمال مرة أخـرى .

عندما وصل الاسكندرية ، مرت به أيام سود تضور فيها جوعا ، وبات لياليها بجوار الجدران . . . حتى استطاع ذات يوم أن يعمل حمالا فى الميناء ، فأقبـل على العمل بكل قوته ، وراح يلفت اليه الانظار عن عمد ، فقربه المعلم اليه ، لكنه كان يعمل يوماً ويتعطل بضعة أيام ، فلم يضيع الفرصة ، أخذ فى أيام بطالته يتكسع على الأرصفة ، ويتقرب من الرجال ، وسرعان ما خرج فى أحد قوارب الصيد دون أن يعرف عن الصيد شيئاً ، لكنه استطاع بعد أيام أن يتقنه كأحد ابنائه . . . وتنقل من عمل الى عمل دون تذمر أو ضيق ، واستـطاع بذكائه ولباقته أن يكسب قلوب الرجال فى كل مكان ، فوثقوا به وبذراعيه القويتين . . . ومرت الأيام ، وعرف كل رجل فى الميناء ، واستطلع ما بداخل كل شق فيها . . . وبعد سنوات قليلة ، كان قد وضع اصبعه على حقائق الحياة فى تلك المدينة الواسـعة . . .

كانت الدنيا جديدة عليه فعاملها بحذر ، وأخذ يلتقط من هذا سر صنعته ومن ذاك سر عمله ، حتى أتقن فى سنوات قليلة كل صناعة وكل عمل . . . وقـامت الحرب العالمية الأولى ، وارتفعت الاسعار ارتفاعا جنونيا ، ووصل ثمن أردب القمح الى ستة جنيهات بعد أن كان ثمنه ستين قرشا ، فعرف عبد الموجود من فنون الكسب ما خفى على الكثيرين . . . وسرعان ما اشترى قواربه ليضلل بها العيون الباحثة عن الاسرار ، وأفلح . . . تاجر فى الصوف والملابس والطعام ، وكسب ألوف الجنيهات . . . وانتهت الحرب بخيرها الذى جلبته له ، وشرها الذى استغله لمصلحته ، واضطربت البلاد فكان له من ذلـك نصيب ، وهدأت ، فبحث بعين الخبير عن صيد جديد ! . . .

وعرضت عليه صفقة كاد عقله أن يطير لها ، وحسب حسبتها فى رأسه ـ لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة ـ فوصلت نتيجتها الى أرقام مذهلة لم يعرف كيف يعدها ، وإن استطاع أن يتخيل مقدارها . . . ومكث أياما وهو متحير بين الاقدام والاحجام ، ثم غامر بماله فى لحظـة جنون . . . ففقد كل شـىء !!

وهـزتـه الصـدمة بعنف ، ولاح له شبح الماضى كئيبا ، وكاد يستسلم لليأس ، وبدأ يصعد السلم من جديد . . . وأخذ يشق طريقه فى ذكاء وجهد حتى استطاع أن يقف على قدميه مرة أخرى ، وتكونت لديه بضعة ألوف ردت اليه الثقـة بنفسـه . . . ومضت به الأيام دون أن تغير من طباعـه شيئاً . . . يرسل القوارب بالرجال فى الصباح ، ويقف على الشاطىء فى انتظار عودتها عند الغروب ، يذهب الى الحلقة ، ويبيع فى مهارة ، ويقبض المال فى حذر ، ويعطى لكل ذى حقه . . . يصاحب الرجال ، ويشاركهم سهراتهم ، مظاهر النعمة البادية عليه لم تبدل من أخلاقه شيئاً ، ولم تزرع الألوف فى نفسه التعالى أو الغرور . . . حتى كان ما كان من أمر الانجليزى « هـــوب » .

جاءوا اليه منـذ عام كامـل ، وهمسـوا فى أذنـه بخبر غريب . . . رجل انجليزى يبحث عن شريك لإنشاء شركـة هائلة . . . أختـاروه من دون الرجال لثقتهم فيه وفى سمعته التى تفوق الذهب اصاله ـ هكذا قالوا له ـ وأخذوه فى عربة أنيقة وذهبوا به الى فندق فخم ، واجتمع لأول مرة برجل قالوا له أن اسمـه مستر « تشارلس هوب » . . . فى تلك الليلة عرضوا عليه المشروع بالتفصيل ، فشرب كما لم يشرب فى حياته ، وانتشى كما لم ينتش فى حياتـه ، وضحك كما لم يعرف الضحك من قبل . . . أمواله جمعها بعرق جبينه قرشا قرشا ، وكان يضع القرش فوق القرش ، ويكسب بالقرش قروشاً

أخرى ، ورجل انجليزى يحدثه حديث الند للند ، ويقول له « مستر همدان » ، ورأسه يدور ، وحديث المال يسيل لعابه . . . فهل يقامر بكل ماله مرة أخرى ؟!

ومثلما حدث فى الماضى تردد وأحجم ، أخذ يقلب الأمر فى ذهنه ، والرجل لايلح عليه ، والوسطاء لايطاردونه ، انقطع عنهم أياما فلم يعودوا الى الاتصال به ، أراد أن يجس نبضهم فذهب ليجدهم قد يئسوا منه . . . كان يعرف ما للانجليز من سلطة وسلطان . . . أن يشاركه أحد الاثرياء شرف لم يطمع فيه ، ولكن أن يشاركه أحد الانجليز ولهم مالهم فى البلاد من قوة ونفوذ ، أمر لايستهان به . . . ومنذ ما يقرب من عشرة أعوام حدث له ما كان يحدث فى تلك الأيام . . . حسب فى ذهنه حسبته ، فأنتجت أرقاما أطارت النوم من عينيه ليال عدة ، طلب أوراقا فقدموا له الاوراق ومعها كأس من الويسكى ، وبحث عن محام - ولم يكن يعرف الطريق اليهم - فدله أصدقاؤه على أحدهم ، صعد سلم أحدى العمارات الشاهقة ، ودخل مكتبا مهولا ، ورأى رجلا أشيب الشعر حدثه بكل أمره ، واستمع اليه الرجل فى وقار شديد ، قدم له الأوراق فنظر فيها مليا ، ثم أعادها اليه وقال :

« الاوراق كلها صحيحة يامعلم عبد الموجود ، والاجراءات اللى قالوا لك عليها ، والشروط الموجودة فى العقد سليمة وكويسة ، انما . . . . »

وصمت المحامى وراح يعبث ببعض الأوراق ، وانقبض صدر عبد الموجود ، وهم بسؤال الرجل عما فى الأمر ، لولا أن استطرد هذا بصوته الهادىء :

« انت متأكد من الجدع الانجليزى ده ؟ »

لعب الفأر فى عبه ، وتململ فى جلسته وهو يقول :

« تقصد ايه ياسعادة البيه ؟ »

« انت شفت الباسبور بتاعه ، رحت القنصلية وسألت عليه ؟ »

« أمال آنى جاى لك ليه ؟ »

« هو نازل فين ؟ »

« فى لوكاندة سيسيل . »

رفع الرجل سماعة التليفون ، وطلب من سكرتيره أن يتصل بالمستر تشارلس هوب . . . وساد الحجرة بعد ذلك صمت عميق ، وغرق عبد الموجود فى التفكير وقد استبد به القلق ، وانبعث رنين جرس التليفون فانتفض قلبه .

وتم كل شىء بعد ذلك بسرعة مذهلة .

أتصل الرجل بالقنصلية ، وعاد ينظر فى الاوراق من جديد ، وجاء الانجليزى نفسه ، وقدم للمحامى كل ما طلب من أوراق ، ومضت ثلاثة ساعات وهم يتناقشون ، ومضى بهم الوقت . . . وقبل أن ينتصف الليل كان كل شىء قد انتهى .

بعث حديث المال أحلام عبد الموجود بكل عنفها ، فقرر أن يقامر وليحدث بعد ذلك ما يحدث ، وقع بختمه ، وبصم بأصبعه ، وتسلم عقدا ، وشرب كأسا . . ودفع المال !

وطلب منه شريكه أن يكتم الخبر ، فكتمه ، ثم لم يستطيع ، فباح به . . . كان طموحه قد اشتعل فغرق لأذنيه فى أحلام كانت تراوده ليل نهار . . . وقرر ذات يوم أن يتخلص من قواربه . . . أحس فجأة أنه يريد أن يطرح عن كتفيه أحمال ماضيه بأكمله ، ويصعد سلما عاليا ، ويجلس فى شرفة مرتفعة ، ويطل على الناس من فوق . . . وعافت نفسه مجالس الرجال وسهراتهم ، فأخذ يبحث عن صحاب آخرين ، وارتاد أماكن بهرته وسلبت

لبه ، وعرف نساء لم يخطرن بباله ، وانفق ، وبذر ، وبعثر . . . ومرت الشهور دون أن تصل السفينة أو يصل خبر ، فأفاق على قلق عنيف استولى على مشاعره ، ذهب الى المحامى فطمأنه ، ذهب الى الوسطاء الذين نالهم من ماله الكثير ، فضحكوا من مخاوفه وأفهموه أن كلمة الانجليز واحدة . . . . وكانوا صادقين !

فبعد أيام وصله خطاب من « هوب » بعنوان محاميه ، ينبئه فيه بأن وصول السفينة سيتأخر عدة أشهر . . . وطلب « هوب » من عبد الموجود أن يكتب له عن أحواله ، وعن أسعار الاسماك ، وعدد من الرجال الذين يمكن استئجارهم ، وما كاد عبد الموجود يعلم بطلب شريكه ، حتى راح يقص على المحامى كل ما حدث منذ أن علم الرجال بخبر السفينة . . . وكتب المحامى تفاصيل كل شيء الى هوب ، وسرعان ما أرسل هذا خطابا جافا يلح فيه على عبد الموجود أن يكف عن الحديث عن السفينة ، وأن يشيع بين الرجال أنها لن تصل ، بل طلب منه أن يرسل قواربه للصيد كل صباح كالعادة . . . وألا يتصرف أى تصرف دون الرجوع اليه والاتفاق معه !

ونفذ عبد الموجود أوامر شريكه ، ومرت الأيام وهو يشعر وكأنه معلق بين السماء والأرض ، ينتابه القلق حينا ، وتطمئن نفسه حينا آخر . . . جاء الصيف وولى ، وجاء الخريف وانصرم ، ثم فوجيء ذات ليلة ـ بعد أن أذنت العشاء ـ بخبر وصول السفينة إلى الميناء !

وكاد يطير من الفرح ، وهرول إلى الميناء غير مصدق ، وصعد الى السفينة وكل خلية من جسده ترتجف بالانفعال حتي أنه لم ينتبه الى يد شريكه التى امتدت لتصافحه . . . أخذ يتحسس السفينة ويربت على صواريها ويدب بقدميه فوق سطحها ويدلف الى قمراتها ، ويهبط الى مخازنها ، ويصعد الى حجرة القيادة فيها ، ويروح ويجيء كالمذهول . . .

ثم أفاق أخيرا ليعلن على الرصيف ـ بعد أن اتفق مع هوب ـ أنه فى حاجة الى رجال ، وأنه فى حاجة ـ أيضاً ـ الى مشترين لقواربه . . .

ورأى فيما رأى من آيات الذهول رجلا يخبط رأسه فى الحائط وهو يصيح فى صوت كظيم : « ياخراب بيتنا ! » . . . ورأى فيما رأى من علامات الغيظ عيونا تفح نارا تريد أن تحرقه ، فحمد للظروف أن جاءت بالسفينة فى ذلك الوقت المتأخر وقد أوى الرجال الى المقاهى والبيوت . . . وانتظر الصباح بقلب واجف ، وإن كان يعلم أنه سينتصر ، لم يهتز أمام السباب الذى انهال من الافواه ، ولم يتراجع أمام التهديد والوعيد ، ولم يلن أمام دموع ذرفها البعض فى يأس . . . كان كمن وضع قدمه داخل قصر عاش عمره ليبنيه ، وكان السيد ، ولن يخرج منه إلا جثة هامدة . . . تحقق الحلم ، واشترى الدجاجة التى تبيض ذهبا ، فأين هو من عبد الموجود حمدان محمد الجعيطى ، الذى نزح من قريته جائعا ، منذ خمسة وعشرين عاماً ؟!

* * *

بدا شارع وكالة الليمون فى تلك الليلة قفرا ، كانت الرياح تهب من ناحية الميناء لتكنس تراب الطريق وتحمل بقايا الأوراق التى راحت تتطاير هنا وهناك ، وماءت قطة أفلتت من زقاق جانبى ، واندفعت تعبر الطريق مسرعة . . . وتسلل فأر من شق فى باب دكان ، وأطلق صراخا ثاقبا وهو يعدو على الرصيف محتميا بالظلام ، ثم اختفى فى شق آخر . . . كان الليل قد انتصف منذ ساعتين أو أكثر ، وظلت أضواء شارع الميدان ، بعرباته الكثيرة المكدسه بالبضائع من جبن وزيتون وفاكهة وحلوى ، تتلألأ لتصنع كتلة متوهجة من النور . . . ومن وسط تلك الكتله ، برز شبح رجل طويل القامه متلفع بشال صوفى ثمين ، وكان يقفز فى مشيته قفزات غير متزنه ، تدل الناظر اليه على طرب وسعادة يكادان أن يذهبا بالوقار البادى على هيئته . . .

وكان الرجل هو عبد الموجود حمدان . . . وكانت رأسه تحمل ـ فوق مابها من أبخرة الويسكى ، ودخان الحشيش ، وبقايا رائحته أمرأة أجنبية لازالت تملأ خياشيمه ـ كانت تحمل أفكاراً كثيرة ، وتجرى فى داخلها عمليات حسابية ، أعدادها تحوى ألوفاً أكثر . . . وكانت الليلة بلا شك هى أسعد، ليالى حياته .

وما إن أقترب عبد الموجود من منتصف شارع وكالة الليمون ، حتى انثنى الى اليمين ، ودلف الى حارة جانبية ، وغزت أنفه على الفور رائحة الحارة النفاذة ، فتوقف مترددا . . . ثم قرر على الفور أمرا خطيرا ، قرر أن يبحث لنفسه منذ الغد عن مسكن ملائم ، وليكن قصرا يليق بمقامه الجديد ، وبيتا يستطيع أن يدعو اليه أصدقاءه الجدد . . .

لكنه ما كاد يخطو فى الحارة خطوات ، حتى أحس ـ فجأة ـ بحمل رهيب يسقط فوق صدره ، وذراعين قويتين تحيطان بجسده ، وقبضة حديدية ترتطم بوجهه . . . حاول الصراخ ، فكتمت صرخته كف صخرية ، وانهال الضرب عليه بالأيدى والأقدام . تمزقت ملابسه ، وتعرى صدره ، وسقطت لاسته فوق الأرض وداستها أقدام ثائرة . . . وتلقى ضربة على أم رأسه ، فمادت به الأرض ، حاول أن يرى وجها من الوجوه العديدة التى أحاطت به ، فعاقه الظلام الدامس ، حاول أن يسترحمهم ، أن يفوه بكلمة ، فلم تسمح له الكف الصخرية بغير التنفس ، ضاق صدره ، وأصابه غثيان شديد ، وتلخلخت ركبتاه ، وثقل رأسه ، وكان آخر ما شعر به ، زمجرة غاضبة ، وبصقة اندفعت فى غل وصفعت وجهه . . . ثم غاب عن الوعى .

ـ ٢٧ ـ

بدا زقاق السيد البلطى فى صباح اليوم التالى كئيبا على غير العادة ، وتغيرت فيه الأحوال والمواقيت لأول مرة منذ زمن طويل . فقبل أن تصحو أم حنفى ، وقبل أن يصلها نداء المؤذن من فوق مئذنة المرسى أبو العباس ، مزقت السكون دقات صارمة فوق باب بيت المعلم محمد ، وانبعثت فى جنبات الزقاق أصوات خشنة ، وأوامر ، ووقع أحذية غليظة . . . وفتحت الجفون ، وارتجفت القلوب ، وهب الرجال من نومهم فى دهشة ممزوجة بخوف وقلق ، بينما جلجل صوت خشن فى فناء بيت المعلم محمد ينادى على : « محمود محمد البلطى » . . . وفى نفس الوقت صاح صوت آمر :

« فين بيت حنفى البلطى ياشاويش ؟ »

« لسه منعرفوش ياأفنديم ! »

« فتح عينك أنت وهو كويس ، اقف ياعسكرى عند باب الزقاق ، وانت خلى بالك من الأبواب ، محدش يخرج من الزقاق الا لما يفوت علىّ لحد ما نلاقى الاثنين ! »

ومضت لحظات قلقة ، انبعث بعدها صوت حنفى :
« أنى حنفى البلطى ، ايه الحكايـة ؟! »

وفى لحظة ، كان حنفى محاطا باثنين من الجنود ، وشهقت زوبه وهى تضم ذراعيهـا فوق صدرهـا ، وأزاحها المعلم صادق عن طريقة وهو يندفع الى الخارج سائلا عن الخبر .

ومضت دقائق قصيرة ، امتلأت بهرج ومرج ، وبكاء وعويل ، وشهقات ملتـاعه ، وسؤال بلا جواب ، وزجر رجل إمرأته أن تكف ، وسؤال يعقبه جواب مقتضب ، والحـاح يعقبـه تفسير غامض ، لكنه كان يدور على أى حال ، حول عبد الموجود حمـدان .

ثم غادر الجنود الزقاق بعد أن صحبوا حنفى ومحمود ، وبقى الجميع فى ذهول يضربون أخماساً فى أسداس ، تبكى أم حنفى وتولول ، وتصرخ أم محمود من أعماق صدرها ، فينتشر صوتها فى الزقاق نائحاً :
« يابنى . . . . ياضنايا »

وسرعان ما ارتدى الرجال ثيابهم ، واندفعوا من أبواب بيوتهم مهرولين ، ثم تجمعوا عند ناصية الزقاق فى انتظار من بقى منهم أو تأخر . . . فى عيون الجميع دهشة ممزوجة بالحيرة . . ماذا حدث ؟ . . . لاأحد يدرى ! . . . أعصـاب ثائرة وقلوب مضطربة . . . دموع النساء تنهمر بغزارة ، وصراخ الأطفال ملأ البيوت ، رجال الشاطىء انشق عنهم الظلام فجاءوا مهرولين على غير موعد ، وكأن رائحة الخطر قد أيقظتهم فى تلك الساعة المبكرة . . .

غادر المعلم محمد البلطى دارة وقد دثر كتفيه بشال سميك وراح يزفر فى غضب ، وكـان وجهـه جامداً لاينم عما فى صدره من تساؤل وخوف وقلق وحيرة . . . وحاولت زوجته أن تغادر الزقاق وراء ولدها ، فأوقفتها زمجرة رهيبة انبعثت من حلقه . . . غادر الرجال الزقاق وصوت أم حنفى يلاحقهم وهى

تسأل الكبير والصغير سؤالا أعادته عشرات المرات دون أن تجد له جواباً شافياً :

« هو حنفى عمل ايه ، ابنى عمل حاجة ؟ . . . مال العساكر وماله ؟»

تحرك الـركب وانثنى الى اليمـين ، تدب الأقـدام المتكـاثرة فوق أرض الطريق ، فينبعث عنها صوت مدو وكأنه صرخات رجال ذاهبين الى الحرب !

لعلع صوت المؤذن ، فحمله الهـواء والقى به إلى زقـاق صاح ، أبـوابه مفتوحة ، وعيون أهله فيها دموع . . . والتقطت أذنا أم حنفى صوت المؤذن فانقبض قلبها ، وصاحت بصوت مختنق :
« يارب »

ثم هدأت الأصوات بعد ضجيج ، وتجمعت النسوة فى منزل المعلم محمد لايفـارقنـه ، التففن حول أم محمـود وأم حنفى ، ورحن يتحدثن ويثرثرن ويتساءلن وينتظرن الأخبار . . . ثم تفرق حديثهن ، وتقطع ، وتباعد . . . فران السكون وغرقت كل منهن فى صمت كئيب .

* * *

فى ركن الحجرة جلست عائشة وقد دفنت رأسها فى كفيها ، وغاصت فى لجة عارمـة من التفكير . . . ورغم حزنها الصادق ، ورغم بكائها الحار ، إلا أنها فشلت فى الهـرب مما كانت تعيش فيه فى تلك الأيام . . . راحت تتسـاءل فى خوف عما سيفعلونـه بحنفى ؟ . . . زقاقهم نظيف لم تطأه قدم جنـدى طوال تاريخـه الـطويل ، ومـاذا صنـع حنفى حتى تقبض عليه الشرطة ؟! . . . ولماذا أتوا فى جوف الليل ولم ينتظروا حتى الصباح ؟! وهل سيأتى السيد أفندى ليسأل عن الخبر ؟ . . . ومتى يأتى ؟ . . . هل سيتزوجها أم ترى الأمر سيقتصر على المغازلات ؟ . . . أتصده أم تقبل عليه ؟ . . . طالما

قررت أن تصده بجفاء ، وترفض حديثه المعسول وغزله الملتهب ، طالما حاولت وجاهدت ، وبكت وتألمت . . . لكنها كانت تفشل ، دائما تفشل . . . ما إن تراه حتى تذوب فى نظرات عينيه الجسورتين ، وتنسيها كلماته كل شيء عدا وجوده وحبه . . . قال لها ذات يوم وهو يغادر البيت :

« ما بقتش قادر ياعيشه ! »

ردت عليه بصوت مرتجف ، لماذا يرتجف صوتها وهى تحدثه ؟

« ومين حايشك ياسى السيد ؟ »

« يعنى نتوكل على الله ؟! »

« حنفى تلاقيه فى القهوة دلوقت ! »

« بنقول يعنى . . . الصبر طيب ! »

« كل صبر وله آخر ! »

« حبى لكى مالوش آخر وحياة النبى محمد ! »

« مش باين ياسى السيد ، هو الحب كلام ؟ »

« وأنت بتحبينى ياعيشه ؟ »

ارتجفت ، صوب إليها نظراته فنفذت إلى قلبها وسكنت فيه ، وجعلته يرقص رقصاً مجنوناً ، تلاحقت أنفاسها ، وبردت أطرافها . . . حاولت أن تتحرك ، أن تفر من أنفاسه التى كانت تقترب ، كيف تفر وهذه الأنفاس تشدها اليه وكأنها عبير الحياة ؟ . . . صدره العالى يحجب عن عينيها كل شيء فلا ترى سواه ، صاعد هابط ، ضخم هائل ، يمتلىء بالهواء فى شهيق يكاد يجرفها الى الداخل ، كم تتمنى ان تعيش داخل صدره ، عيناها تغلقان بقدرة هائلة ، يداه تطبقان على كتفيها ، وصرخة تتمرد فى صدرها ، تمتد وتتضاغط ثم تتهاوى لتصبح أنفاساً باردة متقطعة ، عندما لامست شفتاه جبينها أصيبت بدوار ، وتسلل خدر كخمر الجنة الى جسدها . . . لتمت زوبه ، وليذهب حنفى الى الجحيم ، لكن صوت أمها انبعث فى تلك

اللحظة كفرقعة سوط أيقظها من أعمق موته ! . . . ارتجف جسده وتشبث بها ، لكنها صحت وأفاقت والصوت يلاحقها : « عيشه . . . عيشه » ، لماذا لا تموت هذه العجوز وتتركها لحالها ؟!

« فتك بعافيه ياعيشه ! »

قال لها ذلك وهو يغادر البيت مهرولا . . . واختفى عن نظرها فقالت فى صوت حالم :

« ربنا يعافيك ويرضيك ياسى السيد ! »

لماذا مضى ، لماذا ذهب ؟ . . . أحلى مافى الدنيا هو الرجل ، أجمل من الأم ، وأروع من الأخ ، وأقوى من الأب . . . الصوت يلاحقها ، تستدير مسرعة فى غل وغيظ ، لماذا لاتكف العجوز عن النداء الى الأبد ، لماذا لايحملها حبيب القلب الى آخر الدنيا حتى لاترى سواه ؟ . . . ليأخذها من هذا البيت ، الى أقذر بيت ، وأحط مجتمع ، فما عاد فى صدرها متسع للصبر .

* * *

النسوة حولها عدن إلى الثرثرة من جديد ، وخزة ضمير يقشعر لها بدنها ، كيف تحلم بالحب وشقيقها فى السجن ؟ . . . أخذوه عنوة ، واختطفوه على غير انتظار ، كان شخيره يملأ الحجرة ثم انقطع ، هل ستسمعه مرة أخرى ؟! . . . كيف تفكر فى السيد أفندى ؟ . . . من أى معدن خلقت ؟ . . .

« ياحبيبى ياخويا ، يازين الرجال ياحنفى ! »

لماذا يثرن ويصرخن فى وجهها ، لماذا يقلن لها : « بعيد الشر »؟ ، كم هى

لذيذة دموع الحسرة عندما تبلل أطراف جفوننا الملتهبة بقيظ الحرمان ! . . . زوبه منكمشة على نفسها تبكى فى حرقة ، مشاعر غريبة تتلاطم فى صدرها ، لاتدرى ان كانت تحبها أم تكرهها . . . لماذا تبكى هذه الفاجرة ، أعلى حنفى حقا أم على قبلاته وضماته . . . ضوء النهار يتسرب الى الزقاق ، والشمس تصعد الآن من وراء الأرض لتغمر كل شىء ، والوقت يمضى وحبيب القلب لم يحضر ليسأل عن الخبر . . . لكنه حتما سيأتى . . . وسيقف مع الرجال كألف رجل . . .

« أحم أحم . . . ياساتر . . . ياجماعة ! »

كف ياقلبى عن الخفقان ، يجذبك صوته بخيوط سحرية فتتراقص وكأنك فى زار أقيم للقلوب الملتاعة ، مجنون أنت ؟! . . . أثبت حتى لاترى النسوة لهفتك للقائه ! . . .

« قومى ياعيشه ردى على السيد أفندى ، قومى يابت ! »

عينا زوبه مسلطتان على وجهى ، دموعها جفت هذه الثعلبة ، السخرية تطل منهما وكأنها تعرف كل شىء . . . وصوت العجوز يلح فى رتابة :

« اتحركى يابت الراجل واقف ! »

« حاضر ياأمه ، حاضر . . . دهدى !! »

— ٢٨ —

كان السيد أفندى موقنا فى قرارة نفسه ، أن حنفى البلطى لن يوافق — بشكل أو بآخر — على زواجه من عائشة . . . كان يشعر أن عائلة البلطى — رغم مايربطه برجالها من ود وصداقة — حصن من المستحيل عليه اقتحامه بحال من الاحوال . . . وحتى عندما استجابت عائشة لغزله ، فسر تلك الاستجابه باقبالها عليه دون النظر الى اصله وفصله ، فسر ذلك بأن الحب أعمى ، وأن القلب له واحد . . . وللحظ ، الحظ وحده ، كان هو هذا الواحد !

ورغم ما كانوا يظهرونه له من حب حقيقى وتقدير عميق ، إلا أن جبنه وخوفه كانا يتغلبان عليه دائماً ، فما أن يقرر التقدم لطلب عائشة ، حتى توقفه قوة قاهرة لايستطيع حيالها غير التراجع والانكماش والصمت .

وكان يعجب أشد العجب لذلك الارتياح الذى كان يشعر [illegible] الرجال عن سفينة عبد الموجود حمدان ، ولم يستطع [illegible] ارتياحه هذا ، وقد بدا له أنه جرم عظيم ، على أنه [illegible]

سره ذات ليلة . . . عندما راح يفكر فى ذلك اليأس الذى انتاب الرجال أخيراً ، وذلك الضعف الذى كان يغزو تصرفاتهم وأفكارهم يوماً بعد يوم آخر . . . أحس فى تلك الليلة أنه أقوى منهم ، أو على الأقل اصبح يساويهم . . . وأزعجه هذا الاحساس أيما ازعاج ، لكنه ــ كالعادة ــ استطاع أن يتغلب على شعوره هذا بقليل من الجهد ، بل أصبح من الواضح أنه يتمنى أن تأتى السفينة ، وأن تهزم البلطيه بأحمالها وقوتها !

وقد جاءت السفينة ، وعلم بخبر القبض على حنفى ومحمود . . . كان ذلك فى المقهى الذى اعتاد أن يشرب فيه كوب الشاى كل صباح قبل ذهابه إلى المستشفى . . . سمع الرجال يتحدثون بما وقع فى الليلة السابقة ، فراوده شعور بالفرح والغبطة لوصول السفينة للحظة ، لكنها كانت مجرد لحظة خاطفة ، اختفى بعدها من نفسه كل شعور أو احساس عدا احساسه بالمسئولية ، وأن حنفى ومحمود فى السجن ، وأن عائشة ربما كانت فى حاجه اليه . . . وأحس لأول مره فى حياته ، أن عليه واجباً ! !

نهض من مقعده كالملدوغ ، وغادر القهوة وقد سيطرت عليه اللهفة ، ولم يفكر ــ ولو لبرهة ــ فى المستشفى ، وفيما يمكن أن يحدث لو تأخر عن موعده . . . لم يفكر فى رفض حنفى أوقبوله ، ولم يفكر فيما يمكن أن يظهر به أمامها لو صنع مايمكن أن يصنعه فى مثل هذه الظروف . . . كل مافكر فيه وأحسه ، وشعر به ، هى لهفته على الوصول إليهم ، فربما كانوا فى حاجة اليه .

وفى منتصف الطريق إلى الزقاق ، تذكر فجأة أن عليه أن يتوجه الى القسم حيث يوجد الرجال ، فالزقاق لابد خال منهم . . . لكنه لعجبه ودهشته . لم يفرح لهذا الخاطر ، ولم يستطيع أن يحول قدميه عن خط سيرهما ، كان مندفعاً فى طريقه بسرعة لم يعتدها فى سيره . . . ربما كانت النسوة فى الزقاق

فى حاجة الى شىء . . . ليقم بواجبه أولا حيث تشتد الحاجة اليه ، ثم لينضم بعد ذلك للرجال .

وما ان أقترب من الزقاق حتى داهمه احساس طاغ بالضياع ، وجد نفسه يتساءل فى جد غريب : « لماذا لايتقدم للزواج من عائشة ؟ » . . . تغير مجال تفكيره حينما ملأت خياشيمه رائحة الزقاق التى كانت تثير عواطفه وغرائزه إثارة لاقبل له بمقاومتها ، وبدت له مخاوفه فى تلك اللحظة تافهة حقيرة . . . وبدت له أكثر تفاهة وحقارة عندما طالعته عائشة بوجهها المحتقن وعينيها المنفختين وشفتيها ودموعها وجسدها المرتجف . . . بدت له كقطة ضائعة لاحول لها ولا طول ، فانفجر فى اعماقه احساس فياض بالحنان . . . تبادل معها كلمة أو كلمتين ، وسألها أن كان أحد فى حاجة الى شىء ، فشهقت من خلال دموعها شهقة نفذت إلى قلبه مباشرة . . .

« ربنا مايحرمناش منك ياسى السيد . . . »

أراد أن يتلكأ ، فنخسه شعوره حيال الواجب نخسا دفعه الى توديع عائشة بكلمة خطفها خطفاً وهو يستدير مغادرا مكانه . . . على أن صوتها ما لبث أن استوقفه مرة أخرى ، فوقف وبينه وبين ناصية الزقاق خطوتان أو ثلاث . . . حيث تجمع بعض الرجال عند الاسطى عبد المولى الحلاق ، وأخذوا يرقبون معه فى شىء من الدهشة كل مايجرى فى داخله ، وعلى الرغم من هذه العيون المسلطة عليهما ، إلا أن عائشة أخذت تتقدم منه غير مبالية حتى كادت تلتصق به ، وأمتدت يدها وأمسكت بذراعه ورفعت إليه عينيها فى توسل وهى تهمس :

« ماتتأخرش على والنبى ياسى السيد ، ربنا [illegible] لى من كل عين ! »

عند ذلك فقد الرجل سيطرته حتى على تفكيره ، فاض به الحنان فامتدت يده وربت على كتفها وهو يقول لها بحدة الرجل الذى يخاطب امرأته :

« ارجعى انتى البيت ، آنى حانشوف اللازم ! »

خفضت رأسها فى استسلام وهى ترد عليه بصوت خفيض :

« حاضر ! »

كانت نشوته فى تلك اللحظة قد وصلت الى قمة القمم ، فاستدار مغادراً الزقاق وهو ينظر أمامه فى حدة من يعلم طريقه جيداً ، وعندما ألقى بالسلام على الرجال المجتمعين عند ناصية الزقاق ، والذين كانت الهمسات تتململ فى حلوقهم وعلى ألسنتهم فى انتظار ابتعاده ، كان قد اتخذ قرارا . . . وكان قراره هذه المرة حاسما لارجعه فيه . . . سيطلب عائشة فور الانتهاء من الأزمة !

ولأول مرة فى حياة السيد أفندى عبد الرحمن ، الممرض بمستشفى الاسكندرية الأميرى ، تغزو نفسه راحة من نوع غريب لم يعهده ، كانت الطمأنينة قد هبطت على قلبه ، فأحس برغبة طاغية فى اللجوء إلى جامع ليتوضأ ويصلى . . . بل ويبكى فى سعادة . . . كان يرتجف بانفعال أخاذ ، ويفكر فى عائشة وكأنها زوجته تماما . . . ولم يفكر اطلاقا فى التردد ، لم يعد يخاف حنفى أو المعلم محمد ، بل أحس أنه يحبها للاشىء ، ابتسم فى سخرية عندما تذكر مايقوله الناس عن السر الذى يتوارثونه بينهم أبا عن جد . . . وقال هامساً لنفسه :

« دول سرهم أنهم ناس جدعان وحياة النبى ! »

لم تعد هناك سوى حقيقة واحدة لاتقبل أى اعتراض . . . هذه الحقيقة هى عائشة !

وما أن وصل إلى القسم ، وألقى بنفسه وسط عشرات الرجال الذى

تجمعوا حول أفراد العائلة ، حتى انضم فى غير تردد أو وجل الى المعلم محمد ووقف بجواره فى ثبات . . . ولشد ماكانت دهشته عندما تنبه ـ لأول مرة فى حياته ـ أن الرجال يعاملونه كواحد منهم حقا . . . أفسحوا له مكانا بجوارهم ، وقصوا عليه القصة بحذافيرها ، تماما كما يفعلون مع رجال العائلة . . . وأحس السيد أفندى بنظرات رجال الشاطىء المتجمعين وقد انصبت عليه من كل جانب فى تساؤل ، وسمع المعلم محمد وهو يقول ، وكأنه يفسر لهم حقيقة غابت عنهم :

« سيد أفندى الباشتمرجى . . . واحد منا وعلينا ! »

ومضت الدقائق . . .

وجاء شهود كثيرون . . . وتسربت الأخبار من الداخل أن حنفى ومحمود كانا فى القسم بالأمس حتى وقت متأخر ، وأنهما قضيا ساعات بعد ذلك فى بوظة حسين شلوفة . . . وبدأت الطمأنينة تغزو قلوب الجميع عندما جاء حسين شلوفه ، واندفع نحو حجرة التحقيق متحمساً ، وخرج منها متحمساً . . . وجاء زين الطبال ، والشاطر الزمار ، والمعلم جمعة . . . ورجل وراء رجل ، ثم طلبوا من يضمن حنفى ومحمود !

وتقدم على الفور المعلم محمد وحمودة والمعلم صادق . . . وقال المعلم محمد وهو يتحرك نحو الداخل :

« يالله بينا ياسى السيد افندى ! »

فاندفع السيد أفندى فى حماس وفرح . . . وعندما انحنى ليوقع على الأوراق ، قال فى اخلاص وفى صوت ثابت :

« برقبتى ! »

وانتهى كل شىء . . . وخرج محمود وحنفى ، وتفجرت فى نفس السيد

افندى ينابيع سعادة لم يذق مثيلا لها من قبل . . . وتحرك الركب الهائل مخترقاً شارع باب الكراسته ، ثم شارع البحرية فى طريقه إلى الميناء . . . واخرج السيد أفنـدى ساعته ، فوجدها قد جاوزت الثانية عشرة . . . فاقترب من المعلم محمد وقال له بصوت ثابت قوى :

« آنى حانـروح الـزقـاق نبشر الجـاعـة يابا محمد ، وبعدها نتوكل على المستشفى ، نطلب إجازة ونرجع طوالى !! »

وهز المعلم رأسه موافقاً ، بينما ربت السيد أفندى على كتف حنفى فى حنان وهو يقول باسماً :

« ألف نهار أبيض يارجاله . . . ألف نهار أبيض . »

وقال حنفى دون أن تتحرك تقاطيع وجهه الصارمة ، والتى بدت فى ذلك الصباح وكأنها قدت من الصخر :

« مع السلامة ياسيد أفندى ماتتأخرش علينا بالليل ! »

ـــ ٢٩ ـــ

كانت الشمس قد توسطت طريقها مابين الشرق والغرب حينما ظهر السيد أفندى على باب الزقاق مهرولاً ، وجهه الأحمر غطته قطرات العرق رغم برودة الجو ، يطل من عينيه بريق فرح طاغ ، شفتاه مضمومتان وكأنه اعتزم أمراً هائلاً .

كانت عطيات أول من رآه ، فأخـذت تتقـدم منـه فى خطى متعثـرة متعجلة ، أدهشها منظره الغريب الملتهف ، فخفق قلبها خفقانا شديدا ، وما إن إقتربت منه حتى قال وهو يطلق الكلمات فى سرعة فتلاحق مقاطعها أنفاسه اللاهثة :

« مبروك ياست عطيات ، خرجـوا دلـوقت من الكـركـون ، ظلم والله العظيم . . . ظلم اللى عملوه معاهم ! »

جلجلت فى الزقاق زغرودة عطيات ، وأطلت على الفور وجوه ارتسمت عليها الدهشة الممزوجة بالفرح ، وانطلقت زغرودة أخرى ، وهرولت النسوة

وغادرن البيوت مستطلعات مايحمل الرجل من أخبار ، وسرعان مادوت الزغاريد متلاحقة متشابكة ، وخرج الأسطى عبد المولى من محله وأطل على ما يجرى داخل الزقاق وهو يقول لمن حوله : « محمود وحنفى خرجوا !» . . . ووقف طفل ، وتوقف آخر كان يجرى ، وتجمع رجال ونساء وانطلقت الزغاريد من الأفواه ، والسيد أفندى يقف وسط حلقة النسوة منفوشاً يطل من عينيه فرح كان يرتجف له ، يحملق فى الافواه المزغردة أمامه ، والألسنة تتحرك فى فرقعة عالية كأنها لهيب نار محبوسة ، ودارت عيناه ثم توقفتا عند فم . . . شفتاه الرقيقتان انفرجتا عن ابتسامة ، يعلوها أنف كبير غير أنه متناسق ، وعينان بدتا فى تلك اللحظة وكأنهما تزغردان بالنظرات ، وضوء الشمس المطل من أعلا الزقاق يستلقى على تقاطيع الوجه ليضيئها بنور هادىء ، والتقت عيناه بعينى عائشة ، وابتسم فى جزل وكأنه طفل ، وابتسمت فى سعادة ، فهمس ومن حوله كل النساء وكأنه نسى نفسه تماماً :

« الليلة ياعيشه . . . الليلة بإذن الله !»

وارتفعت كف عائشة الى أعلا فمها ، وانفرجت شفتاها ، وتلاعب لسانها فى زغرودة ارتفعت لتغطى بجلجلتها على كل ما عداها ، وتوقفت النساء ورحن ينظرن اليها ، وظلت هى تزغرد وتزغرد ، وتطلق حنجرتها رنينا ذهبيا نفذ الى كل قلب . . . و . . . وعندما توقفت وهبطت يدها الى جوارها ، بانت عيناها وكانتا دامعتين باسمتين جميلتين كأحلى ماتكون العيون . . . وراحت تلتهم وجهه بنظراتها ، ثم انتبهت لنفسها فولت الأدبار ، واختفت وراء باب بيتها وهى تمسح دموعاً غزيرة كانت تنهمر بلا حساب .

وما كادت تصل الى الفناء ، وتستدير الى اليمين ، حتى توقفت . كانت زوبة قابعة بجوار باب حجرتها وهى تبكى فى صمت ، متمتمة فى راحة .

« الحمد لله ، الحمد لله ، ألف حمد وشكر يارب . . . نحمدوه !»

توقفت عائشة قليلاً . . . ورفعت زوبة اليها عينين مبللتين بالدموع ، وما أن التقت عيونهما ، حتى ارتجفت عائشة ، ثم اندفعت — بلا وعى — تلقى بنفسها الى جوار زوبة ، وتحتضنها فى حنان . . . وازداد بكاء زوبة ، وانهمرت دموع عائشة بغزارة وهى تهمس فى صوت هادىء :

« زوبة . . .»

« الحمد لله على سلامته ياعيشه !»

وتساءلت بينها وبين نفسها ، كيف كرهت زوبة وهى التى احبت أخاها ؟! . . .

« زوبة . . . كفاية عياط يابت خالتى !»

« ربنا يطول عمره ويخليه لكى يابت خالتى !»

وابتسمت عائشة بكل وجهها ، ثم همست فى عتاب وهى تلتصق بزوبة :

« ولكى أنت كمان يازوبة . . . ياندامة ياختى !»

ولاح على وجه زوبة شبح ابتسامة . . . ثم نظرت كل منهما نحو الأخرى ، وألقت بنفسها فى أحضان أختها . . . وغابتا فى بكاء سعيد !

— ٣٠ —

اشتـد الضجيج فى مقهى سلومـة ، واختلطت الأصـوات ، واحتـ
النقاش ، وتشابكت الكلمات والألفاظ الغاضبة فى عراك ثائر مضطرب .

كان المعلم محمد البلطى ـ كعادته ـ يتصدر المجلس ، وقد اكتظ المكا
وامتلأ بالرجال الذين تركوا قواربهم حيث كانت منذ الليلة الماضية ، فبد
لهم فى ذلك الصباح كأنها هياكل عظيمة لأطفال متسولين متناثرين حـ
عظيم ضخم الجثة مترهل التقاطيع ، تغطيها شباك رقيقة كالخروق البـ
لا تستر منها عورة ، بينما تتدلى من جوانب سفينة عبد الموجود شباك غلا
سميكة كأنها كسوة غنى مقتدر . . .

عندما رأوها فى الصباح وقفوا أمامها مبهوتين ، قد انغرس نصل الـ
فى صدورهم فأوجعهم ، وخرجت كلماتهم حينئذ كالأنين ، وتكوم بعـ
فوق الرصيف يختلس النظر الى الوحش الجاثم أمامهم فوق سطح المياه
خوف ورعب وحسرة ، وراح البعض الآخر يهذى بكلمات لا معنى لها
وصعدت الشمس من وراء الأفق ، وفتحت الدنيا عينيها ، فما فكر أحد

فى مغادرة مكانه أو الخروج بقاربه . . . وتسامعوا بما حدث فى الليلة الماضية لعبد الموجود ، فلم يختلف اثنان منهم أن الفاعل هو حنفى دون غيره وجاءتهم الأنباء بأن محمود وحنفى قد قبض عليهما ، فأشاح رجل منهم قائلا فى صوت مختنق :

« آنى ورايا عيـال ! . . . . »

وقال آخـــر :

« آهى دى آخرتها !! »

وغمغم ثالث :

« ياعم دا عبد الموجود مشارك إنجليز . . . هو حد قدهم ؟! »

وهب رابع يصيح فى ثـورة :

« لكن حنفى ما سابش وراه عيال يارجاله ، هى دى تيجى ؟ . . . كل واحد منا بكلمة وسيبوا الراجل فى الكركون . . . أقلها نعملوا حاجة ، آنى حانروح الكركون ورزقى على الله ! »

ولم تطل المناقشـة ، أحس البعض أنه كان يكذب على نفسه ، وشعر البعض ـ رغم الاحساس باليأس ـ بغيظ يدفعه الى الوقوف بجوار حنفى ، واندفع الباقون بلا تفكير وراء الذاهبين الى قسم الشـرطة .

وعلى غير ماظن الجميع ، ما أن أذن الظهر وانتصف النهار ، حتى أفرج عن حنفى ومحمود . . . فعاد الجميع الى الرصيف مخترقين شارع البحرية فى مظاهرة صاخبة ، وما أن تجمعوا فى المقهى ، حتى أمدهم تجمعهم براحة لم يعهدوها فى أنفسهم منذ زمن طويل ، وما أن مضت الدقائق ، حتى اشتد صخبهم وجدلهم وصياحهـم .

ارتفع صوت رجل من وسط الجمع صائحا :

« كلنا نعرفوا كده كويس يا معلمى ، محدش من عيلة البلطى يضرب فى الضلمة . . . محدش منهم يعملها أبدا ! »
وصاح آخر بحماس شديد :
« ما هو احنا لو سبنا عبد الموجود على حل شعره ، حايتفرعن أكتر وأكتر . . . لازم نشوفوا لنا حل ، وإلا أيه ياسى حنفى ، مالك ساكت كده ؟! »

رفع إليه حنفى عينين جامدتين ، ليس فيهما ما يوحى بما يفيض به صدره من ضيق وحنق . . . ثم عاد ونكس رأسه من جديد ، وراحت عيناه تتنقلان بين الوجوه ، حتى استقرتا فوق وجه محمود ، فهمس حنفى فى صوت خافت :
« مالك يامحمود ، بتفكر فى أيه ؟! »
وزفر محمود ولم يرد . . . وارتفع صوت المعلم محمد وهو يرد على رجل كان يحدثه :
« مفيش حد يعمل حاجة . . . تو ماينزل عبد الموجود الشط ، ويقرب ناحية المتعوسة دى ، آنى حانعرف نأدبه ازاى !»
جز محمود على أسنانه ، وقال موجها الحديث لأبيه :
« حاتعمل ايه يابا ؟! »
« حانعرف شغلى كويس ! »
وعاد محمود الى الحديث ، فصمت الجميع وقد تعلقت عيونهم بالرجل وولده :
« اللى انهان آنى وحنفى يابا ، واللى يربيه آنى وحنفى برضه ! »
لاح الشر فجأة فى عينى المعلم محمد ، وصرخ بصوت مجلجل :
« آنى قلت محدش يقرب له ، يعنى محدش يقرب له ، فاهم ياواد ؟! »

« احنا يابويا رجاله ، ما احناش عيال ! »
وعلى غير انتظار ، رفع المعلم محمد يده وهوى بكفه على صدغ ولده ، ودوى صوت الصفعة فى آذان الرجال ، وسقطت غلاله الهدوء وانحسرت عن نفس المعلم محمد المضطربة الثائرة ، واشتد السكون عمقا ، وتوترت الأعصاب ، وانجذبت كل العيون نحو الرجلين وقد واجه كل منهما الآخر . . . وعاد المعلم محمد الى الصراخ :
« انت بتبص لى ياواد ، أرخى عينك الا نقلعها وحياة مقام المرسى ! »
زفر محمود وهو يرخى عينيه ، بينما قال حنفى فى هدوء :
« يابا محمد ، فى نفسى نقول كلمة وأجرى على الله ! »
كان صوت حنفى هادئا ممتلئا ، وكأنه حائط هائل اصطدمت به ثورة المعلم محمد لتتفتت ، غير أنه عاد الى الصراخ من جديد وهو يجمع شمل غضبة فى عناد :
« قلت اسكت ياواد ! »
« احنا ولادك صحيح يابا ، لكن انت مترضاش الشنب اللى فى وشى ده يبقى على مره ! »
وصاح المعلم محمد كمن فقد أعصابه :
« عيلة البلطى مافيهاش نسوان يابن الكلب ! » .
« ما أنت عاوز تخلينا نسوان يابا محمد ، كلامك على العين والراس ، انما . . . انما احنا درعاتك ورجالتك برضه . . . آنى منقصدش نقول اللى قاله محمود ، آنى نقصد حاجة تانية ! »
ووجد محمود ثغرة من الصمت ، فقال بسرعة هو يرمق المعلم محمد :
« برضه حنفى وياه حق يابويا ! »

حاول المعلم محمد أن يسيطر على مشاعره ، وأن يكبح جماح غضبه . . . لكنه فشل تماما ، أحس كأن شيئا يجثم على صدره ليكتم أنفاسه . . . كان موقنا أن حنفى لايثرثر ، فلابد أن وراء كلماته شيئا يريد قوله ، وكان واثقا من ذلك الشىء الجاثم على صدره ، ذلك الهم الذى ابتلى به منذ أن علم به فى الصباح .

رنا ببصره نحو ولده ، وكان محمود صامتا منكس الرأس ، سارح النظرات كأنه ميت . . . فتساءل فى مرارة : « كيف أحب ولده تلك العاهرة ، وكيف زج بنفسه فى جريمة كالتى حدثت بالأمس ؟ . . . بل الأنكى من هذا وذاك ، كيف يذكر اسم البلطى مقرونا باسم مومس و . . . وفتوة قاتل ؟! »

منذ أن علم بالامر وهو يبحث عن جواب ، عن حل يشفى غليله ، لكنه كان يزداد تخبطا كلما أمعن فى التفكير . . حمد للظروف أن صاحب ولده رجالا وقفوا الى جواره وساندوه وتحمسوا للشهادة معه دون تردد أو خوف . . . لكن ، من هم أصدقاء ولده ؟ . . . ماهى أعمالهم ؟ . . . طبال وزمار وصاحب بوظة ؟ ورجل اسمه جمعة ، لاعمل له !

ثم . . . وكأنه يهرب من نفسه ، وكأنه ضاق بكل شىء ، رفع رأسه فى حدة ، وصاح بصوت كظيم طالباً جوزة . . . كانت هذه هى عادته كلما ضاقت به الحال ، كف عن تدخين الجوزة منذ سنوات واكتفى بالسجائر . لكن الحنين كان يراوده بين الحين والآخر أو كلما شغل ذهنه أمر ، وقتها كان يطبق على طرفها بشفتيه ، ويملأ صدره بدخانها وكأنه يذيب فيه همومه . . . وقد جاءت الجوزة ، وأطبق بشفتيه على طرفها وراح يمتص منها الدخان بشراهة كأنه طفل يرضع من ثدى أمه بعد حرمان مميت . . . وعندما صاح أحد الرجال فى مرح : « ومع التعميرة كباية شاى من عندى آنى ، بس وحد

الله يامعلمى وقول يانبى ! » . . . لم يملك العجوز نفسه من الابتسام ، فسرت فى الجو نسمة ارتياح ، وتنهد حموده وهو يقول :

« أيوه ياحنفى ، كمل كلامك وقول كل اللى فى نفسك ! »

فقال حنفى وهو يوجه الحديث الى عمه :

« بقى صلى بنا على المصطفى يابا . »

وتصاعدت الاصوات من كل جانب :

« ألف صلا على الحبيب . »

وعاد حنفى الى الحديث :

« يابا محمد ربنا عرفوه بالعقل ، وعبد الموجود انضرب امبارح بالليل . . . الكلام ده زين ؟! »

قال المعلم محمد فى لامبالاة :

« هيـه ! »

« المركب وصلت امبارح بعد العشا . . . »

« قصدك ايه . . . ماتتكلم دوغرى ! »

« قصدى نقول ان اللى ضرب عبد الموجود ناس منا ، رجاله من اللى قاعدين معانا دلوقت ! »

وجم المعلم محمد ، وانتفضت الالسنة بالهمهمات والاستنكار ، وارتفع صوت حنفى مواصلا حديثه غير عابىء بالدهشة التى ارتسمت على الوجوه .

« آنى بدى نقول كلمة . . . احنا رجالة الشط ده ، وكل من فينا لازم يدارى على أخوه ، واللى ضربوا عبد الموجود امبارح كانوا زيى وزى محمود وزيك يابا محمد ، دمهم فاير . . . آنى منقصدش انى نغير الموضوع أو نقلبه ، لكن نقصد انى نسأل اللى عملوا العملة دى سؤال ، هو الضرب

حايجيب نتيجة ؟ حايخلى عبد الموجود يرجع المركب بلدها ؟! »

صاح أحد الرجال وهو يواجه حنفى فى تحد :

« قصدك ايه ياحنفى ؟! ، هو ده اسمه كلام برضه ؟! »

« أيوه كلام ، وكلام مظبوط قوى ، اللى يصح اننا نفكر فيه هو ازاى نضرب عبد الموجود فى رزقه ياخلف ، مش فى دماغه . . . لو كان جرى للراجل ده حاجة ، كان فيه ناس منا دخلوا اللومان ، وكانت المركب حاتفضل برضه . . . بس حاتفضل وعلى قلبها واحد غريب ، لكن احنا لو فكرنا بالهداوة ، كلمة منى وكلمة منك ، حانوصلوا الحل ، كده والا لأ ؟! »

« لأ !! »

قالها محمود فى ثورة نطقت بها تقاطيع وجهه المتقلصة ، والتفت إليه حنفى دهشا ، وعاد محمود يقول من جديد :

« أيوه لأ . . . احنا لو سبنا المركب تطلع مش حانلاقوا القمة نأكلوها . . . مفيش حل غير كده ، آنى بنقولها بعلو صوتى ، المركب دى مش . . . »

وقاطعه حنفى بصوت ثابت :

« اسمعنى يامحمود لحد مانخلص كلام ! »

« ماهو ده ما اسموش كلام ياحنفى ! »

وصاح رجل متدخلا فى الحديث :

« هى هزلت ، هى الخيانة حاتبقى عينى عينك ؟! »

وزمجر آخر :

« حنفى جرى له ايه ، ده زى اللى بيقول للرجاله روحوا اشتغلوا مع عبد الموجود ، صلاة النبى ياجدعان ! »

وانتفض حمودة وهو يصيح فى الرجال بصوت مختنق :

« استنوا شوية لما الراجل يخلص كلامه ، هو ده تفاهم ؟ . . . احنا

حانتخانقوا مع بعضينا ، طولوا بالكم لحد مايقول سلامو عليكم ، أما عجايب ! »

وعاد حنفى يحتد فى الحديث صائحا :

« افرضوا اننا غرقنا المركب ، حانكسبوا أيه ، ناس منا حايدخلوا اللومان ، ومركب تانية حاتيجى ، أو يعوموا المركب تانى . . . هو لعب دى فلوس ياخلف ، فلوس . . . آلافات ! »

وعاد اللغط من جديد ، واختلطت الأصوات فى نقاش حاد مضطرب ، وانقسم الرجال الى قسمين وراحوا يتصايحون ، ويهذون ويتخبطون . . . والمعلم محمد قد دس طرف الجوزة بين شفتيه وراح يجذب منها أنفاسا متلاحقة ، وحنفى راح ينقل البصر بين الوجوه فى حيرة وكان واضحا انه يتعذب . . . ونسى محمود شجاره وتحمسه وانفعاله فى لحظات ، وتراجع الى نفسه وغرق فى التفكير ، راح يتساءل فى ضيق : « لماذا تغلى دماؤه ويحتد ويثور ويصيح ويخبط رأسه فى الحائط ، ثم يهدأ دفعة واحدة وكأنه لم يكن الثائر الصائح المحتد ؟! » . . . زفر كمن يبكى وهو يذكر كايداهم . . . وأخذت أصوات الرجال تبتعد عن مجال وعيه تدريجيا ، ثم تلاشت ، بحث فى ذهنه عن فكرة تعيد اليه الحياة ، فلم يجد سوى ركود آسن بلا حياة . . . انفجر فى صدره الغيظ من جديد ، ثم أذابته سحابة المرارة الداكنة عندما اكتنفته . . . شعر كأنه يتزلق فى منزلق بلا قرار . . . الى أين ؟! . . . تمنى من أعماقه أن يودع الحياة ، ثم بدت له جميلة فى العودة الى البحر ، وتمنى أن يترك الرجال فى جدلهم وصراخهم واحتدادهم ويقفز الى القارب ويطرح الشبكة ويجذب الصيد ويقول الشعر فى سلام ! . . . لاحت البوطة فى أفق تفكيره ، فاضطرب قلبه لحظة بالحنين ، ثم هدأ . . . جو المقهى أصبح دافئا وكأن أنفاس الرجال من نار حامية ، رأى الحيرة فى وجوههم وفى صراخهم ، وشعر انها تمزقهم ، فحزن حزنا شديدا . . . حزنه أصبح كرداء غليظ لروحه

هيهات أن تلقيه عنها !... ماذا يريد الرجال ؟... وماذا يريد هو ؟... ولماذا فعل عبد الموجود فعلته تلك ؟... تمنى أن يلقى برأسه فوق صدر أبيه ويبكى فى حرقة !... أبوه يتحدث لكن الصوت لم يكن صوته ، فتساءل فى لهفة ، من أين جاء المعلم محمد البلطى بصوت كهذا ... كان صوتا مرهقا متعبا ، كلماته تلهث فوق شفتيه وكأن خروجها الى الاسماع رحلة شاقة !... حتى أبوه ؟... من بقى بعد ذلك ؟...

« آنى شايف ياجدعان ان حنفى معاه حق ، طولوا بالكم عليه لما يخلص كلامه ، وكل اللى نفسه فى كلمة يقولها ! »

ماهذا ؟... لماذا لايصرخ ويأمر ويسب ويلعن كعادته ؟... لماذا يصمت أمام رجل يتحدث ويطرق كمن فقد القدرة على مواجهة الناس ؟...

« كلامك مظبوط يامعلمى ... »

هز العجوز رأسه وأطبق بشفتيه على الجوزة وراح يجذب منها الانفاس فى شراهة ، وارتفعت يمناه بكوب الشاى ورشف منه على مهل ... وعاد الرجال الى جدلهم غير عابئين بحديث المعلم محمد ... كيف يقبل من كان صاحب الكلمة أن يردد وسط الصخب :

« على مهلكم ياولاد ... ماهو ربنا عرفوه بالعقل ! »

« عقل مين يامعلمى ... دى لقمة عيشنا ! »

كيف ينظر اليه فى حيرة ، ثم يطرق عندما يبدأ حنفى الحديث وكأنه بلا حول ولا طول ؟... أين ثورته ؟... أين صفعاته وزئيره ؟... كان جميلا رائعا ... لكنه الآن مسكين مهلهل التقاطيع والكلمات ... وحنفى يعود الى الحديث من جديد :

« دلوقت المركب حاتشتغل يعنى حاتشتغل ، وعبد الموجود مادفعش فيها

الآلافات هو والانجليزى بتاعه الله ... وبكره تطلع عرض بحر وتغرق السوق بالسمك ، فاهمين يعنى أيه الكلام ده ؟... حانعملوا ايه ساعتها ، ايه اللى حانعملوه ... لازم نفكروا فى طريقة ، ونعتروالنا على حل ! »

« عندك انت حل يامعلم حنفى ؟! »

قال رجل ذلك وهو يضحك ساخرا ، فقد تذكر فجأة ماقاله الرجال ذات يوم من أن حنفى قد خاوى جنيه ، كان يومها موقنا ان حنفى سيفعل شيئا ، كان واثقا أنه سيصحو ذات صباح ليجد معجزة قد هبطت من السماء لتحل المشكلة ، لكن المشكلة لم تحل ، جاءت السفينة ووقع ما كان الرجال يرتعبون لمجرد ذكره ، وانضم حنفى الى جيش العاجزين الحيارى ... فضحك من نفسه ، ضحك فى سخرية وكأنه يبكى ، ثم سأل حنفى ذلك السؤال على الرغم منه ، وتحمل نظرات الرجال وزمجرة حنفى فى استسلام ، وعاد يقول معتذرا :

« بلا مؤاخذة ... بلا مؤاخذة ، غصب عنى وحياة النبى ! »

وكاد صبر حنفى أن ينفد ، هز رأسه كمن يطرد منها أفكارا شيطانية ، وعاد الى الصمت من جديد ، كان يعلم أن الطريق طويل ، وقد أوحشه الشاطىء المهجور ، أوحشه وجه أبيه ، فتمنى لو ترك الرجال ومضى الى صخرة رأس التين ، وتمنى أن يلقى بنفسه فى المياه ويصيح بكل مايملك من صوت : « يابا ... ياسيد يابلطى ، نعمل أيه ايابا ، نعمل أيه ؟! » ... على أنه ـ لدهشته الشديدة ـ أحس بالفتور يتسرب الى نفسه ، ورقص فى لحظة بدت له رهيبة كل هذا ، وسخر غير عابىء بكل ما آمن به ، وراح يتساءل : « ماذا فعل السيد البلطى ؟... وماذا ترك وراءه ؟... أهى تلك الاساطير التى تحكى عن كفاح رجل شق طريقه فى الحياة بذراع جبار ؟... وماذا بعد هذا الطريق ؟! ... لماذا لم يسلمهم مفتاح النجاح قبل ذهابه ؟... لماذا لم يورثه سره وسر قوته ؟... وماذا كان يفعل لو كان

حيا ؟! . . . أكان يقتل عبد الموجود ، أم يضربه ، أم يقسم البحر بينه وبين الرجال ؟! » . . . شيء قاهر يتمدد في أعماق حنفي ، احساس رهيب يكفي لتحطيم قلبه ، وذكرى السيد لازالت عزيزة ، ومجد هزيل لايزال أفراد العائلة يرفلون فيه كالمخدرين ، زقاق مهدم ، وبيوت متداعية ، وقوارب تبدو كالسمكات الوليدة أمام حوت ضخم يكاد يبتلع كل شيء !

وأفاق حنفي من غيبوبته على صوت رجل يقول :

« مالك ياحنفي ، سكت ليه ؟ . . . ماتتكلم يابن الناس ! »

لكنه لم يكن يريد الحديث ، تطلع الى الوجوه المحيطة به وكأنه يراها لاول مرة ، وكاد يعود الى اطراقه من جديد عندما قال عمه :

« ما تتكلم ياحنفي ، مالك ياواد ؟! »

فرفع رأسه الى أعلا ، وكأنه يبحث في السقف عن حل . . . فراح يجمع أشتات عقله ، وما كاد يفتح شفتيه بالحديث حتى توقفت الكلمات في حلقه ، فقد علا في ذلك الوقت صوت قوي واضح ، نفذ الى كل أذن ، وارتجف له أكثر من قلب :

« السلام عليكم يارجالـــه ! »

استدارت كل الرءوس في دهشة نحو الباب ، وأحاطت النظرات بجسد عبد الموجود حمدان الفارع ، ووجهه الذي علته ابتسامة واسعة ، وران السكون على الجميع . . . ثم قال عبد الموجود وهو يوجه حديثه للمعلم محمد :

« آني جاي نبوس على راسك يامعلمي ! »

وصمت قليلا ، ثم استطرد وهو يخطو داخل المقهى :

« ونبوس راس حنفي ومحمود كمـــان ! »

— ٣١ —

تقدم الريس عبد الموجود مخترقا صفوف الرجال في جسارة ، وقد غطى كتفيه بشال من الحرير ، واستدارت حول رأسه لاسة ثمينة لم تخف رباط الشاش الأبيض الذي يضمد جبهته . . . وتحت عينه اليمنى ظهرت آثار الضرب زرقاء صارخة ، بينما جاهدت ابتسامته في اخفاء ذلك القلق الذي كان يطل من عينيه .

أخذ الرجال يوسعون له الطريق حتى وقف أمام المعلم محمد البلطي ، وسرعان مافرد ذراعيه وانقض عليه بالقبلات ، ولم يتحرك المعلم محمد ، كانت المفاجأة قد ألجمته ، فاستسلم لكل ما يحدث دون مقاومة . . . ورفع عبد الموجود شفتيه من فوق رأسه ، ثم استدار نحو حنفي ومحمود ، وصاح بصوت مدو :

« آني غلطان ، الحق على فوق وتحت ، ورجالة الشط كلهم شاهدين ، لكم عندي حق عرب ولو ان مليش ذنب ، واللي يقوله معلمي ماشي . . . وآدي راسك ياحنفي !! »

أنى حنفى بحركة سريعة بغية الفرار ، غير أن عبد الموجود كان قد وضع فى حسابه مثل هذا الامر ، فانقض عليه فى اللحظة المناسبة ، وأحاطه بذراعيه ، وهوى فوق رأسه بالقبلات وهو يغمغم :

« آنى زى أخوك الكبير برضه ، آنى فى سن أبوك برضه ! »

وظل محمود ساكنا ، ينظر الى عبد الموجود فى غل وغيظ أذكتهما تلك الحيرة التى لم يستطع الفكاك منها ، والتى راحت تدفعه نحو استسلام كانت نفسه تهفو اليه . . . وما أن رأى عبد الموجود حتى تعلق بذلك الخيط من المقاومة ، وقرر أن يقويه بعناد . . . لذلك ، ماكاد عبد الموجود أن يستدير نحوه حتى صرخ :

« اياك تلمسنى ، آنى منصالحشى غير رجاله عندهم شرف ! »

ابتسم عبد الموجود ابتسامة واسعة ، وهو يقول بصوت عال ليسمعه كل الرجال :

« برضه حقك على وانت زى ابنى ! »

انتفض محمود وهو يدفع عبد الموجود من أمامه متشبثا بالبقية الباقية من غضبه :

« انت حاتبعد عن والا لأ ؟! »

والرجال صامتون يتابعون مايحدث أمامهم وكأنه لايمت الى الواقع بصلة ، كان حضور عبد الموجود المفاجىء أمرا لم يتوقعه أشدهم تفاؤلا . . . وبدا لهم مايحدث أمامهم غريبا أشد الغرابة . . . على أن الأغرب منه هو ذلك الشعور العميق بالارتياح لمجىء عبد الموجود ، كانوا يتناقشون ويحتدون ويتحمسون وعقولهم غائبة وراء الغد الآتى عليهم كغول لايرحم . . . ولقمة العيش التى كانوا يشعرون وكأن يدا قاسية تنتزعها من أفواههم وأفواه عيالهم . . . استسلموا لشعورهم الغامض بالارتياح ، وضيقهم ـ الذى بدا

أشد غموضا ـ لموقف محمود . . . كان تطرفه أكبر مما تطيقه قلوبهم الخافقة الى حل يهبط عليهم من السماء ، وها قد فتحت لهم طاقة أمل ، وبدا لهم أن الحل أصبح بين أيديهم . . . والا ، فلماذا جاء عبد الموجود حمدان ، وهو المنتصر ؟!

كان أكثرهم احساسا بتلك الانفعالات هو المعلم محمد البلطى . . . أطرق الى الارض ، وراح يعبث بأصابعه فى شعيرات شاربه . . . بحث عن عناده فوجده قد ذاب تماما ، استنجد بماضيه وعراقته ، فأحس بهما باهتين لا قيمة لهما أمام القوة الجديدة . . . وقع فى براثن الاحساس بالعجز ، وبان له شبح الهزيمة قريبا ، فرفع رأسه الى ولده الثائر ، وقال بصوت خفيض :

« اقعد يامحمود ، اقعد ياابنى وقول لا إله الا الله ! »

« ما هو لا إله إلا الله يابا ، انما ده تهمنى آنى وحنفى وحب يرمينى فى اللومان . . . يرضى مين ده ؟! »

وصاح عبد الموجـــود :

« على الحرام من بيتى ماحصل ، وعهد الله اللى باربعين يمين ماحصل ، مظلوم ياخلق ، مظلوم والله العظيم ! »

وصرخ محمود فى صوت راعد :

« كداب . . . كداب ! »

استدار عبد الموجود نحو الرجال موليا محمود ظهره ، وراح يخاطبهم [illegible] توسل أنكروه فى البداية ، ثم استعذبوه . . . وقرأ هو ما ارتسم [illegible] من علامات التصديق ، فاندفع يهاجم ضعفهم فى [illegible]

« آنى ماقلتش كلمة واحدة فى حق محمود ولا [illegible] انى قلت منعرفش مين اللى ضربنى [illegible]

فى الشارع ، وده يصح يارجاله ، هو انى مش منكم برضه ؟ . . . المهم ، الراجل راح مزعق ومصفر ولم الدنيا على وخدونى المستشفى ، وجانى واحد ظابط قال لى مين عمل فيك كده ياعبد الموجود ؟ ، قلت منعرفش ، قال لى فيه تار بايت بينك وبين حد ، قلت كل الرجاله حبايبى آنى ليه مين غيرهم ؟! »

وتوقف عبد الموجود وهو يلهث ، وأخذ يدير بصره فى الرجال ليرى أثر حديثه فيهم ، وسرعان ما سرى الحماس فى نفسه من جديد ، كان يلمح بوضوح اهتمامهم الشديد ، وسمع احدهم يمصمص بشفتيه فرقص قلبه طربا ، واستطرد فى صوت متوسل :

« جه المأمور بنفسه وقال لى ياعبد الموجود القنصل الانجليزى اتكلم فى التليفون وبيقول ان شريكك قاعد جنبه . . . »

وقاطعه محمود فى حدة :

« وايه اللى عرف شريكك ؟! »

« آنى يامحمود آنى . . . ده مال برضه يامحمود ، دى آلافات ياخويا . . . والراجل قعد يقول لى انه لازم يعرف اللى عمل كده والا حايبلغ مصر وتبقى حكاية لا لها أول ولا آخر ، قلت برضه منعرفش . . . سألونى فلوسك ضاع منها حاجة ؟ . . . قلت الكدب حرام ، آنى راجل شريف واسمى نضيف مضاعش منى ولا مليم ، سألونى حد هددك مرة كده والا كده ؟ . . . قلت برضه ماحصلش . . . قالوا لى والخناقه اللى حصلت بينك وبين محمود البلطى ، قلت حد الله ماحصل بينى وبينه حاجه ، عيلة البلطى خيرها على الكبير قبل الصغير فى الشط من أوله لآخره ، واللى يقول عليهم كلمة ، أول من يقطع لسانه آنى . . . فيه عيب فى الكلام ده يارجاله ؟! »

صاح رجل من آخر المكـــان :

« فاتك العيب يامعلمى ، الحمد لله جت سليمه ! »

وصرخ محمود وهو يشعر بالحبل يلتف حول عنقه :

« لا والله مظبوط ، فاتك العيب ياعبد الموجود ياحمدان ! »

وقال رجل وهو يختلس النظر الى حنفى :

« وكان فين الكلام ده ليلة امبارح ؟ . . . كان فين ! »

واستدار عبد الموجود نحو المعلم محمد ، وفرد ذراعيه فى حركة مسرحية وهو يقول :

« عاجبك كده يامعلمى ، عاجبك الكلام ده يابا محمد . . . آنى بوست راسك ، وحلفت بالحرام من بيتى ، ومستعد نحلف على ختمة ياناس . . . آنى فلوسى فلوسكم ومالى مالكم ، والمركب كمان مركبكم ، والرجاله اللى حايمشوها منكم ، واللى حايطرحوا شباكها أنتم . . . هو آنى كفرت اللى جبت رزق للغلابه اللى ملطوعين على الرصيف . . . يعنى آنى غلطان ؟! »

صمت عبد الموجود ، ثم استدار فجأة نحو أحد الرجال ، وأشار اليه صارخا :

« انت ياحسين مراتك ولدت أول امبارح . . . بذمتك جبت لها الفرخة ؟! . . . انت يوميتك كام ؟! »

فغر الرجل فمه ، وشحب وجهه شحوبا شديدا ، فانهال عليه عبد الموجود يحطم ما بقى من مقاومته :

« غايته عشر قروش ياحسين ، ويوم فيه ويوم مفيش ، مش كده يابن الناس والا آنى غلطان ؟ . . . وقدام الرجاله دول كلهم ، يوميتك من النهارده ، من دلوقت ربع جنيه ، خمسة وعشرين قرش ، ومفيش يوم بطال ، يوم ورا يوم . . . فيه غلط فى الكلام ده يارجاله ؟! »

كان الصمت الذى ران على المكان بعد ذلك أثقل مما تطيقه الصدور ، وكان عبد الموجود لايزال واقفا فى مكانه عندما نهض رجل وقدم له مقعده ، فجلس وسط الرجال منكس الرأس مفتوح الاذنين للهمسات التى كانت تعلو فى دوى كدوى نحل أخذ ينشط لحظة بعد أخرى . . . كان سعيدا كل السعادة ، قلبه يخفق بالجميل للمستر هوب فلولاه لانزلق فيما كان منزلقا فيه ولخسر المعركة ولا ريب .

* * *

جاءه مستر هوب فى الصباح بعد أن غادر المستشفى الى بيته ، وكان فى صحبته أحد الكثيرين الذين عرف عبد الموجود الطريق الى سهراتهم الصاخبة . . . وسأله هوب عما حدث فقصه عليه ، وكانت دهشته عظيمة عندما قال شريكه فى هدوء وهو يشعل غليونه ويضطجع فى مقعده :

« لقد أخطأت ياعبد الموجود ، فليس هذا هو الطريق لاكتساب الرجال . . . يجب أن تتنازل فورا عن حقك ، يجب أن يكف البوليس عن البحث عن الذين اعتدوا عليك ، والا خسرنا كل شىء !! »

فصاح عبد الموجود فى انجليزية ركيكة :

« كانوا يريدون قتلى يامستر هوب ، كانوا يريدون قتلى ! »

ابتسم هوب وهو يرفع الى شفتيه كأس الويسكى الذى قدمه عبد الموجود ، وبدأ يتحدث فى هدوء ، ويرسم الطريق الذى كان على عبد الموجود أن يسير فيه دون اعتراض . . . وظل يتحدث ساعتين دون انقطاع ، وفهم عبد الموجود نصف حديثه ، وترجم له صاحبه النصف الآخر . . . ورغم انه لم يمارس التمثيل من قبل ، الا أن أحلامه كانت من الحدة حتى أنه لم يشعر بأية صعوبة وهو يؤدى دوره أمام الرجال . . . كان خائفا فى البداية من

الفشل ، كان خائفا أن تتكشف نواياه للعيون ، وألا يستطيع كبح جماح غضبه . . . لكن حديث هوب كان محفورا فى ذهنه فيكف ينساه ؟!

« اننى ياعزيزى عبد الموجود أستطيع أن ألقى بهم جميعا فى السجن ، أستطيع ذلك بمكالمة تليفونية واحدة ، وأستطيع أن أفعل بهم مالا يتصورونه من أفاعيل . . . الا اننا لن نجد بعد ذلك رجلا واحدا يصعد الى السفينة ، لن نجد رجالا يجذبون الشباك وهى محملة بالاسماك الضخمة ، ولن نجد رجالا يلقون بهذه الشباك ، كما أننا لن نجد رجالا يحملون أسماكنا . . . وباختصار ياصديقى العزيز ، لن تعمل السفينة ، وسنعانى الكثير اذا نحن استعنا بصيادين من الخارج ، ولن نكسب مليما فأجورهم مرتفعة . . . أما هنا ، فنستطيع أن نلقى الى الفرد منهم بخمسة وعشرين قرشا فى اليوم ! »

وصاح عبد الموجود كالمذهول :

« خمسة وعشرون قرشا ، انها مبلغ سخى ضخم ! »

وعاد هوب الى الحديث بنفس الهدوء :

« أعلم ذلك جيدا ، أعلم ان عشرة عشرة قروش أو اثنى عشر قرشا فيها الكفاية ، ولكن . . . علينا أن نراعى ظروفنا ، انك ـ بسوء تصرفك وجهلك ـ أثرت الرجال ضدنا ، فليس أمامنا اذن الا أن نغريهم بالمال ، وأنت نفسك قلت لى أن رجالك انضم أغلبهم الى باقى الصيادين ورفضوا أن يتسلموا أجورهم . . . نحن فى مأزق ، وعلينا أن نتصرف بحكمة حتى نعوض ما جره علينا طيشك ، وبعد مرور الوقت ، سنعرف كيف نؤدبهم ، ونتحكم فى أجورهم ، نزيدها أو نخفضها دون أن يستطيع أحدهم أن يعترض ! »

وكان هوب على حق ! . . . وكان على حق عندما قال أيضا :

« علينا أن نفعل مثلما يفعل الساسة ، ان زعماءكم يتهاوون الواحد بعد

الآخر ، وستسمع ذات يوم أنهم قد اتفقوا على حل ، وأبرموا معاهدة لصالحنا ولصالحكم . . . علينا أن نلقى للرجال بالطعم ، حتى اذا التهموه ، وهم لابد فاعلون ، نجذب السنارة ولن يستطيعوا الخلاص منها ، ويصبح الشاطىء ملكنا ، ملكى وملكك . . . »

وصمت هوب وراح يرقب عبد الموجود خلال سحابات دخان غليونه ، ثم عاد يقول كمن تذكر شيئا :

« آه . . . أما بالنسبة لقواربك ، فيمكنك أن تلقى بها الى البحر ، أن تحرقها ، ومن الافضل لنا أن نستعمل أخشابها وقودا فى السفينة ، فانها جميعا لن تساوى شيئا عندما تبحر سفينتنا « باتريشا » للصيد ! »

كان شريكه على حق ، ان الاصوات تأتيه واضحة لاغموض فيها ولا تخف ولا تردد .

« كلام مظبوط وحياة النبى ! »

« ربع جنيه ياجدع ، قول يانبى !! »

« انت رايح ياحسين ؟! »

« أمال يعنى أرفص النعمه ياجدعان ؟! »

وانثنى عبد الموجود ، وامتدت يده الى جيبه ليخرج صندوق سجائره ، فخطر له أن يلعب لعبة ، وأن يتقن دوره ، فمال على جاره وقال بصوت عال كى يصل الى أسماع الجميع :

« معاك سيجاره يامعلم ؟! »

ولم يكن جاره معلما ، بل كان أجيرا فقيرا من هؤلاء الذين سأل لعابهم لعرضه السخى ، فبان على وجه الرجل ارتباك شديد مغموس فى سعادة لم تخف على عبد الموجود ، وسرعان ما امتدت اليه عشرات الايدى بعشرات

السجائر ، ولم يستطع أن يكتم فرحته ، فتهلل وجهه بابتسامة واسعة ، وخفق قلبه وهو يميل على يد قدمت له عود ثقاب فى حماس واحترام ، وقال فى صوت خافت :

« أصلى بطلت الجوزه من يوم الدكتور ماقال لى صدرك تعبان ياعبد الموجود ! »

وعلت أصوات متحمسة :

« سلامتك يامعلم . . . ألف سلامه ! »

— ٣٢ —

قال حنفى ساخرا وهو يرمق عبد الموجود

« بقى يعنى انت جاى تاخد الرجاله يشتغلوا على المركب ؟! »

فوجىء عبد الموجود بأوراقه تنكشف فجاة امام الجميع فتلعثم لبرهة ، ثم واجه حنفى قائلا فى دهـاء :

« يعنى نجيب أغراب ياحنفى ، مايهونش العيش والملح ! »

وقال حنفى باصرار غريب ، وصوته يجلل فى المكان :

« تفتكر لعبتك دى تخيل على حد ياعبد الموجود ؟ . . . مين علمك شغل المكر ده ؟ . . . لازم الجدع الانجليزى اياه . . . والا آنى غلطان ؟! »

ولم يجد عبد الموجود سوى الالتجاء للمعلم محمد الذى كان مطرقا :

« يعنى ده اسمه كلام يابا محمد ؟ . . . ده اسمه كلام ؟ »

فهب حنفى مقاطعا اياه فى حـدة :

« شوف ياعبد الموجود ، بقى ربنا عرفوه بالعقل ، كلام طيب ؟! »

« ياحنفـــى . . . . . . »

« اسمعنى للآخر ، آنى مش عيل ، آنى شنبى نص وشى ، والرجاله دول كلهم لازم يفهموا انت عاوز ايه . . . آنى حانقول لك كل حاجه ! »

صاح رجل فى ضجـــر :

« جرى ايه ياحنفى . . . الطيب أحسن ! »

فعاجله حنفى بالقـــول :

« معلش ياحسين ، آنى مقلتش تعملوا رضى ، أصبر على حيتين . . . اسمعـوا يارجاله ، عبد الموجود قال للظابط امبارح ان اللى ضربنى حنفى ومحمود البلطى ، وأكتر من كده ، الظابط قال لى آنى ومحمود ان عبد الموجود قال انه شافنا وعرفنا . . . وآنى عارف أنه قال كده تمام ! »

صرخ عبد الموجود فى حدة كمن فقد السيطرة على نفسه :

« آنى حلفت بالحرام من بيتى ياحنفى ، ده مش كلام ده ! »

وصاح فيه حنفى وهو يصوب نحوه نظرات مغيظة :

« اسمع ياعبد الموجود لما نخلص كلامى ، آنى ماطالبتكش بحق عرب ولا حق انجليز . . . آنى بس بدى نقول انى فاهم ، ولولا ستر ربنا كنا رحنا فيهـا آنى وابن عمى ، الحكـايه مكشـوفه زى عين الشمس ، انت عاوز رجـالـه . . . والـرجاله ان ما اشتغلوش النهارده بكره حايشتغلوا ، الجوع كافر ، ولقمة العيش تغصب ابن الاصول ينذل لابن الحرام ! »

هب عبد الموجود صائحـــا :

« قصدك ايه ياحنفى ؟! »

« مقصديش ، قصدى نقول بعلو حسى للرجاله . . . اللى عاوز يشتغل مع عبد الموجود محدش حايشه ، ده أكل عيش ! »

صرخ محمود وهو يجذب حنفى من كتفه ، وكأنه يلفظ آخر أنفاسه :

« بلا كلام فارغ ياحنفى . . . وآدى يمين برأس السيد البلطى ، ان جد من الرجاله . . . . . . »

وقاطعه المعلم محمد فى حدة وهو ينهض من مكانه :

« بس ياواد ، انتو حاتتخانقوا مع بعضيكم ، أقعد ياواد يامحمود لما أخوك يخلص كلامه . . . أقعد بأقول لك ! »

أحس الرجال كأن عقولهم تتمزق ، وكان أكثرهم احساسا بذلك هو المعلم محمد البلطى ، كان حائرا تعبا مرهقا ، أحس فجأة وكأن سنوات عمره قد ثقلت حتى ناءت بها كتفاه ، وكان مختنقا بالغيظ والعجز . . . عبثا حاول أن يجد مخرجا ، أن يجد سبيلا الى الطمأنينة . . . عز عليه أن يعيش آخر أيامه وهو يرى كل ما بناه السيد البلطى ينهار ويتداعى ويصبح أثرا بعد عين ، يصبح أنقاضا بجوار بناء شامخ جاء من بعيد من أقصى الارض . . . كانت حيرته واضحة فى صوته ، وعذابه يلون نبراته . . . على أنه وجد بعض العزاء فى حديث حنفى ، كان هذا يبدو قويا ، ثائرا ، كان يتحدث فى ثقة من عثر على الحل ، كمن لم يعد يخيفه شىء ، أو يغضبه أمر . . . وسواء أكان الحل على ما يشتهى المعلم محمد أو لا يشتهى ، فقد كان حلا ـ على أية حال ـ أخرجه مما كان واقعا فيه من حيرة . . . استعذب فى لحظة أن يلقى الى حنفى بكل الحمل وليكن مايكون ، فعاد يقول لولده فى نبرات غريبة شدت اليه كل العيون ، وارتجفت لها القلوب ، حتى قلب عبد الموجود نفسه :

« أقعد يامحمود ، أقعد يابنى . . . سيب أخوك يتصرف ! »

ولم يكن يقصد أن يقول : « يتصرف » . . . بل الكلمة خرجت من

أعماقه وفرضت عليه وجودها . . . فتركها معلقة أمامه فى الهواء وعاد الى مقعده .

وعندما استدار حنفى نحو عمه ، وقعت عيناه على وجهه المجعد ، أيقن كل شىء ، فاندفعت الدموع الى عينيه فى تأثر لم يستطع اخفاءه ، وحاول السيطرة على عواطفه ، فأخرج سيجارة بيد مرتعشة ، وأشعلها بسرعة . . . لكنه تنبه الى انه فى حضرة عمه ، فارتبك وخجل وألقى بالسيجارة الى الارض . . . وصاح المعلم محمد :

« اوعى تطفيها . . . خد سيجارتك وكملها ياحنفى ! »

تردد حنفى . . . وعادت عيناه تلتقيان بعينى عمه ، فأحس بشىء غريب يغزو قلبه . . . هم ثقيل كان عليه أن يحمله منذ تلك اللحظة . . . وعندما انحنى والتقط السيجارة ، أومأ له عمه أن يبدأ حديثه من جديد . . . وكأن فى هذه الايماءة أمرا له بأن يتقدم الصفوف !

« أكل العيش مش عاوز كبر نفس ، فيه رجاله على الشط بيدوروا على رغيف لولادهم ، يوم فيه ويوم مفيش . . . ليه نعطلهم ورزقهم قدامهم ؟ . . . يبقى صغر عقل وكلام فاضى . . . اتوكل على الله ياعبد الموجود ، الرجاله قدامك محدش حايشك ! »

صاح رجل من وسط الرجال ، وكان صوته مختنقا :

« واحنا ياحنفى ، وانت ، وابوك محمد ، وحمودة ، والريس صابر ، والمعلم جابر . . . وكل من له قارب يعمل فى قاربه إيه . . . يغرقه ؟ . . . يحرقه ؟ . . . »

« وحد الله يامعلم خميس وحد الله ، خالى حمودة حايتوكل على الله بعد يومين . . . حايروح مصر ! »

صاح المعلم محمد فى دهشة واستنكار :

« بتقول ايه ياواد ؟! »

والتفت حنفى نحو عمه . . . وكانت نظرة واحدة كافية ليطرق الرجل بعدها فى استسلام . . . لم تعد لديه قوة على الجدل ! . . . واستطرد حنفى يقول فى حنان :

« خالى حمودة الدكاتره قالوا له مالكش عيش جنب الميه ، هو رايح مصر خلاص ، وحايفتح دكانة سمك ، والرزق اللى نصيده ، هو يبيعه . . . ايش قولكم فى كده ؟! »

صاح أحد الرجال فى جذل :

« ينصـر دينك ! »

وقال آخر فى ذهـول :

« ايه الكلام ده ياحنفى . . . قصدك ايه ؟ »

« قصـدى نقـول كلمـة ونص ، عبـد الموجود فاهم كويس ان المركب حاتغرق السوق من أول البر لآخره ، وعارف كمان وكلنا نعرفوا كده ، اننا حانضيع قدامـه ومش حانقـدروا على حاجـه . . . خالى حموده رايح مصر غصب عنـه ، قلنـا فى عقل بالنا ، كل من له قارب يصطاد بيه اللى يقدر عليه ، ونلمـوا الـرزق كله ونبعتـه على مصر فى السكـة الحديد ، كل يوم بيومه . . . خالى يبيع هناك ، وكل واحد ورزقه ، وهو كمان يسترزق . . . وبالشكل ده نقدروا نعيشوا من غير ماحد يتحكم فينا . . . »

وقع عبد الموجود فى الحيرة . . . وصمت الرجال دهشين وعاد عبد الموجود يرفع عينيه ليستشف ما وراء الوجوه وأشعل سيجارة وراح يدخن فى شراهة ، ماذا يفعل ، كيف يحطم ذلك الرأس الذى نطح الصخر دون أن يتفتت . . .

ولم يكن امامه سوى حل واحد . . . فنهض فجأة ، واستأذن فى الانصراف . . . وكان متعجلا !

وكأنما تخلص حنفى من حمل ثقيل ، فعاد الى الحديث من جديد :

« صلوا بنا على النبى يارجاله . . . الكلام ده مش لازم يوصل بره . . . احنا كتير ، والرزق بتاعنا بييجى يوم بيوم ، لكن المركب بتغيب لها سبع أيام فى عرض البحر ، علشان كده عبد الموجود مش حايسكت . . . فلازم لازم نكون مفتحين . . . وفيه كلمه كمان ، كل اللى حايخش معانا لازم يفهم انه حايحوش قرشين من رزقه ، ومفيش حاجه بتيجى بالساهل ، منه ، اتنين ، تلاته . . . ومين عارف ، يمكن نقدروا على شرا مركب زى دى وأحسن ، وزى ماعمل عبد الموجود نعملوا احنا ، بس مايدخلش معانا غريب . . . وكل شىء وله آخر ، والقوى له اللى أقوى منه ، وربنا ماينساش عبيده أبدا ! »

كان العجب الذى سيطر على الرجال مرتسما على وجوههم فبدوا جميعا كالبلهاء . . . حتى حنفى نفسه ، عجب أشد العجب لما قال ، كان كمن اختزن كل هذا الكلام ، كمن عثر على الحل منذ زمان وآمن به ، وجد نفسه ينطق بها لم يفكر فيه أبدا ، لكنها كانت أمانى . . . و . . . ووجد نفسه يعود الى الحديث :

« واللى بيرمى طرحه يرمى اتنين ، واللى بيرمى اتنين يرمى أربعه ، وكل واحد منا يشتغل لنفسه ولعياله ، والرزق نوزنوه قبل ما نبعته لخالى فى مصر ، والمال يتقسم بالعدل وحسب الوزن ! »

وقال رجـــل :

« وحمـــوده ؟! »

« خالى حايكون له نصيب نتفق عليه كمانا ، ولازم تفهموا انهم مش

حايحاربونا هنا بس ، لا . . . وفى مصر كمان ، وفى السكه الحديد وكلها انجليز . . . لكن الايام أقوى منهم ، والجايات أكتر من الرايحات ، كده والا لا ؟! »

وقال المعلم محمد بلا وعى :

« كلام مظبوط تمام ، كلام زين يابن أخويا ، ايش قولكم ؟ »

وارتفع أكثر من صوت :

« كلام زين . . . مفيش كده ! »

وقال رجل فى حماس :

« نقروا الفاتحه ياجماعه ! »

فقال حنفى فى حـــدة :

« لأ . . . نكتبوا ورقة ! »

« ورقة ؟! »

كانت الكلمة وكأنها غريب يقتحم عليهم حياتهم ، فاستنكروها ، وقال المعلم محمد :

« والفاتحة مالها ياواد . . . احنا حانكفروا على آخر الزمن ؟ »

« ده مش كفر يابا . . . الزمن غدار ومحدش ضامن بكره . . . اللى عاوز يقف معانا يكتب الورقه ، وأكتر من كده كمان ، نروحوا بيها لمحامى يعملها لنا حسب الاصوال ! »

صاح أحدهم فى استهانـــة :

« هى حصلت ، محامى بين الرجاله ياجدعان ، هو احنا غرب ياحنــفى ؟! »

وقال محمود كالمسحور وعيناه معلقتان بوجه ابن عمه :

« استنى يامعلم شويه . . . قول ياحنفى قول ! »

كان محمود مذهولا . . . يشعر بحديث حنفى وهو يتساقط من بين شفتيه كأن الله هو الـذى يوحى له به . . . غمرتـه الراحة فجأة ، راحة عميقة عميقة . . . فأخذ يستمع لابن عمه وكأنه يغنى موالا لم يسمع أجمل منه . . .

« أيوه حصلت . . . محامى وورقة تنكتب ، ده أكل عيش مش لعب ، والكلام اللى بنقوله ده كلام صعب ، واحنا ما اتعودناش فى الشط على كده ، انما كل زمن وله كلامه . . . ايام ابويا السيد مكانش يحصل حاجه من دى انما دلوقت حصل . . . حصل ان عبد الموجود ، وآهو كان واحد منا وعلينا شارك رجل غريب من آخر الدنيا ، وحب يقطع عيشنا ويجوع ولادنا ! »

وقال الرجل متمسكا برأيه :

« برضه عيب نكتبوا ورقه ياجدعان . . . عيب ! »

وعاد حنفى يقول فى اصـــرار :

« ماعيب الا العيب . . . ماتفرض ياأخى انى حانسرقك أو يسرقك خالى حموده ، تاخد حقك منه ازاى ؟ . . . هيه ، تاخده ازاى ؟! »

والتفت حنفى نحو خاله ، كان حمودة شاحب الوجه مطرقا وكأنه سيفارق الحياة بعد يومين ، قد تشابكت أصابعه فى عصبية ، وما ان التقت عينا حنفى بعينيه حتى خفق قلبه بالحب . . . على أن حنفى سرعان ما حول عينيه الى وجه عمه . . . كان العجوز صامتا هادىء الوجه . . . وكان محمود ذاهلا ، والرجال قد غرقوا فى الحديث . . . وشيئا فشيئا سرى الارتياح الى نفوسهم ، وعرفت البسمات طريقها الى وجوههم . . . المستقبل فى صورة جديدة ، فأخـذوا ينـظرون الى السفينـة الـراسية بلا ضيق كأنهم يعلمون أنهم سينتصرون . . . ومضت لحظات ، وأصبحت اللحظات دقائق ، والدقائق ساعة . . . وأخذ النهار يمضى بهم دون أن يشعروا ، وقرص الشمس ينزلق

فى خفة مسترقا خطاه نحو الغرب ، وكأنه يجذب من الشرق غلالة سوداء يغطى بها الدنيا الى حين . . . وضحك رجل ، ورد عليه جاره بضحكة ، وسرت العدوى الى الرجال فراحوا يصيحون فى مرح ، ويغرقون فى ضحك عابث ، وقرص الشمس الدامى يلامس سطح المياه من بعيد ، ويلون السماء والماء بلون أحمر قان . . . وتسرب الانبساط الى النفوس ، واختفى التوتر وزال . . . حتى محمود والمعلم محمد ابتسما ، وضحكا وتحادثا . . . وأخذ حمودة يربت على صدره فى سعادة وكأنه يمنيه بالشفاء ، ويتلقى التهانى مبتسما ، ويتناقش مع الرجال ويعرض رأيه . . .

وجه واحد وسط كل هذه الوجوه ظل جامدا . . . تبدو فى عينيه نظرة تنم عن عزم غريب ، كان وجه حنفى ينطق بما يعتمل فى ذهنه من أفكار . . . احساس ثقيل بالمسئولية يجثم فوق صدره ويغذى دماءه بحرارة دافئة . . . على أن الذكرى وجدت لنفسها متنفسا عبر أكوام الافكار والمشاعر التى كانت تسيطر عليه . . . فاستدار برأسه ناحية القصر ، ورآه جاثما فوق حافة البحر ، شامخا فوق الصخرة العاتية . . . فجذبه الشوق من مكانه جذبا ، فنهض على موعد مع الرجال . . . وما أن غادر الرصيف ، واستقبل الطريق بوجهه ، حتى كان قرص الشمس قد اختفى ، وسحب وراءه رداء الليل الاسود وغطى بها الدنيا لتنام .

— ٣٣ —

وصل حنفى الى الشاطىء المهجور . . . وترامى أمامه جسر الرمال الضيق ملتقيا بالمياه فى صمت كئيب . . . وقف حائرا لايدرى ماذا يفعل ، انتابه احساس عميق بالضيق والسخرية معا ، فأشاح بوجهه بعيداً عن المياه فى خجل ، غير أن الاحساس كان قويا متملكا من نفسه ، وتصاعد الى ذهنه سؤال بدا له سخيفا محيرا : « هل رضى أبوه عما قاله للرجال . ! » . . . لكنه سرعان ما تساءل فى غضب ونفاد صبر : « وما الذى كان يفعله أبوه لو كان حيا ؟ . . . »

ظل منتصبا عند الشاطىء بجسده الفارع ورأسه الكبير ، وقد عقد ذراعيه فوق صدره ، واكتسى وجهه بطبقة صخرية . . . ثم برقت فى ذهنه حقيقة غريبة ارتاحت لها نفسه واطمأنت ، حقيقة جاءته على غير انتظار وكأنها وحى هبط عليه من السماء . . . « ان الزمن غير الزمن ، والرجال غير الرجال ! »

فجأة . . . أصبح الشاطىء الذى اكتسى فى ذهنه بحنه بهجة من

الأساطير والحكايات عاريا قفرا ، رآه مهجورا يحيط به الصمت والجمود ويعشش الفضاء من حوله . . . والسيد البلطى غير موجود ؟!
وهوى قلبه الى قدميــه . . .

ذكرى أبيه هى الشىء القوى فى حياته . . . قوته استمدها من تلك الأساطير التى يحكونها عنه . . . ورغم انه لايذكر وجه ابيه ، الا انه كان يحس احساسا عميقا ان السيد البلطى كان يعيش معه طوال عمره ، فى ليله ونهاره ، فى حزنه وفرحه ، فى ساعات يأسه وساعات أمله . . . كان كالضمير لايفارقه . . . وكان حيا لم يمت ، ما أن يشعر بالضيق أو يفتقد الأمان ، حتى يذهب الى الشاطىء . . . هناك يتنسم رائحته ، ويرى فى وضوح جلى وجهه الذى شكله خياله وصاغه فى أبهى صورة عرفها لانسان . . . شىء كالوحى كان يهبط عليه كلما حاض فى المياه وغاص فى لجنها ، ورجفة قدسية كانت تنتابه كلما نادى فى الفضاء : « يابا . . . ياسيد يابلطى ! » . . . ويحس رجع الصدى وكأنه رد على ندائه . . . بل كثيرا ماتوهم ـ وان كان ينكر ذلك ـ فى لحظات وجد كانت تنتابه ، ان أباه يصعد اليه من جوف المياه صائحا فيه ملبيا نداءه . . . كان السيد البلطى حيا فى خياله وقلبه ، حقيقة حافظ عليها وسعد بها طوال عمره . . . لكن الايام جاءته بما لم يفكر فيه السيد البلطى . . . وكان عليه وحده أن يجابه أحداثها !

وأحس حنفى فى تلك اللحظة ـ فقط ـ ان اباه قد مات !
فارتجف ! . . .

وغص حلقه . . . ولم يبق أمامه بعد ذلك سوى صخور ناتئة ومياه منبسطة ، وصخرة رأس التين الهائلة ، تتلقى فى صمت نطح الامواج ، وترقب فى جلال انحسار البحر عنها !

فاض قلبه بالحنين ، وقال ـ لأول مرة فى حياته ـ وهو يستدير مبتعدا عن الشاطىء فى خطوات ثقيلة :
« الله يرحمك يابـــا ! »

— ٣٤ —

صاح طفل بصوت رفيع ثاقب :

« عمى حنفى جه . . . عمى حنفى جه ! »

ورفعت عائشة عينيها لترى شبح أخيها هائلا عملاقا يكاد أن يبتلع مدخل الزقاق بطوله وعرضه . . . فانتفضت فى سعادة ، وزفرت من أعماقها ، ثم اندفعت تعدو بلا وعى وهى تصيح فى جذل كطفل غاب عنه أبوه ، ثم عاد اليه بعد سفر طويل .

وقد أدهش حنفى ما رآه من علامات السعادة المرتسمة على وجه شقيقته ، كان شيئا غريبا ذلك البريق الذى راح يطل من عينيها ، بريق أخاذ مضىء ، وراحة عميقة كانت وكأنها رسمت تقاطيع وجهها من جديد .

ورغم الضوء الخافت الذى تسرب الى الزقاق من نوافذ بيوته المفتوحة ، الا أنه استطاع أن يلمح فى الوجه الذى طالما طالعه كئيبا حزينا لمسة سعادة لا تخطئها العين ، كانت عائشة قد اندفعت ـ على غير ما تعودت أو تعود أهل

الزقاق ـ لتلقى بنفسها على صدره ، وتحيط عنقه بذراعيها وهى تجهش بالبكاء . . . بينما راح صوت أم حنفى يسرى فى جو المكان متهدجا ، وهى تتحسس طريقها منادية :

« ياحنفى ، ياضنايا . . . اتأخرت على امك قوى ياحنفى . ليه يا ابنى اتأخرت عليه . . . حنفى ! »

واختنق صوت العجوز بالبكاء وهى تتحسس بكفين مرتجفين وجه ولدها الذى انحنى عليها ليغمر وجهها ويديها بالقبلات . . . وتجمعت النسوة ورحن يزغردن ويسلمن ويهنئن . . . فرفع حنفى وجهه لتلتقى عيناه بعينى زوبه وقد كستهما دموع مزغردة ، وامتدت يده دون تردد لتلتقط يدها وتضغط عليها فى قوة وثقة ، وأطل من عينيه حديث له معنى ، حديث صامت على أنه ثرثار . . . وأرخت زوبه عينيها فى خجل كمن فهم كل شىء . . . وخفق قلبها خفقانا شديدا ، وشحب وجهها عندما اقترب منها حنفى حتى كاد جسده أن يلامس جسدها ، وهمس بصوت لم تسمعه سوى عائشة :

« أبويا صادق رجع يازوبه ؟! »

قالت وهى تولى عنه وقد تضرج وجهها بعد شحوب :

« لألسه . . . زمانه جاى ! »

وغمرت ابتسامة سعيدة وجه عائشة وهى تجذب زوبه من يدها . وتبتعد بها بعيدا عن الضجة . . . ثم دلفت معها الى فناء البيت ، وهمست فى جزل وسعادة وهى تقفز فى مكانها مصفقة :

« ألف مبروك يازوبه . . . ألف مبروك ياأختى ! »

« يوه ، اخص عليكى ياعيشه ، على ايه ؟! »

ضحكت عائشة وهى تقول :

« ياهـوى على الكهن ياأخـواتى ، بت . . . حطى عينـك فى عينى كده . . . أمال كان بيسأل على أبويا صادق ليه ؟! »

ابتسمت زوبه وهى تندفع نحو عائشة ، وتلقى بنفسها فوق صدرها ، ثم قالت بصوت حالـم :

« ان شاء الله يابت خالتى . . . ان شاء الله يارب ! »

وقالت عائشة وهى تدفعها الى بعيد ، وتحملق فى وجهها :

« عارفه يازوبه ، وحياة النبى آنى قلبى حاسس ان الليلة حاتكون أفراح من أولها لآخرها ! »

وغمزت زوبه بعينيها وهى تقول مداعبـة :

« أبو السيد ؟! . . . السيد افندى ؟! »

أحست كل منهما فجأة وكأنها تعرت بغير خجل أمام صاحبتها . . .

ووصلتهما من الخارج أصوات النسوه وهى تقترب وتدنو ، ودلف حنفى الى الفناء باسما ، وقال وهو يتجه نحو حجرته فى خطوات سريعـة :

« عاوز نشرب كباية شاى ياعيشة ! »

« حاضر ياخويـا »

جذبت زوبه عائشة نحو حجرتها وهى تقول فى همس :

« والنبى ماحد يعمل له الشاى غيرى من الليلة ! »

وسرعـان ما انحنت على المـوقـد ، وأشعلت الثقـاب ، وراحت تعد الشاى . . . وخرجت عائشة الى الفناء لتأتى بالمياه ، عندما صك سمعها صوت قفـز له قلبهـا وركض وأخـذ يضرب بخفقـاتـه جدران صدرهـا فى عنف . . . كان السيد افندى الباشتمرجى يحدث أمها التى اتخذت مكانها عند عتبة الباب من جديد :

« مساء الخير ياخالتى . . . »

« يمسيك بالنور والعافية ياسى السيد افندى ! »

« هو حنفى لســه مارجعش ؟ »

« رجع ياخويا من غير شر . . . اتفضل آهو جوه ! »

وسرعان ما ارتفع صوت حنفى من الداخل :

« اتفضل ياسيد افندى . . . أهلا وسهلا ! »

تنحنح السيد افندى وهو يخطو الى الداخل خافض البصر . . . ورغم انه مر بعـائشة وهى تقف وسط الفناء ، الا انه لم يحاول أن يسترق السمع أو يختلس النظر . . . كان ثابتا يعرف طريقه هذه المرة . . . وما أن دلف الى الحجـرة ، واختفى وراء بابها . . . حتى دنت عائشة من الباب فى خفة ، وراحت تتسمع ودقات قلبها تصم أذنيها . . . وجاءها صوته بعد لحظات خيل اليها انها سنوات طوال :

« بقى صلى بنا على الحبيب النبى ياحنفى ! »

فوجىء حنفى بلهجة الرجل ، فقال فى دهشة محاولا أن يستشف ماوراء كلماته :

« ألف صلا على الحبيب ياسيد افندى . . . خير مالك ؟! »

« بقى شـوف ياسيدى . . . »

تردد السيد أفندى للحظات . . . كان جالسا أمام حنفى منكس الرأس ، يستلقى من ورائـه نور المصباح الموضوع فوق حافة الدولاب ليغمر ظهره ويكسو وجهه بطبقة من الظلال . . . ونشط ذهن حنفى وهو يرقب الرجل الصامت الجالس أمامه . . . وأحس بالضيق يغزو مشاعره . . . كان قد قرر أمرا ، وكان فى حاجة لان يخلو لنفسه ولو لدقائق معدودة . . . فى لحظة ،

اعتزم ان يطلب زويه هذا المساء ! . . . ولو لم يتمالك نفسه وهو فى الزقاق وسط النسوة ، لأخبرها بما اعتزم عليه على مسمع من الجميع . . . وأحس بالملل وهو يرقب وجه السيد افندى المكتسى بالظلال ، وتنحنح وهو يرسم على وجهه ابتسامة . . . ثم قال :

« خير ياسيد افندى . . . فيه حاجة شاغلاك ؟! »

وقال السيد افندى بصوت مرتجف :

« قوى ياحنفى . . . ربك والحق مش عارف، نقولها ازاى ! »

« اتكلم ياسيد افندى ، داحنا اخوات ! »

« ماهو ده اللى مطمعنى ! »

« خلاص . . . ومستنى ايه ماتتكلم ! »

« اسمع ، اسمع ياحنفى . . . آنى طالب القرب ! »

ارتجف حنفى من قمة رأسه الى أخمص قدميه حتى أنَّ السرير وارتجفت مفاصله لارتجافه . . . وتصبب العرق البارد من جسده فغمر صدره وظهره وتساقط من تحت ابطيه . . . فأطرق لايدرى ماذا يقول . . . كان حائرا غير مصدق . . . لو انهم قالوا له ان سفينة عبد الموجود حمدان قد غرقت لما اهتزت فى جسده شعرة ، ولو انهم قالوا له انه كل مامضى من مشاكل كان حلما لصدق . . . أما أن يطلب رجل يد عائشة ، فهذا ماقد طمست الايام والقلق والانتظار معالم الامل فيه . . . فاختفى !

« يعنى ساكت ياحنفى ؟! »

رفع حنفى عينيه الى السيد افندى ، وسأل فى صوت هادىء :

« عاوز عيشه ياسيد افندى ؟! »

« أيوه ياحنفى . . . أيوه عاوزها على سنة الله ورسوله . . . والا آنى مش قد المقام يعنى ؟! »

كان صمت حنفى قد أفقد السيد افندى اتزانه وبعث الخوف فى نفسه ، فنطق بالجملة بلا وعى . . . على انه عندما نظر الى عينى حنفى المشرقتين ، عاد يحس الأمان من جديد . . . فقال :

« ايش قولك ياحنفـــى ؟! »

« كلمت أبويا محمـــد ؟ . . . »

« قلت ناخد رأيك الأول . . . »

زفر حنفى ، وقدم للسيد افندى سيجارة ، وأشعل لنفسه واحدة ، ثم قال وهو ينفث دخانها فى راحة كمن ازيح من فوق صدره حمل أثقل عمره بالأسى :

« عيشة أختك ياسيد افندى زى ماهى أختى . . . ومهما اتقدم لها مش حانطول واحد زيك ، انت منا وعلينا . . . وخيرك على الكبير فينا قبل الصغير ! »

كاد السيد افندى أن يرقص طربا لحديث حنفى ، فقال فى مرح :

« عيب ياحنفى داحنا أهل . . . يعنى انت موافق ؟ »

« من ناحيتى ، ألف نهار أبيض لما نناسب واحد زيك . . . انما برضه الأصول اننا نشور أبويا محمد . . . والا انت ايه رأيك ؟! »

« تمام تمام . . . يعنى انت موافق ؟! »

« الله . . . جرى ايه ياراجل ؟ . . . ماتصلى على الحبيب أمال ! »

« ألف صلا على سيدنا محمـد . . . »

قالهـا السيد افندى . . . ودلفت عائشة من الباب تحمل أكواب الشاى بيدين مرتجفتين ووجه شاحب سعيد ، فخفض الرجل بصره ، ورفع اليها حنفى عينين حانيتين . . . قاوم رغبة عارمة فى مداعبتها ، وفى اخبارها بالامر

كله . . . بل قاوم رغبة فى أن يقبلها ويضمها الى صدره وأن يقول لها « ألف مبروك ياعيشة ، ربنا يسعدك ياأختى ! » . . . وما كادالسيد أفندى يمد يده الى كوب الشاى حتى انسحبت عائشة وهى تفر الى الخارج وهى تقول فى اضطراب من لم يتحمل صمت الحجرة وما فيها من أسرار :

« سى محمود ابن عمى جه . . . »

فصاح حنفى فيها وهى تغادر الحجرة ، وقد أيقن انها سمعت وعلمت :

« وكباية الشاى بتاعتى يابت ؟ ! »

ثم انطلق ضاحكا ملء صدره . . . وقال وهو يربت على كتف السيد افندى :

« الف ليلة بيضة ياسيد افندى . . . داحنا انشرفنا وحياه النبى ! »

— ٣٥ —

نهض حنفى والسيد افندى بعد أن شربا الشاى ليلحقا بالرجال الذين تجمعوا فى بيت المعلم محمد . . . كان محمود جالسا بجوار أبيه ، وعن يساره جلس المعلم صادق وحمودة . . . بينما تناثر الباقون فى أرجاء الحجرة الرحبه .

وما أن انتهى المعلم محمد من مصافحه السيد افندى ، حتى صاح فى حنفى ضاحكا :

« ازاى ياواد ياحنفى تخبى على المدة دى كلها ان خالك مسافر ؟ ! »

اندفع السيد افندى يقول فى مرح :

« هو حمودة نوى على السفر ؟ ! »

وقال حمودة ضاحكا :

« ان شاء الله ياسيدى افندى . . . علشان منزعلكش بس ! »

نهض السيد افندى فى حماس وصافح حمودة فى حرارة وقد اكتسى وجهه بالسعادة وهو يردد :

« ألف نهار أبيض ، ألف ليلة بيضة . . حاتو حشنا صحيح انها يبقى لنا بيت جنب أم هاشم . . . ياسلام ، كل شيء وله أوان يارجاله ! »

ابتسم حنفى ابتسامة مشرقة ، وراح يتعجل الحديث ، ويقاوم رغبته فى أن يعلن للجميع رغبة السيد افندى ، ويطلب زوبه ، ويسمع بأذنيه زغاريد فرحه . . . فقال بسرعة والكلمات تتراقص على شفتيه :

« صلى بنا على النبى ياعمى . . . فيه كلمتين لازم ينقالوا قبل أيها حاجة ثانية . . . آنى كل اللى حيلتى قرشين حانديهم لخالى . . . واللى عنده قرشين زيادة يبقى خير وبركة . . . الشحن من هنالمصر يوماتى آنى سألت قالوا لى كده . . . والا ايه ياخالى حمودة ؟ »

وقال حمودة :

« هو يوم الجمعة بس اللى مافيهوش شحن . . . والمعلم جابر السماك قال لى إن الرزق فى مصر واسع ، البلد كبيرة ، والسعر فيها عال ! »

فقال المعلم محمد وكأنه ينفض عن كاهله كل شيء :

«شوفوا ياولاد ، انتم دبروا أموركم ، وربنا معاكم ! »

فقال حنفى :

« ماهى الشورة برضه شورتك ، والكلمة كلمتك يابا ! »

« الشورة شورتك انت ياحنفى . . . وآهو محمود أخوك ، وآنى ماعدتش حانطلع بعد النهارده بالفلوكة . . . ياالله ياحسن الختام ، والا ايه يامحمود ؟ ! »

قال محمود بنبرات حزينة يشوبها الحماس والاخلاص :

«كلامك ماشى يابا ! »

وقال حنفى :

« وآنى حانطلع بقارب خالى حمودة »

فقال المعلم محمد :

« كلام زين . . . ايش قولك ياحمودة »

فرد حمودة بحماس :

«القول ماقاله حنفى يابا . . . وآنى بعت له القارب والشبكتين بالقرشين اللى عنده ، سوى كتير سوى شوية ! »

اكتسى وجه حنفى بفرح غامر ، وتهللت ملامحه وهو يقول :

« وناوى تتوكل امتى ياخالى ؟ »

فقال حمودة :

« آنى اتفقت مع أبويا محمد خلاص . . . من بكره حانروح مصر وفى جيبى قرشين ، نجس النبض ونشوف الجو ماشى ازاى ، وببركة السيدة والحسين ، وباذن الله ، نأجروا دكانه على قد الحال . . . ونشوف لنا أوضه ننام فيها ويا العيال ،وبعدين نرحلوا ونبتدى كلنا على بركة الله ! »

وقال الريس صادق :

« وحاتعملوا إيه مع الرجاله ياحنفى ؟! »

« أول ماخالى حموده يرجع من مصر طوالى ، نشوفوا لنا واحد محامى يعمل لنا الورقة دى . . . ونتوكل على الله بعدها . . . وبكره حانروح السكة الحديد نسأل عن أسعار الشحن والذى منه . . . وعلى مايرجع خالى كل حاجه حاتكون جاهزة بأذن الله تعالى ! »

اضطجع المعلم محمد فى مكانه ، وربع قدمية وهو يشعل سيجارة ويرمق محمود بنظرة حانية . . . ثم قال :

« فضونا بقى من السيرة دى ، الصباح رباح . . . وفيه كلمتن بدى نقولهم مادمتم كلكم موجودين ! »

ابتسم حنفى وهو يضم كفيه ويقول متعجلا الحديث ناقلا بصره ما بين عمه والمعلم صادق . . . كان قلبه يخفق ، وكلماته تتلاحق :

« وآنى عندى كلمتين مهمين قوى يابا محمد ! »

« خير ياحنفى ! »

« أولنا والصلاة على النبى . . . السيد افندى طالب عيشه . . . ايش قولك يابويا ؟ ! »

اعتدل المعلم محمد فى جلسته ، وتهلل وجهه بفرح غامر وهو يقول :

« ألف ليلة بيضه ياولاد . . . راجل ولا كل الرجاله ! . . . مبروك ياسيد افندى ، على خيرة الله ! »

قال السيد افندى فى سعادة وقد تضرج وجهه بالحمرة :

« مادام كده نقروا الفاتحة دلوقت ! »

فقال المعلم محمد :

« وعلشان الفاتحة تبقى فتحتين . . . آنى اتفقت مع محمود على حاجة ! »

ثم التفت الى المعلم صادق وربت على كتفة وهو يستطرد :

« ايش قولك ياصادق فى زوبه لمحمود ؟ ! »

ابتسم المعلم صادق وهو يردد النظر بين الرجال . . . ثم فرد كفه ليلتقى بكف المعلم محمد قائلا :

« خدامته يامعلمى ، زوبه بنتك زى مامحمود ابنى . . . الفاتحة ! »

وصاح المعلم محمد فى نشوة :

« حط ايديك فى ايد نسيبك ياواد ياحنفى ! »

وسرعان ماالتقط السيد افندى كف حنفى ، وضغط عليها فى قوة . . . وران الصمت على الحجرة ، والرجال يقرأون الفاتحة فى همهمات خافتة !

* * *

أحس حنفى بدوار كاد يفقده توازنه . . . فتح فمه لكى يتكلم ، فوقفت الكلمات فى حلقه ، وبقى فمه مفتوحا . . . تلاحقت الكلمات والاحداث فما

تركت له فرصة . . . نهض الرجال فصافحوه وصافحوا السيد افندى ، وما درى . . . انطلقت الزغاريد فدوت فى أرجاء الزقاق ، وهو فى مكانه مذهول لايعى . . . دارت أكواب الشربات على الرجال وشربوا ، وماذاق للشربات طعم . . . أحس كأن يدا قاسية جذبته من مكانه على غير انتظار والقت به فى فضاء لا أول له ولا آخر . . . فماذا يصنع ؟ ! . . . حلم ، حلم بغيض ثقيل . . . كابوس رهيب يكتم أنفاسه ، وأصابه غثيان شديد . . . ضحكات أهله هذه يكتم أنفاسه ، وأصابة غيثان شديد . . . ضحكات أهله هذه التى تصل الى أذنيه أم قهقهات شياطين ليس فى قلبها رحمه !! . . . أفاق على صوت عمه وهو يصيح به :

« جرى ايه ياواد ياحنفى . . . انت غرقان فى ايه ؟ ! »

وصاح حموده نشوان :

« عاوز يتجوز يابا . . . عاوز يتجوز ، والله لنجوزوه ست الحسن ! »

كلمات كالسم ، أو كاطراف سيوف مرهفة ، أو كسكاكين حامية تقطع من قلبه وتلقى منه الى الذئاب . . . محمود مطرق صامت ، لكنه مبتسم ، طوفان من الكراهية يغمر مشاعره . . . خطفت زوبه فى لحظة . . . مجرد لحظة قاسية رعناء . . . لماذا لم يطلبها قبل عمه ؟ . . . ماذا يستطع أن يفعل؟ ! . . . أيصرخ باكيا ويقول أنها لى ؟ ! . . . ماذا يقول عمه وقتها ؟ . . . وماذا يقول ابن عمه ؟ . . . وماذا يقول الرجال . . . حكم قاس ، وقلب يتهاوى فى ذله وانكسار ليسقط مضرجا بلا حول ولاطول !

« ياواد ياحنفى ! . . . ياليلتك بيضة . . . ياواد ماقلتش لابن عمك مبروك ! »

رفع رأسه الى محمود مرة أخرى . . . وكان هذا يامسا . . . كأنه لم . . . أو كأنه طوى فى أعماقه قصة حبه واستسلم . . . الحياة ! . . .

رسم ابتسامة على شفتيه ونهض ، ونهض محمود ، فمد له يده ، وفرد محمود ذراعيه ، فألقى بنفسه فوق صدر ابن عمه . . . وصر على أسنانه حتى يمنع الدمع الطافر فى قوة كالطوفان . . . أحاط محمود بذراعيه ، وتمنى لو يبكى ، لو يصرخ ، لو يتوسل لابن عمه قائلا له : احمنى وقف بجوارى كما حميتك ووقفت بجوارك . . . كما فعلت معك بالأمس ، بالأمس فقط ، عندما حملت جسدك المتهاوى وأوصلته الى البيت !

همس محمود فى حب خالص :

« عقبال مانفرح بيك ياحنفى ! »

وابتسم حنفى وهو يقول فى أسى هامس :

« آنى . . . آنى اتجوزت خلاص يامحمود . . . اتجوزت العيلة ! »

لايدرى كيف قال ذلك . . . على انه أحس بشىء من الراحة يغزو صدره . . . فرحب به بلا تردد ، وعاد الى مقعده وأشعل سيجارة !

— ٣٦ —

فى الفجــــر . . .

ترامى صوت المؤذن من بعيد . . . فتأوهت أم حنفى وهى تنهض ، وما كادت تفتح فمها وهى تتحسس بعينها جسد ولدها حتى شهقت فى دهشة . . . كان حنفى متربعا فى مكانه وهو يتثاءب . . . ولاحقت كلماته كلماتها ، قال فى صوت خفيض :

« ياعيشه . . . عيشه قومى اعملى الشاى يااختى ! »

ونهضت عائشة مسرعة . . . وتدلى فك أم حنفى وهى تقلب النظر بين ولدها وابنتها . . . ثم تمالكت نفسها وهى تقول :

« حنفى . . . »

قال حنفى فى هدوء وصبر :

« بلاش سيرة الجواز يا أمه . . . بلاش خالص ! »

ما كادت تفتح فمها بالاحتجاج . . . حتى كان حنفى قد نهض من مكانه ، وغادر الحجرة ، وعبر الفناء مسرعا الى حيث كانت أخته واقفة . . .

وسرعان ما انحنى أمامها وهى تصب المياه على يديه . . . بينما جاءه صوت أمه وهى تتمتم فى يأس بالغ :

« والنبى خاوى ، وحياة النبى خاوى . . . حاتساخده منى الجنيه زى ما خدت أبوه . . . يارب ! »

ومرت الدقائق مسرعة . . . الدقات على الأبواب ، وأصوات المواقد ، وسعلات الرجال ، والنداءات . . . وخرج من الزقاق رجل ، وثان ، وثالث . . . والقى حنفى بشبكته فوق كتفه . . . وغادر الحجرة دون أن ينظر خلفه ، ثم خطا الى الزقاق ، وعبره مسرعا . . . وانثنى الى اليمين ، ثم الى اليسار . . . واقترب من باب الرصيف ، وزفر وهو يعبره الى الداخل . . . واتجه بعدها الى قارب حموده وقفز اليه . . . أمسك بالمجدافين ، وراح يجدف فى قوة . . . وانزلق القارب على سطح المياه ، ثم أخذ يسبح مسرعا مسرعا . . . حتى اذا أستقبلت مقدمته مياه الميناء الممتدة المنبسطة . . . استدار حنفى الى الخلف ، ولمح محمود وهو يجدف فى القارب الذى عاش فوقه سنوات طويلة . . . وكان ابن عمه يغنى فى ضوء الفجر الشاحب :

ياعينى دمعك ضنانى من البكا والنوح
ما أنت اللى كنت السبب ليه نظرتك تروح
للى عشقته . . وخلى القلب بات مجروح

صـــدر للمؤلـــف

١ ـ الخوف ـ مجموعة قصص ١٩٦٠
٢ ـ زقاق السيد البلطى ـ رواية (طبعة أولى) ١٩٦٣
٣ ـ الكـــذاب ـ رواية (طبعة أولى) ١٩٦٥
٤ ـ خطاب الى رجل ميت ـ مجموعة قصص ١٩٦٧
٥ ـ البحـــر ـ من ادب الرحلات ١٩٧٣
٦ ـ السـجين ـ رواية ١٩٧٦
٧ ـ الصعود الى الهاوية ـ مجموعة قصص عن التجسس ١٩٧٦
٨ ـ الحفـــار ـ رواية من أعمال المخابرات ١٩٨٥
٩ ـ المهاجرون ـ قصة طويلة ١٩٨٦
١٠ ـ رأفت الهجان ـ (الجزء الأول) ١٩٨٦

تحت الطبـــع

١١ ـ قصص من البحر ـ مجموعة قصص قصيرة وطويلة تجري احداثها في البحر
١٢ ـ دموع في عيون وقحة ـ رواية من أعمال المخابرات
١٣ ـ حـــب للبيـــع ـ مجموعة قصص
١٤ ـ صور من مصر مجموعة صور أدبية
١٥ ـ قصة زواج عصري ـ روايـــة

صدرت الطبعة الأولى

من الرواية الخـــالــدة

كنت جاسوساً فى اسرائيل

« رأفت الهجان »

تأليف : صالح موسى

قصة اغرب شاب مصرى عاش فى اسرائيل
على أنه يهودي . . . ويعمل لمصلحة وطنه ولم
يعرف سره حتى وافته المنية

قريبـــاً

الجــزء الثانى من الرواية الخالدة

كنت جاسوساً فى اسرائيل

(رأفـــت الهجـــان)

تقرأ فيها حقائق أغرب من الخيال
تصدرها ابولو . . للنشر والتوزيع

١٦ شارع البورصة . . التوفيقية
القاهرة : ت ـ ٧٥٢٢٢٤

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٣ / ٨٧
الترقيم الدولي ٦ - ٠٢ - ١٥٦٠ - ١٩٧٧ ISBN

الناشر

ابوللو للنشر والتوزيع

١٦ شارع البورصه — التوفيقية —
ص . ب : ٢٥١٥ القاهرة ت : ٧٥٢٢٢٤
عمارات أبو الفتوح — عمارة ٣٩
شقة ٤ الهرم ت : ٨٥٩٥٥٦

الناشر خارج جمهورية مصر

الدار المصرية للنشر والتوزيع
[illegible] 3559 Nicosia - Cyprus
[illegible] 496688 - Tlex 5341
نيقوسيا — قبرص

- الصف والتجهيزات الفنية -

دار الغد العربي
للصحافة والنشر والاعلان
منارة ثقافية جديدة فى مصر

طبع بمطابع
المنار العربى للطباعة والنشر
١ - شارع العامل الأول - امبابة - الجيزة
ج . م . ع

زقاق السيد البلطى

•• وصالح مرسى يملك قدرة درامية لاشك فيها ، وهو يعرف كيف ينضج الموقف الدرامى وكيف يتصل التدرج والاشباع درجة رفيعة فى إثارة القلق والفزع والاشفاق فى نفوسنا !

« د. محمد مندور »

•• إن زقاق السيد البلطى جديدة بموضوعها ، جديدة بأسلوبها .. ولعل أبرز ما فيها أنها تخرج بنا عن الطريقة الدارجة فى تسجيل الواقع إلى نوع من الكتابة لا ينتمى إلى مدرسة بعينها ، بل يكتسب كافة التجارب الروائية المعهودة ويضيف إليها .

« نعمان عاشور »

•• الحياة وفقا لصالح مرسى حياة قاسية أشبه بالبحر المالح الأسود ، ومع ذلك فلابد لنا أن نخوض غمارها ، ونحن نشعر بالعزلة واليأس إن لم نفعل ! إن لم نصبح مع كل الناس جزءا لا يتجزأ منها !

« د. لطيفة الزيات »

•• فى زقاق السيد البلطى نشعر أننا أمام عمل يتسم فيه الديالوج بكثير من الرقة والشعر ، ويتطور فيه الحدث وينمو كطفل لا نصادفه عقبة .. وتتشابك الخيوط وتصطرع وتتباعد لتنمو ، لكنها تعود لتلتقى عند بؤرة تخرج من نطاق الظل شاطئا بأكمله ، شاطئا عاش ميتا فى حكاية جدة عجوز ... ثم جاء صالح مرسى وأعاد اليه اللون والطعم والرائحة ودفء الحياة .

« أحمد بهجت »

•• إن زقاق السيد البلطى تحفة تستحق بجدارة أن تتوج كفاح عشرات الآلاف من الصيادين .. والبلطى كان منهما بمرافقة حية من عرض البحر .. والبحر واسع وغول كبير .. والقصة تمضى فى عذوبة الموج حين تلقى بنفسك على ظهرك فى الماء وتترك الأمواج تحركك !

« د. يوسف إدريس »

•• وكما تغلب أوديب على وحش الخرافة فى الأسطورة اليونانية القديمة ، يتغلب كثير من أبطال صالح مرسى على قوى الطبيعة والقدر ، ويهزمون وحوشا عديدة بعقولهم ، وقوة إرادتهم ، وحرارة التصاقهم بإخوانهم البشر !

« فؤاد دوارة »